

الفردوس

عبد الرزاق قرنح

ترجمة: أحمد حسن المعيني

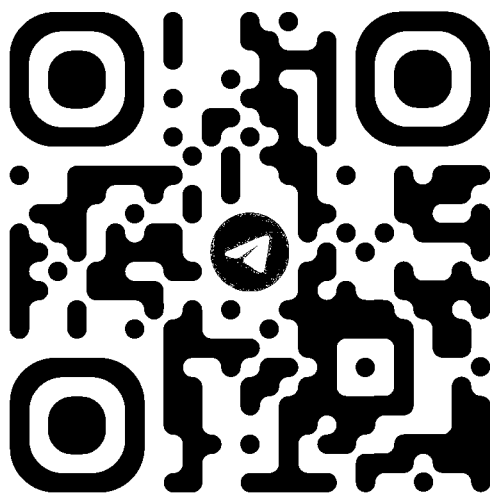
مكتبة



جائزة نوبل 2021

رواية





سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

الفردوس

الضردوس (رواية)
عبدالرزاق قرنج
ترجمة: أحمد حسن المعيني

Paradise by Abdulrazak Gurnah
Copyright © Abdulrazak Gurnah, 1994
Alright Reserved.

الطبعة الأولى 1444 / 2023
رقم الإيداع: 1444 / 7488
ISBN: 978-603-8392-09-6

المملكة العربية السعودية - الدمام
Saudi Arabia - Dammam
www.darathar.net
info@darathar.net



جميع الحقوق محفوظة لدار أثر للنشر والتوزيع. © 2023.

الفردوس

رواية

عبدالرزاق قرنح

ترجمة: أحمد حسن المعيني

مكتبة

t.me/soramnqraa



إلى سلمى عبد الله باسلامة

الحديقة المسوّرة

الصبيُّ أولاً. كان اسمه يوسف، وقد رحل عن بيته على حين فجأة في عامه الثاني عشر. يذكر أنه كان موسم جفاف، فما من يوم يمرّ إلا ويشبه سابقه. زهور تتفتّح من تلقاء نفسها، وتموت. حشرات غريبة تجري من تحت الصخور، تتلوّى إلى فنائها في الضوء الحارق. أشجار بعيدة ترتعش في الهواء من أثر الشمس، فيما البيوت تختلج لالتقاط أنفاسها. سُحب من الغبار تهبّ مع كلّ خطوة، وسكون ثقيل يجثو على ساعات النهار. مثل هذه اللحظات الدقيقة كانت تأتي في أواخر الموسم.

على رصيف المحطة رأى شخصين أوروبيين، للمرة الأولى في حياته. لم يكن خائفاً، ليس في أوّل الأمر على الأقلّ. كان كثيراً ما يذهب إلى المحطة كي يشاهد القطارات وهي تحلّ بضجيجها وانسيابها، ثم ينتظرها إلى أن تجرّ نفسها مرة أخرى بعيداً، على عين مسؤول الإشارة الهنديّ المتجهّم، براياته وصفقارته. كثيراً ما كان يوسف ينفق الساعات في انتظار قطار. والأوروبيان ينتظران أيضاً، واقفين تحت مظلة قماشية مع أمتعة وبضائع تبدو مهمّة، مرتبة بعضها فوق بعض على مقربة. كان الرجل ضخماً، فارغ الطول حتّى أنّه كان يخفض رأسه كي لا يلمس المظلة التي يحتمي بها من الشمس. على بعد خطوات خلفه كانت المرأة تقف في الظلّ، بوجهها اللامع المخبوء شيئاً قليلاً تحت قبعَتين. أمّا قميصها الأبيض المزركش فكان مزركراً حتى الرقبة والمعصمين، فيما تنسدل تنورتها الطويلة إلى حذائها. كانت طويلةً ضخمةً أيضاً، وإنّ على نحو مختلف. فهي تبدو

مكتلة طيعة، وكأنها تستطيع اتخاذ شكل آخر، فيما يبدو هو مقدوداً من قطعة خشبية واحدة. كانا ينظران في اتجاهين مختلفين، وكأنهما غريان. وبينما كان يوسف ينظر إليهما، رأى المرأة تمرّ منديلها على شفّتيها، تكشط بين الفينة والأخرى نتفة من جلد جاف. أما الرجل فكان وجهه مرقشاً بالأحمر، تتحرك عيناه ببطء على المنظر المحدود في المحطة، ما بين المستودعات الخشبية المقفلة، والعلم الأصفر الضخم بصورة الطير الأسود الساطع، فاستطاع يوسف أن ينظر إليه ملياً. ثم التفت فرأى يوسف يحدّق فيه. أشاح الرجل ببصره أولاً، ثم عاد يرمق يوسف لحظة طويلة. لم يستطع يوسف أن يلقي ببصره بعيداً. وفجأة، كشف الرجل عن أسنانه مزمجرًا دون إرادة منه، وقد تقوّست أصابعه على نحو لا يمكن تفسيره. تفتّن يوسف إلى هذا التحذير، فهرب، متممًا بالكلمات التي علّم أن يقولها حين يريد من الله عونًا عاجلاً.

ذلك العام الذي رحل فيه كان نفسه العام الذي تفتّت فيه الأرضة في أعمدة الرواق الخلفي. كان والده يخطب الأعمدة بغضب كلما مرّ بها، يؤكّد لها أنه يعرف ما تخطّط له. كانت الأرضة تترك مسارات على العوارض الخشبية، كالتربة المقلوبة التي تشير إلى خنادق الحيوانات في قعر المجاري المائية الجافة. وكانت الأعمدة تصدر صوتًا ناعمًا أجوف كلما ضربها يوسف، وتزفر بُويغات صغيرة من العفن. وكلّما تبرّم من الجوع دَعَتْهُ أمّه إلى أكل الحشرات.

يشكو لأمّه: «أنا جائع»، في ابتهال فطريّ يتلوه بجلافة تزداد عامًا بعد عام. فتقول له: «كُل الأرضة»، ثم تضحك على نظرته المترعة غمًا وقرقًا. «تفضّل، املا بطنك بها في أيّ وقت تريد. لا تتردّد».

وعندها يتنهّد سأمًا على نحو يجربّه، كي يشعرها بفداحة مزحتها. في بعض الأحيان كانوا يأكلون العظام، إذ تغليها أمّه كي تطبخ حساء خفيفًا يلتمع سطحه بدهن ولون، فيما تتوارى في أعماقه كتل من نخاع العظم الأسود. وفي أسوأ الأحوال، لم يكونوا يجدون ما يسدّون به رمقهم إلا يخنة البامية، غير أنّ يوسف لم يستطع أن يزدرد ذلك المرق اللزج مهما بلغ جوعه.

في تلك الآونة كان عمّه عزيز يأتي لزيارتهم أيضًا. كانت زيارته قصيرة متباعدة، وعادة ما يأتي بصحبة زمرة من المسافرين والحمّالين والموسيقيّين. يتوقف معهم في رحلاته الطويلة من المحيط إلى الجبال فالبحيرات والغابات، وعبر السهول الجافة والمرتفعات الصخرية العارية في الداخل. وكثيرًا ما تحفل رحلاته بالطبول والدفوف والأبواق والسبورة⁽¹⁾، وحين يصل قطاره إلى المدينة تنطلق الحيوانات وتخلي مساكنها، فيما يجري الأطفال هنا وهناك دون رادع. كانت للعمّ عزيز رائحة غريبة غير معتادة، مزيج من العطر والجلود والصمغ والتوابل، فيما تنبعث منه رائحة أخرى أقل وضوحًا تجعل يوسف يستشعر الخطر. أمّا لباسه المعتاد فكان كانزو، ثوبًا منسدلاً من القطن الرفيع، وقبعة مخيطة صغيرة يعتمرها في منتصف رأسه. كان يبدو بمظهره الأنيق وسلوكه الرائق رجلًا يتجول آناء العصر، أو مصلّيًا في طريقه إلى صلاة العشاء، لا تاجرًا تخيّر أن يسلك في طريقه الأحراش الشوكية وأوكار الأفاعي السامة. كان العمّ عزيز يبدو هادئًا مطمئنًا، حتى في حرارة استقباله بين الفوضى والأمتعة المتراكمة، محاطًا بالحمّالين المنهكين المزعجين، والتجار المتأهبين بمخالبهم. غير أنّه في تلك الزيارة جاء وحيدًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) آلة نفخ موسيقية. (المترجم)

لطالما استمتع يوسف بزياراته. كان والده يقول إنّ زيارته تلك كانت تكسبهم تشريفًا واحترامًا بين الناس؛ فالعمّ عزيز كان تاجرًا معروفًا ثريًا (تاجريّ مكوبوا). غير أنّ هذا لم يكن السبب الوحيد، رغم أنّ التشريف والاحترام مطلوبان دائمًا. فالعمّ عزيز كان ينفحه دائمًا عشر آتات في كلّ زيارة، ولم يكن مطلوبًا منه إلا أن يكون حاضرًا في الوقت المناسب. كان العمّ عزيز يبحث عنه، وابتسم له، ثم يعطيه تلك العملة المعدنية. حينها يشعر يوسف بأنه يودّ الابتسام أيضًا، لكنّه يكتبها خشية أن يكون ذلك من سوء الأدب. كان يوسف يندهش من بشرة العمّ الوضّاءة، ورائحته الغريبة. بل إنّ عطره كان يبقى في المكان أياّما بعد رحيله.

بحلول اليوم الثالث من زيارته كان من الواضح أنّ رحيله أضحى وشيكًا. فقد كان هناك نشاط غير اعتياديّ في المطبخ، مشفوعًا بالروائح المعروفة لإعداد وليمة. توابل القلي، وصلصة جوز الهند الساخنة، وأرغفة الخبز المدوّرة والمسطّحة، والبسكويت، واللحم المغليّ. كان يوسف حريصًا طوال النهار على ألاّ يبتعد عن البيت، فقد تحتاج إليه والدته في تحضير الأطباق أو إبداء رأيه فيها. كان يعرف أنّها تثق في رأيه في هذه الأمور. أو ربّما تنسى قلبب الصلصة، أو تفوتها اللحظة المناسبة لإضافة الخضروات بعد أن يسخن الزيت. كان أمرًا محيرًا؛ ففي حين أنه كان يريد الإشراف على ما يحدث في المطبخ، إلا أنه لم يكن يريد أن تراه أمّه هكذا متلکّثًا متربّصًا لا يلوي على شيء. عندها ستحرص على إرساله في مهامّ لا تنتهي، وهو أمر سيّئ في حدّ ذاته، علاوة على أنّه سيفوّت عليه توديع العمّ عزيز. ففي لحظة الرحيل تلك تنتقل العشر آتات من يد إلى أخرى، حين يمدّ العمّ يده ليوسف

كي يقبلها، ثم يربّت على رأس الصبيّ، ويدسّ العشر آنات في يده بسهولة العارف الخبير.

كان من عادة والده أن يعود من العمل بُعيد الظهيرة، فخمّن يوسف أنّه سيحضر العمّ عزيز معه حين يأتي، وبذلك يكون لديه وقت طويل يزجيه. أمّا والده فكان يملك فندقاً، هو الأخير من سلسلة مشاريع حاول من خلالها أن يصنع لنفسه اسمًا وثروة. في أوقات صفوه في البيت كان يحكي لهم عن مشاريع أخرى اعتقد أنّها ستنجح، لكنّه الآن يقصّها بطريقة تبدو فيها سخيفة مضحكة. في أحيان أخرى كان يوسف يسمعه يتشكّى من حياته التي اتّخذت مسارًا خاطئًا، ومن جميع محاولاته التي باءت بالفشل. أمّا الفندق فكان عبارة عن مطعم وغرفة علويّة بها أربعة أسرّة في بلدة «كاوة» الصغيرة التي كانوا يقيمون فيها منذ أكثر من أربع سنوات. قبل ذلك كانوا يعيشون في الجنوب في بلدة صغيرة أخرى في محافظة زراعيّة، يدير فيها والدّه دكانًا. تذكّر يوسف مرتفعًا أخضر وأطراف جبال بعيدة، ورجلاً طاعنًا في السنّ كان يجلس على كرسيّ فوق الرصيف أمام الدكان، يخطط القبعات بخيط حرير. لقد جاؤوا إلى كاوة بسبب الطفرة التي حدثت فيها حين استخدمها الألمان محطة لخطّ السكك الحديدية الذي كانوا يمدّونه إلى مرتفعات الداخل. غير أنّ الطفرة مرّت سريعًا، ولم تعد القطارات تتوقّف هناك إلا للتزوّد بالخشب والماء. حتّى العمّ عزيز في رحلته الأخيرة استخدم هذا الخطّ إلى كاوة، قبل أن يغرب مشيًا على الأقدام. وقال إنّّه في رحلته التالية سيذهب بالقطار إلى آخر حدّ ممكن قبل أن يسلك الطريق الشمال-غربي أو الشمال-شرقي. كانت هناك فرص جيّدة للتجارة هناك على حدّ قوله. وقد سمع يوسف أباه غير مرّة يقول إنّ البلدة بأكملها ذاهبة إلى الجحيم.

كان القطار المتّجه إلى الساحل يغادر في أوّل المساء، فخطر ليوسف أنّ العمّ عزيز سيكون فيه. لقد خمن من شيء في سلوكه أنّه عائد إلى بيته، ولكنّ لا يمكن الوثوق في هذا، فقد يستقلّ القطار المتّجه إلى الجبال، ذلك الذي ينطلق عصرًا. كان يوسف مستعدًّا للاحتمالين. أمّا والده فكان ينتظر مجيئه إلى الفندق كلّ يوم بعد صلاة الظهر كي يعرف أكثر عن العمل (على حدّ قول والده)، ويتعلّم كيف يقف على قدميه. لكنّ الحقيقة أنّه كان مطلوبًا لتخفيف العبء عن الشابين الذين يعملان عنده وينظفان المطبخ ويقدمان الطعام للزبائن.

أمّا طبّاخ الفندق فكان كثير السُكّر والشّم، لا يفتأ يشتم كلّ من يراه أمامه، عدا يوسف. كان في بعض الأحيان يقطع وصلة طويلة من السّباب بابتسامة حين يلمح يوسف قادمًا، غير أنّ هذا كان يهابه ويرتجف أمامه. في ذلك اليوم لم يذهب إلى الفندق، ولم يصلّ الظهر، ولم يبدُ له أنّ أحدًا سوف يعبأ بالبحث عنه في ذلك الوقت القائن من النهار. هكذا جلس في الزوايا الظليلة وخلف أقنية الدجاج في الفناء الخلفيّ مكتئبًا، إلى أن طردته الروائح الخائفة التي كانت تنتشر وقت العصر مع الغبار. فالتجأ إلى الفناء الخشبيّ المجاور لمنزلهم، حيث الأطياف الأرجوانيّة الداكنة، وسقف القشّ المقبب. هناك ينصت لزحف السحالي التي لا تتركه في حاله، وينظر في ترقّب للآفات العشر.

لم يزعجه صمت الفناء الخشبيّ ولا ظلمته؛ فقد اعتاد اللعب وحده. لم يكن والده يحبّ أن يلعب خارج البيت. «الهمج في كلّ مكان حولنا. أولئك الواشينزي لا يؤمنون بالله ويعبدون الأرواح

والشياطين التي تسكن الأشجار والصخور. ولا شيء أحب إليهم من اختطاف الأطفال واستخدامهم كما يحلو لهم. وإن لم يأخذك هؤلاء ستذهب مع أولئك الذين لا يأبهون بشيء، المتسكعين أولاد المتسكعين، وسوف يغفلون عنك إلى أن تأكل الكلاب المسعورة. فلتبق هنا في أمان، ولا تغب عن أعيننا». كان والده في الحقيقة يفضل أن يلعب يوسف مع أولاد الهندي صاحب الدكان الذي يسكن في الجوار، غير أن الأولاد الهنود كانوا يلقون عليه الرمل ويسخرون منه كلما اقترب منهم. كانوا يهتفون «غولو، غولو»⁽²⁾ ويبصقون في اتجاهه. وكان يذهب أحياناً عند الأولاد الأكبر منه الذين يتفوّون ظلال الأشجار أو البيوت. يحب رفقتهم لأنهم لا يتوقعون عن إلقاء النكات والضحك. وكان آباؤهم فياروهم عمالاً عند الألمان في بناء السكك الحديدية، يعملون بالقطعة في نهاية السكة، أو حمالين للمسافرين والتجار. لم يكن هؤلاء يقبضون إلا أجر ما يقومون به، وفي بعض الأحيان لم يكن ثمة عمل لهم. وقد سمع يوسف الأولاد يقولون إن الألمان يشنقون من لا يُجدّ في عمله. فإن كان صغيراً على الشنق، جعلوه يكسر الصخور. الألمان لا يخشون شيئاً. كانوا يفعلون ما يحلو لهم، دون رادع. قال أحد الأولاد إن آباه رأى ألمانياً يضع يده في وسط نار مشتعلة فلم تحترق، وكأنه شبح.

أولئك القَعلة من آباء الأولاد ينحدرون من كلّ مكان؛ من مرتفعات «أوسامبارا» شمال كاوة، والبحيرات الرائعة غرب المرتفعات، والسهول العشبية التي مزقتها الحروب في الجنوب، وكثير منهم جاء من الساحل. كان الأولاد يتندّرون على آبائهم، يسخرون من أغاني

(2) كلمة بالعجراتية كان الهنود يستخدمونها لإهانة الأفارقة، وتعني «العبد». (المترجم)

العمل التي يغنونها، ويقارنون بين الروائح المقرفة التي يأتي بها آباؤهم من العمل. يتندرون على أصول آبائهم بأسماء اصطنعوها، أسماء مضحكة بغیضة يستخدمونها للشتم والسخرية من بعضهم البعض. في أحيان أخرى كانوا يتعاركون، يركل بعضهم بعضاً حدّ الألم. الأكبر سنّاً منهم كانوا يعملون خدماً أو أشبه بالفراشين إن تيسّر لهم ذلك، لكنهم في الغالب كانوا يتسكّعون ويتقمّمون، في انتظار أن يزدادوا قوّة تؤلّهم لعمل الرجال. كان يوسف يجلس معهم حين يسمحون له، يستمع إلى حديثهم ويقضي المهامّ عنهم.

كانوا يزجون أوقاتهم في لعب الورق أو في القيل والقال. معهم تحديداً سمع يوسف للمرّة الأولى أنّ الأطفال يعيشون في قضيب الرجل؛ فحين يريد الرجل طفلاً، يضعه في بطن المرأة كي تكون له مساحة أكبر للنموّ. لم يكن وحده الذي لم يصدّق هذا الأمر، ومع ازدياد حدّة النقاش بات الواحد منهم يخرج شيء وقيسه. وهكذا نسي أمر الأطفال، وأصبح القضيب في حدّ ذاته أمراً مثيراً للاهتمام. كان الأكبر سنّاً منهم يفتخرون باستعراض ما لديهم، ويجبرون الأصغر سنّاً على أن يكشفوا عن «عبد الله الصغير» رغبةً في الضحك.

وفي أحيان أخرى كانوا يلعبون الكياندي. صحيح أنّ يوسف كان أصغر من أن يسمح له بالضرب (فالسّن والقوّة تحدّدان من يضرب)، لكنّه كان ينضمّ إلى زمرة المدافعين الذين يطاردون قطعة خشب طائرة في مساحات ترابيّة مفتوحة. ذات مرّة رآه والده يركض في الشوارع مع عصبة من الأطفال المسعورين في لعبة الكياندي، فحدّجه بنظرة استنكار قويّة، ثم صفعه وأمره أن يعود إلى البيت.

صنع يوسف كياندي لنفسه وكيف اللعبة بحيث يمكنه أن يلعبها بمفرده. كان يتظاهر بأنه جميع اللاعبين، وهكذا يستطيع أن يضرب الخشبة كما يشاء. كان يجري في الشارع أمام بيته، يصرخ في حماس ويحاول أن يمسك الكياندي التي ضربها لتوه عاليًا بأقوى ما يستطيع، كي يعطي لنفسه وقتًا كافيًا لمطاردتها.

2

لذلك، ففي يوم رحيل العمّ عزيز لم يشعر يوسف بتأنيب ضمير من إضاعة بضع سويعات وهو يطارد الآنات العشر. عاد والده وعمّه إلى البيت ظهرًا، فرأى جسديهما يلتمعان تحت الضوء السائل وهما يقتربان ببطء من الممرّ الحجريّ المفضي إلى المنزل. كانا يمشيان دون كلام، برأس مطأطئ وكثفين محدودبين من أثر الحرارة. كان الغداء قد وُضع لهما فوق أفضل بساط في غرفة الضيوف. ويوسف نفسه ساعد في التجهيزات الأخيرة، إذ عدّل من مواضع بعض الأطباق ليبدو المنظر أجمل، فاستحسنت أمّه المتعبة ذلك. ولما كان يوسف هناك فقد انتهز الفرصة لاستكشاف الوليمة. كان هناك نوعان من «الكاري»، أحدهما بالدجاج والآخر باللحم المفروم، وأفضل نوع من الرزّ البيشاوري، بلمعة السمن وحبّيات الزبيب واللوز المتناثرة فوقه. وهناك أرغفة الخبز المكتنزة برائحتها الزكية، و«المندازي» و«المحمري» التي تملأ سلّة مغطّاة بقماش. وهناك السبانخ المطبوخة في صلصة النارجيل، وصحن من الفاصوليا. وإلى جانب ذلك قطع من السمك المجفّف المشويّ على بقايا الفحم الذي طُبّخ عليه الطعام. كاد يوسف أن يبكي

وهو ينقل عينيه بين هذا الطعام الوفير، على خلاف الوجبات الضئيلة في ذلك الزمان. عبست أمه من أدائه التمثيليّ ذاك، لكنّ وجهه اكتسى مسحة مأساوية جعلتها تضحك في نهاية الأمر.

وبمجرّد أن جلس الرجلان، دخل عليهما يوسف بإبريق نحاس وطاسة ومنشفة نظيفة تنسدل من على ذراعه اليسرى. صبّ الماء ببطء بينما أخذ عمّه عزيز ووالده يغسلان أيديهما. كان يحبّ الضيوف من أمثال العمّ عزيز، يحبّهم كثيراً. كان هذا ما يدور في باله وهو يقرفص في الخارج عند باب الغرفة، تحسّبا لأن يُطلب منه شيء. كان يودّ لو يبقى في الغرفة يتفرّج، لكنّ والده حمله فيه بغضب وطرده بعينيه. كان هناك دائماً شيء يحدث حين يأتي العمّ عزيز. يأكل كلّ وجباته في بيتهم رغم أنه يبيت في الفندق، وهذا يعني أنه كثيراً ما تبقى لقيمات بعد الانتهاء من الأكل، إلّا إذا رأتها أمه أولاً، فينتهي بها الحال في بيت جار أو في بطن أحد المتسولين الذين يدقّون الباب أحياناً، يتمتمون بالتسبيح والأدعية. تقول والدته إنّّه من الأخير إعطاء الطعام للجيران والمحتاجين بدلاً من الاستسلام للنهم. لم يفهم يوسف المنطق وراء ذلك، لكنّ والدته قالت له إنّ الفضيلة أجبرها فيها. فهم من حدّة صوتها أنه لو قال شيئاً لاضطر إلى سماع موعظة طويلة أخرى، وقد كان لديه منها ما يكفي من معلّم القرآن.

كان هناك متسوّل واحد لا يمانع يوسف أن يشاركه بقايا طعامه. اسمه محمد، وهو رجل ضامر الجسم ذو صوت حادّ تفوح منه رائحة اللحم العفن. كان يوسف قد وجده جالساً إلى جانب البيت ذات ظهيرة يأكل حفنات من التراب الأحمر اغترفها من الجدار المتآكل. قميصه قدر مبقّع ويلبس بنطالاً قصيراً لم ير يوسف في حياته شيئاً

يشبه رثائه. أمّا حافة قَبَعته فكانت بنية غامقة مملوءة بالتراب والعرق. راقبه يوسف بضع دقائق، يسائل نفسه ما إذا كان قد رأى شخصاً أقدر منه، ثم ذهب ليحضر له طاسة من بقايا الكسافا⁽³⁾. وبعد لقيمات منه أكلها محمد بين آهات الامتنان والعرفان، أخبره أنّ مأساة حياته هي الحشيش. قال إنّ كان ميسور الحال، ولديه أرض وحيوانات، ووالدة تحبّه. كان يعمل في أرضه نهاراً بأقصى ما لديه من قوّة وتحمل، ويجلس ليلاً مع أمّه وهي تنشد الابتهالات الدينية وتحكي له قصصاً مذهلة عن العالم العظيم.

لكنّ الشرّ جاءه، وجاء بقوة حتّى أنه هجر أمّه وأرضه بحثاً عن الحشيش، وانتهى به الحال يطوف العالم يتلقّى الضرب ويسفّ التراب. وفي كلّ جولاته لم يأكل قطّ طعاماً يساوي أكل أمّه، إلا الآن ربما، بقطعة الكسافا هذه. أخبر يوسف قصصاً عن رحلاته بينما كانا يجلسان على الجدار الجانبي للبيت، بصوته الحادّ النابض بالحياة ووجهه الشاب الداوي الذي يتشقق إلى ابتسامات مكسورة الأسنان. «تعلّم من تجربتي التعيسة يا صديقي الصغير. لا تقرب الحشيش، أتوسل إليك!». لم تكن زيارته تطول، لكنّ يوسف كان يسعد دوماً برؤيته وسماع مغامراته الجديدة. كان أكثر ما يحبّه أن يسمع أوصاف محمد لأرضه المروية جنوب «ويتو» والحياة التي كان يعيشها في أيام السعادة تلك. وبعد ذلك كان يحبّ أن يسمع عن أوّل مرة أخذ فيها محمد إلى مستشفى المجانين في ممباسا. «والله، لا أكذب عليك، أيها الصغير. حسّوني مجنوناً! هل تصدّق؟» هناك كانوا يملؤون فمه بالملح، ويصفعونه إن حاول أن يبصقه. ولم يكونوا يتركونه وشأنه إلّا

(3) ثمر يشبه البطاطا الحلوة، ويُسَمّى بالعربية أيضاً بقرّة أو منيهوت. (المترجم)

إذا جلس صامتًا بينما تذوب صخور الملح في فمه وتنخر أحشائه. تحدث محمد عن التعذيب بهزة كتف، ولكن بشيء من اللهو أيضًا. كانت لديه حكايات أخرى لم تعجب يوسف، عن كلب أعمى رآه يُرجم حتى الموت، وعن أطفال تخلّى عنهم أهلهم بكلّ قسوة. ذكر شابة كان يعرفها ذات يوم في ويتو. قال إنّ أمه كانت تريده أن يتزوَّج، ثمّ ابتسم ببلاهة.

حاول يوسف أن يخفيه في بادئ الأمر، خوفًا من أن تطرده والدته، لكنّ محمدًا انكمش وصار يلهج بالأدعية كلّما جاءت، فأصبح واحدًا من المتسولين الأثيرين عندها. كان ينشج على مسمع منها: «أكرم والدتك، أتوسّل إليك! تعلّم من تجربتي المريعة». قالت له والدته لاحقًا إنّّه ليس غريبًا أن يتخفّى الحكماء أو الأنبياء أو السلاطين في هيئة شحاذين ويختلطوا بالناس العاديين والمحرومين. ومن الأفضل أن نعاملهم باحترام. وكلّما ظهر والد يوسف كان محمد ينهض ويرحل، بأصوات إذعان وخنوع.

ذات مرّة سرق يوسف عملة معدنيّة من معطف أبيه. لم يعرف ما دعاه إلى ذلك. بينما كان والده يغتسل بعد عودته من العمل، أدخل يوسف يده في المعطف الزنخ بالعرق الذي كان معلقًا على مسمار في غرفة أبويه، وأخذ العملة. لم يكن شيئًا قد خطّط له. لاحقًا حين نظر إلى العملة وجدها روبيّة فضيّة وخاف أن ينفقها. فوجئ أنّ أمره لم يُكتشف، فشعر برغبة في إعادتها. فكّر عدّة مرّات في أن يعطيها محمدًا، لكنّه خشي مما قد يظنّه الشحاذ به أو يتهمه. كانت الروبيّة الفضية أكبر قدر من المال أمسك به يوسف في حياته. لذلك أخفاها في شقّ في قاعدة جدار، وأحيانًا كان يُخرج طرفًا منها بعضًا.

كان العمّ عزيز يقضي فترة الظهر في غرفة الضيوف، في قيلولة. بالنسبة إلى يوسف بدا الأمر ضرباً من التعطيل وتبديد الوقت. والده أيضاً كان قد انسحب إلى غرفته، كما كان يفعل كلّ يوم بعد الغداء. لم يفهم يوسف السبب الذي يدعو الناس إلى النوم بعد الظهيرة، وكأنّه قانون لا بدّ من أن يطاع. كانوا يسمّون ذلك راحة، بل إنّ أمّه كانت تفعل ذلك أحياناً، فتختفي في غرفتها وتسدل الستائر. حين جرّب ذلك مرّة أو مرّتين ضجر حتّى خيّل إليه أنّه لن يستطيع النهوض ثانية أبداً. في المرّة الثانية ظنّ أنّ هذا ما يبدو عليه الموت: أن تستلقي على سريرك مستيقظاً لكنك لا تستطيع الحراك، وكأنّه عقاب.

بينما كان العمّ عزيز نائماً، طُلب إلى يوسف أن ينظّف المطبخ والفناء. كان هذا أمراً لا مفرّ منه ما دام يريد أن يكون له رأي في التخلّص من بقايا الطعام. والمثير للدهشة أنّ والدته تركته وشأنه وذهبت للتحدّث مع والده. كانت في العادة تشرف على الأمر إشرافاً صارماً، تفصل البقايا التي يمكن التخلّص منها عمّا يمكن أن يكون وجبة أخرى. أحدث يوسف أكبر قدر ممكن من الضرر في الطعام، ثمّ ألقي بعضه واحتفظ بما يمكن الاحتفاظ به، وفرك الأواني وغسلها، ومسح الفناء، ثم ذهب للجلوس متحقّزاً في الظلّ بجوار الباب الخلفي، يتشكّى من الأعباء الملقة على عاتقه.

فلما سأله والدته عمّا يفعله، أجاب بأنّه يرتاح قليلاً. حاول ألاّ يقولها بغرور، لكنّها خرجت على هذا النحو، ما دفع والدته إلى التبسّم. مدّت يدها إليه فجأة، وعانقته ورفعته وهو يركل بشدّة كي

تطلقه. كانت تعرف أنه يكره أن يعامل كطفل. امتدت قدماه تبحثان عن كرامة الأرض الجرداء حيث كان يتلوّى بغضب منضبط. كانت دائماً ما تفعل ذلك لأنه صغير الحجم بالنسبة إلى سنّه. تحمله، وتقرص خديّه، تعانقه وتقبّله، ثم تضحك عليه وكأنه طفل صغير. كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره. استغرب أنها لم تتركه هذه المرّة. عادة ما تتركه بمجرد أن يتبدّى الغضب في مقاومته، فتضرب مؤخرته وهو يركض مبتعداً. أمّا الآن فقد أمسكت به، وضغطته على جسمها الناعم، دون أن تقول شيئاً أو تضحك. كان الجزء الخلفي من صدريّتها ما يزال مبللاً بالعرق، وجسدها يفوح بالدخان والتعب. توقّف عن المقاومة بعد لحظة وترك نفسه لحضن والدته.

كان هذا أوّل نذير له. فحين رأى الدموع في عيني والدته طفر قلبه من الرعب. لم ير والدته على هذه الحال من قبل. كان قد رآها تننّ على فجيرة أحد الجيران كما لو أنّ مصيبة عظيمة قد حلّت، وسمعها تتوسّل رحمة الله على الأحياء، ووجهها قد تبلّل تضرّعاً، لكنّه لم ير هذه الدموع الصامته قطّ. خطر له أنّ شيئاً قد جرى لها مع والده، فربّما عنّفها بقسوة. لعلّ العمّ عزيز لم يرقه الطعام الذي أعدّته.

قال متوسّلاً: «ماه»، لكنّها أسكتته.

لعلّ والده تحدّث عن زوجته الأخرى وامتدحها. كان يوسف يسمع ذلك منه في أوقات الغضب. ذات مرّة سمعه يقول لأُمّه إنّها ابنة واحد من قبائل التلال من الجزء الخلفي من «تايتا»، يعيش في كوخ مدخّن ويرتدي جلد ماعز نتن، ويعتبر أنّ خمسة من الماعز وكيسين من الفاصوليا سعر جيّد لأيّ امرأة. قال: «لو حدث لك أيّ شيء، فسوف يبيعونني واحدة أخرى مثلك من حظائرهم». لم يكن

يسمح لها بأن تتباهى لمجرد أنها نشأت على الساحل وسط شعوب متحضرة. أما يوسف فكان ينتابه خوف شديد حين يتشاجران، ويشعر بكلماتهما الحادة تقطعه، ويتذكر قصص الأطفال الآخرين عن العنف والهجران.

والدته هي التي أخبرته عن الزوجة الأولى، وكانت تسرد القصة بابتسامات وصوت تذخره للحكايات. كانت تلك الزوجة امرأة عربية من عائلة عريقة من «كلوة». لم تكن أميرة، لكنها من أصول شريفة. وكان والد يوسف قد تزوجها رغم اعتراض والديها، فلم يكونا يعدّانه كفتًا لهما. صحيح أنّ له اسمًا مُحترماً، لكنّ من ينظر إليه يعرف أنّ والدته من الهمج، وأنّه لم يعيش حياة الرخاء. ورغم أنّ نسب الأم لا يؤثر في اسم المرء، إلا أنّ هناك ضرورات عملية يحتمها العالم الذي كانوا يعيشون فيه. كانت لديهما آمال كبيرة لابنتهما، ليس من بينها أن تصبح أمًّا لأطفال فقراء وذوي سحنة همجية. قالوا له: «نقدّر لك رغبتك في الارتباط بابنتنا ونشكر الله على ذلك، لكنّ ابنتنا ما تزال صغيرة على التفكير في الزواج. وهناك فتيات كثيرات في البلدة أفضل منها».

بيد أنّ والد يوسف لم يستطع أن ينسى الفتاة منذ أن وقعت عيناه عليها. هام بها، فغدا متهوراً أرعن لا يفكر إلا في السبيل إلى الوصول إليها. كان غريباً في كلوة، مجرد وكيل لتسليم شحنة من جرار الماء الفخارية، لكنّه كان صديقاً لربّان سفينة شراعية. أقرّه صديقه «النوخدة» على ما يحمل في نفسه من شغف بالفتاة، وساعده في احتياله للفوز بها. قال النوخدة إنّ الأمر (بصرف النظر عن أيّ شيء آخر) سوف يسبّب كمداً لأسرتها المعترّة بنفسها. هكذا أصبح والد يوسف يلتقي

الفتاة سرّاً، إلى أن هرب بها في نهاية المطاف، والنوخذة هو الذي نقلهما إلى «باغامويو» في البرّ الرئيس، إذ كان عليماً بكلّ المناطق الساحليّة من «فزا» في أقصى الشمال إلى «مُتوارا» في الجنوب. هناك وجد والد يوسف عملاً في مستودع للعاج يملكه تاجر هنديّ، فعمل حارساً في أوّل الأمر، ثم أصبح كاتباً وسمساراً. وبعد ثمانية أعوام، قرّرت الفتاة التي تزوّجها أن تعود إلى كلوة، فكتبتُ إلى والديها تطلب عفوهما، على أن يرافقها ابناها الصغيران شفاعاً لها أمام والديها. أمّا مركب الدهو الذي سافروا فيه فكان اسمه «جيكو» (أي العين)، ولم يلمحه أحد مرّة أخرى بعد أن غادر باغامويو. كان يوسف قد سمع والده يتحدّث أيضاً عن أسرته تلك، غالباً حين يتملّكه الغضب أو خيبة الأمل. كان يعلم أنّ الذكريات تؤلم والده، وتستنفر غضبه.

ذات مرّة، في إحدى الشجارات الرهيبة بين والديّ، حين بدا أنّهما نسيا وجوده عند الباب المفتوح وكلّ منهما يغرز مخبله في الآخر، سمع والده يتأوّه شاكياً: «لم يُبارك الله في حبّي لها. هل تعرفين هذا الألم؟»

قالت: «ومَن لا يعرف؟ من لا يعرف هذا الألم؟ أم تظنّ أنّي لا أعرف ألم الحبّ الذي ينتهي بالفشل؟ أتظنّ أنّي لا أشعر بشيء؟»

فصاح بصوت يعلو ويرعد: «لا، لا، لا تلومني. أنتِ بالذات. لا تلومني. ولا تعودي لهذا الموضوع مرّة أخرى».

قالت له بصوت يتحوّل إلى همس: «لن أفعل».

لذلك لم يدر يوسف ما إذا كانت قد تشاجرت مع أبيه مرّة أخرى. انتظرها تتحدّث، تخبره بالمشكلة، غاضباً من عجزه عن فرض إرادته عليها كي تخبره عن سبب بكائها.

قالت أخيراً: «سيخبرك والدك». تركته يذهب وعادت إلى داخل المنزل. وابتلعها سواد الردهة في غمضة عين.

4

جاء والده للبحث عنه. كان قد استيقظ لتوّه من القيلولة وكانت عيناه ما تزالان محمرّتين من أثر النوم. خدّه الأيسر ملتهب، لعلّه نام عليه. رفع طرفاً من قميصه الداخلي وحكّ بطنه، فيما تمسّد يده الأخرى لحيته الخفيفة. كانت لحيته تنمو سريعاً، وعادة ما يحلق عصر كلّ يوم بعد نومه. ابتسم ليوسف، واتّسعت ابتسامته كثيراً. كان يوسف ما يزال جالساً عند الباب الخلفي حيث تركته والدته. فجاء والده وقرّص إلى جانبه. خمّن يوسف أنّ والده يحاول أن يبدو غير مبال، فتوتّر.

سأله والده وهو يشدّه نحو رائحة عرقه الذكوريّة: «أتحبّ أن تذهب في رحلة صغيرة أيّها الأخطبوط الصغير؟». شعر يوسف بثقل ذراع أبيه على كتفه، فقاوم الضغط لدفن وجهه في صدر والده. لقد كبر على هذه الحركات. اندفعت عيناه إلى وجه أبيه تقرّآن معنى ما يقوله. ضحك والده وهو يضمّه بقوة. قال: «لا تفرح كثيراً».

سأله يوسف وهو يتلوّى كي يتخلّص من حُزن أبيه: «متى؟».

قال والده وهو يرفع صوته بمرح: «اليوم»، ثم ابتسم وهو يتشاءب، في محاولة كي لا يبدو مهموماً: «فوراً».

وقف يوسف على رؤوس أصابعه وثنى ركبتيه. فجأة شعر بحاجة إلى قضاء حاجته، وأخذ يحدّق بقلق في والده، في انتظار توضيح أكثر.

«إلى أين أذهب؟ وماذا عن العمّ عزيز؟». غير أنّ الخوف المفاجئ الذي ألمّ به انطفأ حين تذكر الآنات العشر. لم يكن يستطيع الذهاب إلى أيّ مكان إلى أن يستلم آناته.

قال والده: «ستذهب مع العمّ عزيز»، ثم ابتسم له ابتسامة صغيرة، مريّة. كانت هذه عادته حين يتفوّه يوسف بحماقة ما. انتظر يوسف توضيحًا أكثر، لكنّ والده كفّ عن الكلام. بعد لحظة ضحك والده واندفع نحوه. هرع يوسف بعيدًا وضحك أيضًا. قال والده: «سوف تركب القطار، إلى الساحل. ألسنّ تحبّ القطارات؟ سوف تستمتع طوال المسافة إلى البحر». انتظر يوسف من والده أن يوضّح أكثر، ولم يعرف السبب الذي جعله لا يتحمّس لهذه الرحلة. في النهاية ضربه والده على فخذه وأمره بالذهاب إلى أمّه كي يحزم بعض الأغراض.

فلما حان وقت الرحيل، لم يبد له الأمر حقيقيًا. ودّع والدته عند باب البيت وتبع والده والعمّ عزيز إلى المحطة. لم تعانقه أمّه ولم تقبله ولم تذرف الدموع عليه. وكان يخشى أن تفعل ذلك. لاحقًا، لم يستطع يوسف أن يتذكّر ما فعلته أمّه أو قالته، لكنّه تذكر أنها بدت مريضة أو ذاهلة، تنكّى بإرهاق على عمود الباب. وحين أخذ يستذكر لحظة رحيله، كانت الصورة التي خطرت في باله صورة الشارع البراق الذي ساروا فيه، والرجال الذين كانوا يمشون أمامه. وأمامهم جميعًا يترنّح الحمّال وهو يحمل أمتعة العمّ عزيز على كتفيه. سُمح ليوسف بحمل صرّته الصغيرة: سروالين قصيرين وكانزو كان ما يزال جديدًا منذ آخر عيد، وقميص، ونسخة من القرآن الكريم، ومسبحة والدته القديمة. كانت قد لقت كل شيء عدا المسبحة في شال قديم، ثم

شدّت الأطراف في عقدة سميكة. كانت تبتسم، وقد دفعت العصا في العقدة حتى يتمكن يوسف من حمل الصرة على كتفه، كما يفعل الحمّالون. وآخر ما وضعته كانت مسبحة من الحجر البني، خفية.

لم يخطر في باله، ولا لحظة واحدة، أنه قد يرحل عن والديه فترة طويلة، أو أنه قد لا يراهم مرة أخرى. لم يخطر في باله أن يسأل متى يعود. ولم يفكر في أن يسأل لماذا يرافق العمّ عزيز في رحلته، أو لماذا جرى ترتيب الأمر فجأة. في المحطة رأى يوسف علماً آخر غير العلم الأصفر ذي الطائر الأسود الغاضب، علماً عليه صليب أسود بحواف فضية. كانوا يلوحون بذلك العلم حين يسافر كبار الضباط الألمان على القطار. انحنى والده إليه وصافحه. تحدّث معه طويلاً، ثمّ اغرورقت عيناه بالدموع في آخر الأمر. ولم يستطع يوسف أن يتذكّر ما قاله بعد ذلك، لكنّه ذكر شيئاً عن الله.

كان القطار قد تحرّك منذ فترة قبل أن يفقد تأثير هذه التجربة الجديدة على يوسف، ثمّ لم يستطع منع نفسه من التفكير في رحيله. خطرت له ضحكة أمّه السهلة، فبدأ يبكي. كان العمّ عزيز جالساً على المقعد إلى جانبه، فنظر يوسف إليه نظرة المذنب، لكنّه كان قد نام، حاشراً نفسه بين المقعد والأمتعة. بعد لحظات أدرك يوسف أنّ الدموع قد توقّفت، لكنّه استنكف أن يفقد شعوره بالحزن. مسح دموعه وبدأ يتفحص عمّه. ستكون له فرص كثيرة كي يفعل ذلك، لكنّ هذه كانت المرة الأولى التي يستطيع فيها أن يتأمّل وجهه كاملاً. فقد خلع العمّ عزيز قبعته بمجرد صعودهما القطار، وفوجئ يوسف بقسوة مظهره. كان وجهه من دون القبعة يبدو سميناً غير متناسق. وبينما كان ينام في صمت، غابت عنه سجاياه الكريمة التي تلفت الأنظار. ما تزال

رائحته زكية جدًا، وطالما كان يوسف يحبّ هذه الخصلة فيه. يحبّها كما يحبّ كانزواته الرقيقة المنسدلة، وقبعاته المطرّزة بالحرير. كان حين يدخل غرفة، يبدو حضوره كأنّما هو منفصل عن شخصه، معلّناً عن شيء من البذخ والنعمة والإقدام. أمّا الآن وهو يميل برأسه إلى الأمتعة، فقد برز كرشه الصغير تحت صدره. لم يكن يوسف قد لاحظته من قبل، فراح ينظر إلى البطن وهي ترتفع وتنخفض مع كل شهيق وزفير، بل إنّ رأى ما يشبه التموج فوقها.

كانت أكياس النقود الجلديّة مربوطة بحزام حول فخذه كالاعتاد، ملتقّة حول عظام الفخذ تلتقي في إبزيم طويل على مفصل فخذه مثل نوع من الدروع. لم ير يوسف قطّ حزام النقود غير مربوط، حتى أثناء نوم العمّ عزيز عصرًا. تذكر الرويّة الفضيّة التي أخفاها في الشق أسفل الجدار، وارتجف من فكرة العثور عليها وانكشاف أمره.

كان القطار صاخبًا. يتطاير الغبار والدخان عبر النوافذ المفتوحة، ومعهما رائحة النار واللحوم المتفحّمة. على يمينهما، كانت الأرض سهلاً منبسّطًا مع ظلال طويلة آناء الغسق المتجمّع. مزارع وعِزَب متناثرة تحتضن السطح، تشبّت بالأرض المندفعة. على الجانب الآخر أطياف متكثّلة للجبال التي تتوهج تيجانها بهالات وهي تمسك بالشمس الغاربة. لم يسرع القطار، فكان يتمايل ويهدر فيما يشقّ طريقه إلى الساحل. في بعض الأحيان كان يتباطأ إلى أن يكاد يتوقّف، يتحرك على نحو غير محسوس تقريبًا، ثم يتمايل فجأة باحتجاجات عالية الحدة من العجلات. لم يذكر يوسف أنّ القطار توقّف في أيّ محطة على الطريق، لكنّه عرف لاحقًا أنّه توقّف بالتأكيد. أصاب يوسف نصيبًا من الطعام الذي أعدّته والدته للعمّ عزيز: المندازي

واللحم المسلوق والفاصوليا. أزال عمّه الغلاف بعناية، وتمتم باسم الله وابتسم قليلاً، ثم مدّ نصف راحته في دعوة ليوسف كي يتناول الطعام. كان عمّه ينظر إليه بطيبة وهو يأكل، يبتسم وهو يرى نظراته الطويلة.

لم يجد سبيلاً إلى النوم، فقد كانت أضلع المقعد تنحفر في جسده. لكنّه في أحسن الأحوال غفاً، أو استلقى شبه مستيقظ، تزعجه الرغبة في قضاء حاجته. وحين فتح عينيه في منتصف الليل رأى العربة مظلمة نصف ممتلئة، فأراد أن يصرخ. كان الظلام في الخارج فراغاً لا حدّ له، وكان يخشى أن يكون القطار قد توغلّ به فلا يستطيع العودة منه. حاول التركيز على ضجيج العجلات، لكنّ إيقاعها كان نشازاً، فزاد من تشتيته وحرمانه من النوم. في المنام رأى أمّه كلبة عوراء كان قد رآها ذات مرّة مسحوقة تحت عجلات قطار. ثمّ رأى في المنام خوفه يتلألأ في ضوء القمر، مغطّى بلزوجة الولادة. كان يعرف أنّ هذا خوفه، فقد أخبره شخص واقف في الظلّ، كما أنّه رآه بنفسه يتنفس.

وصلا إلى وجهتهما في صباح اليوم التالي، وكان العمّ عزيز يقود يوسف بهدوء وحزم عبر حشود التجّار الصاخبين داخل المحطّة وخارجها. لم يتحدّث إلى يوسف وهما يسيران في الشوارع التي تناثرت فيها مخلفات احتفالات قريبة. كان هناك سعف نخيل ما يزال مربوطاً بقوائم الأبواب كالأقواس، وأكاليل القطيفة والياسمين مهشّمة على الطرقات، فيما تناثرت قشور الفاكهة المسوّدة على الطريق. كان الحمّال يحمل أمتعتهما أمامهما، يتصبّب عرقاً وينخر في حرارة الضحى. أجبر يوسف على التخلي عن صرّته الصغيرة. قال العمّ عزيز: «دع الحمّال يحملها»، مشيراً إلى الرجل المبتسم الذي كان يقف دون

اتّزان على بقية الأمتعة. يتقاذز الحمّال وهو يمشي، يحاول أن يخفّف الثقل عن وركه المعطوب. وكان سطح الطريق ساخناً جداً، فتمنّى يوسف (الحافي) لو كان بإمكانه أن يقفز هو أيضاً، لكنه كان يعلم من تلقاء نفسه أنّ العمّ عزيز لن يروقه ذلك. لقد أدرك يوسف من الطريقة التي استقبل فيها العمّ عزيز في الشوارع أنّه كان رجلاً وجيهاً. إذ يصرخ الحمّال في الناس طالباً لإفساح الطريق: «دعوا السيّد يمرّ، يا واونغوانا⁽⁴⁾». وعلى الرغم من أنه كان رجلاً أشعث أغبر، إلا أنّ أحداً لم يعترض عليه. كان بين الفينة والأخرى ينظر حوله بابتسامته المائلة، فبدأ يوسف يعتقد أنّ الحمّال يعرف شيئاً خطيراً ليست لديه هو أيّ فكرة عنه. كان منزل العمّ عزيز عبارة عن مبنى خفيض ممتدّ في أطراف البلدة، على بعد أمتار قليلة من الطريق وأمامه فُسْحَة كبيرة تحيط بها الأشجار. كانت هناك أشجار نيم صغيرة ونخيل جوز الهند وشجرة صوفي وشجرة مانجو ضخمة في طرف الفناء. كانت هناك أيضاً أشجار أخرى لم يعرفها يوسف. هناك تحت ظلال المانجو يجلس بضعة أشخاص، في هذا الوقت المبكر. إلى جانب المنزل جدار أبيض طويل ذو حواف، لمح يوسف من فوقه تيجان الأشجار والنخيل. وقف الرجال الذين كانوا جالسين تحت المانجو، فرفعوا أذرعهم وهم يلقون التحية.

كان في استقبالهما شاب يُدعى خليل، جاء مسرعاً من الدكان الواقع أمام البيت، يحيييهما بصخب. قبل يد العمّ عزيز بتبجيل كبير، وكان سيظلّ يقبلها مرّة بعد الأخرى لولا أن رفع العمّ عزيز يده في

(4) كلمة سواحلية بمعنى «يا حضرات»، وتعني «المتحضرين»، وكانت تُستخدم للإشارة إلى الأحرار، بخلاف العبيد، وبعد ذلك أصبحت تُستخدم أيضاً لمساعدتي العرب وغيرهم من أصحاب العبيد. (المترجم)

النهاية. قال هذا شيئاً بانفعال واضح، فوقف خليل أمامه صامتاً، يشبك يديه وهو يحاول جاهداً منع نفسه من خطف يد العمّ عزيز وتقبيلها. سلّم كلّ منهما على الآخر وأخذا يتبادلان الأخبار باللغة العربية، ويوسف ينظر. كان خليل هذا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، نحيفاً مرتبكاً في مظهره، وقد خطّ شيء من شاربه. علّم يوسف أنّ العمّ عزيز ذكره في كلامه، فقد استدار خليل لينظر إليه وأوماً في حماس. مشى العمّ عزيز باتجاه جانب المنزل حيث رأى يوسف باباً مفتوحاً في الجدار الطويل المطليّ بالأبيض. استرق لمحة من الحديقة من خلال الباب، فظنّ أنه رأى أشجار فاكهة وشجيرات مزهرة ووميضاً من الماء. فلما همّ في اللحاق بعمّه، مدّ هذا كفه دون أن يستدير، وثبّتها بقوة وهو يمشي مبتعداً. لم ير يوسف هذه الحركة من قبل، لكنّه استشعر التأنيب فيها، وأدرك أنّها تعني: لا تتبعني. نظر إلى خليل فوجده يستحسن ذلك بابتسامة كبيرة. أشار إلى يوسف واستدار عائداً إلى الدكان، فالتقط يوسف الصرة بالعصا التي تركها الحمّال خلفه حين أخذ أمتعة العمّ عزيز إلى الداخل، وسار خلف خليل. كان قد فقد المسبحة المصنوعة من الحجر البنيّ، إذ نسيها في القطار. أمام الدكان رأى ثلاثة رجال من كبار السنّ يجلسون على مقعد، يتتبعون يوسف بنظراتهم في هدوء وهو ينحني ليدخل الدكان.

5

قال خليل للزبائن: «هذا أخي الصغير، جاء يعمل معنا. يبدو ضئيلاً ذاوياً، إذ جاء لتوّه من الأحراش، خلف المرتفعات. فهناك لا طعام

لديهم سوى الكسافا والأعشاب. ولهذا السبب يبدو كالجثة الحية. كيفاً أوروغو! انظروا إلى هذا الولد المسكين. انظروا إلى ذراعيه الذاويتين ونظراته الطويلة. لكننا سنملاً بطنه بالسّمك والحلوى والعسل، ولن يطول الوقت حتّى يصبح ممثلاً بما يليق بواحدة من بناتكم. سلّم على الزبائن أيها الصبيّ. وحيّهم بابتسامة عريضة».

في الأيام الأولى كان الجميع يبتسم له، ما عدا العمّ عزيز الذي لم يكن يوسف يراه إلّا مرةً أو مرّتين في اليوم. يسارع الناس إلى العمّ عزيز حين يرونه ماشياً، يقبلون يده إن سمح لهم، أو يحيّونه من مسافة متر أو مترين إن بدا غير مرحّب بالاقتراب منه. لا يلوح منه أيّ تعبير أمام التحايا والدعوات المتضرّعة، يستمع شيئاً يسيراً فلا يبدو فظاً، ثمّ يمضي في طريقه، ويلقي حفنة من المال على أكثر حاشيته تذلاًّ.

قضى يوسف وقته كلّهُ مع خليل، فكان هذا يعلمه ما ينفعه في حياته الجديدة، ويستجوبه عن حياته القديمة. كان خليل يعتني بالدكان، ويسكن فيه، ولم يبد أنه مهتم بأيّ أمر آخر. وكانّ طاقته كلّها وقوّته قد وُهبَت للدكان وحده، فكان ينتقل من مهمّة إلى أخرى قلقاً لا يهدأ، يتحدّث بسرعة ومرح عن الكوارث التي قد تحدث بالدكان إنّ هو توقّف لالتقاط أنفاسه. يقول له الزبائن مشفقين: سوف تتقيأ بسبب ثرثرتك هذه. لا تتعجّل كثيراً، وإلّا نضبت قبل أوانك. فما كان من خليل إلّا أن تبسّم لهم، ومضى يثرثر. كان يتحدّث بلكنة عربيّة ثقيلة، رغم طلاقته في اللغة السواحليّة، فصار كلامه الذي تحرّر شيئاً يسيراً من تراكيب اللغة يبدو غريباً، ومُلهماً. وحين ينتابه الغضب أو القلق، ينفجر في سيل من العبارات العربيّة التي تجبر الزبائن على التراجع في صمت، وتسامح في الوقت نفسه. وعندما رأى يوسف ذلك للمرّة

الأولى، ضحك من احتدامه الشديد، فتقدّم إليه خليل وصفعه على خدّه الأيسر. فهقه الشيوخ الجالسون على الشرفة، وتمايلوا ضحكاً وتبادلوا النظرات فيما بينهم، وكأنّهم يعلمون أنّ هذا سوف يحدث لا محالة. هكذا كان حالهم، يأتون كلّ يوم، يجلسون على الدكّة يتحدثون ويتسمون على تصرفات خليل العجيبة. وحين يخلو الدكان من الزبائن، يولي خليل اهتمامه الكامل إليهم، فيُصيرهم جوقة تردّد ما يقوله من غرائب، ويقاطع بأسئلته ورؤاه الخصبة ما يتداولونه همساً بينهم من أخبارٍ وشائعات عن الحرب.

لم يهدر معلّم يوسف الجديد هذا أيّ وقت كي يحسن تأديبه. فقد كان يوم العمل يبدأ عند الفجر ولا ينتهي إلّا حين يقرّر خليل. وبما أنّ الكوابيس وبكاء الليل حماقة، كان لا بدّ من أن تتوقّف. فقد يظنّ الناس أنه مسحور، ويبعثون به إلى المداوي ليسمه بالحديد على ظهره. أمّا الغفوة عند أكياس السكر في الدكان فكانت تُعدّ من أسوأ أنواع الخيانة. إذّ ما العمل إنّ تبوّل في ملابسه مثلاً وأفسد السكر؟ وإنّ ألقى أحد الزبائن نكتةً، فلا بدّ من أن تضحك حتّى تطلق ريحاً إن لزم الأمر. المهمّ أنّ تظلّ مبتسماً، ولا تجرؤ أبداً على إبداء الضجر. ثمّ قال له: «وفيما يتعلّق بالعمّ عزيز، فهو أولاً ليس عمّك. هذا الكلام مهمّ جدّاً لك. أنصت جيّداً يا كيفا أوروغفو. إنّهُ ليس عمّك». كان هذا هو الاسم الذي يناديه به خليل في تلك الأيام. كيفا أوروغفو، الجتّة الحيّة. كانا ينامان على الشرفة الترابيّة أمام الدكان (بائعين نهاراً، وحارسين ليلاً)، يتدثران بملاءات الكاليكو الخشنة. ينامان رأساً إلى رأس، والجسدان مفترقان، فيمكنهما أن يتحدثا في هدوء دون أن يقترب أحدهما من الآخر. وكلّما اقترب يوسف أكثر، ركّله خليل بوحشيّة.

يدور البعوض حولهما، يصيح طلبًا للدماء، فإنْ انكشف شيء من الجسد انقضَّ فوراً إلى وليمته الأثمة. وقد رأى يوسف في المنام أنها تهجم بسيوفها المستنّة تجزّ لحمه.

قال له خليل: «أنت هنا لأنّ أباك مدين للسيد بالمال. وأنا هنا لأنّ أبي مدين له بالمال، غير أنّه مات رحمه الله». «رحمه الله».

«لا بدّ من أنّ أباك رجل أعمال فاشل...».

«لا ليس فاشلاً». هكذا صاح يوسف، غير واثق من صحّة ما يقوله، لكنّه غير مستعدّ لاحتمال تجاوز كهذا.

فأكمل خليل دون انزعاج من صيحة يوسف: «لكنّه لا يمكن أن يكون سيّئاً مثل مراهيمو⁽⁵⁾ أبي، عليه رحمة الله. لا يمكن أن يصل أحد إلى مستواه».

سأله يوسف: «بكم كان والدك مدينًا له؟»

فقال خليل بهدوء: «من العيب أن تسأل هذا السؤال»، ومدّ يده وصفعه بقوة عقاباً على غبائه. «ولا تقل له، قل للسيد». لم يعرف يوسف كلّ التفاصيل، لكنّه لم يجد غضاضة في أن يعمل عند العمّ عزيز لسداد دين والده. وحين يسدّده كاملاً، يعود إلى دياره. ولكنّ ربما كان بإمكانهم أن يخبروه بذلك قبل رحيله. لا يذكر أنّهم قالوا شيئاً عن الديون، كما أنّهم كانوا يعيشون عيشة كريمة، مقارنة بجيرانهم. أخبر خليل بذلك، فظّل هذا صامتاً فترة طويلة.

(5) ترد في النصّ ألفاظ سواحليّة، بعضها من أصل عربي، أثرت كتابتها بخطّ عريض لتبيان أنّها كُتبت هكذا في الأصل. (المترجم)

ثم قال أخيراً في هدوء: «سأقول لك شيئاً. أنت فتى غبي ولا تفهم شيئاً. تبكي في الليل وتصرخ في أحلامك. أين كانت عيناك وأذناك حين ورطوك في هذا الأمر؟ والدك مدين له بالكثير، وإلا لما جئت إلى هنا. كان يمكن لأبيك أن يدفع له، فتبقى في البيت وتأكل المالاي والموفا كل صباح، هاه؟ وتذهب في مشاوير لأمك وما إلى ذلك. السيد لا يحتاج إليك أصلاً. لا يوجد عمل كاف...».

وبعد لحظة، تابع بصوت خفيض أدرك يوسف أنه لم يكن يراد له أن يسمعه أو يفهمه. «ربما ليس لديك أخت، وإلا أخذها».

لم ينبس يوسف بشيء، وظل صامتاً فترة كي يبدو أنه لا يفكر في أسئلة غير لائقة تتعلق بجملته خليل الأخيرة. لكن والدته كانت كثيراً ما توبّخه على التطفل والسؤال عن الجيران. خطرت له والدته الآن وتساءل في نفسه عما تفعله. «إلى متى ينبغي لك العمل مع العم عزيز؟»

فقال خليل بحدة: «ليس عمك»، وجفل يوسف فرعاً من لطمة أخرى. وبعد لحظة ضحك خليل بهدوء، ثم مدّ يده من تحت الملاء ليضرب يوسف عند أذنه. «من الأفضل أن تستوعب ذلك بسرعة يا زوما. هذا مهمّ. فهو لا يحب أن يناديه المتسولون الصغار أمثالك عمي، عمي، عمي. يحب أن تقبل يده وتناديه السيد. فهمت يا كيبومبو ويه، أيها الخصية الصغيرة؟ السيد. تناديه السيد».

فقال يوسف مسرعاً «نعم»، وأذنه ما زالت تطنّ من الضربة. «ولكن إلى متى يجب أن تعمل لديه قبل أن ترحل؟ إلى متى سأضطرّ إلى البقاء هنا؟».

قال خليل بمرح: «إلى أن ينتهي دين أبيك، أو ربما إلى أن يموت. ما بك؟ ألا تعجبك الحال هنا؟ السيد رجل طيب. لا يضرب أو يفعل شيئًا كهذا. إن أبديت احترامك له سيعتني بك ويرعاك. طوال حياتك. ولكن إن ظللت تبكي في الليل وتحلم تلك الأحلام المخيفة. . . ويجب أن تتعلم العربية، فعندها سيحبك أكثر».

6

كانت الكلاب تجتاحهما في بعض الليالي، تجوب الشوارع المظلمة، تتجول في مجاميع، تتبختر في انتباه وهي تتشاجر في الظلال والأجمات. استيقظ يوسف على خبط أقدامها فوق الشارع، ثم رأى أشكالها العنيفة وهي تجري. ذات ليلة، فتح عينيه من نوم عميق، فوجد أربعة كلاب تقف بلا حراك على الجانب الآخر من الطريق. نهض مرتعبًا، إذ كانت أعينها أشد ما أخافه وصدمه منها، ولم يستطع إلى النوم سبيلًا. كان وهجها في ضوء الهلال هامدًا، لا يكشف إلا عن نوع واحد من المعرفة. حدّق فيها بتركيز، فرأى صبرًا مأكراً صلبًا يستهدف حياته. حين نهض بحركة مفاجئة، نبحت وهي تبتعد، لكنها عادت في الليلة التالية، وقفت في صمت كأنما تدبر أمرًا، ثم ابتعدت. وهكذا صارت تأتي ليلة بعد ليلة، يزداد حماسها مع اكتمال القمر. كانت كل ليلة تقترب أكثر، تتحلّق حول الفسحة، وتعوي من وراء الشجر. ملأت هذه الكلاب رأس يوسف بالكوابيس، واختلط خوفه بالخزي؛ فقد رأى أن خليلًا لم يكن يلقي بالآ بالكلاب. كان إذا رآها ترتبص، ألقي عليها حجرًا، فتبتعد. أمّا إذا كان قريبًا منها بما يكفي،

فكان يلقي حفنة من الغبار على أعينها. يبدو إذن أنها حين كانت تأتي ليلاً، فإنما كانت تأتي ليوسف. كان يراها في أحلامه تقف على ساقين عند رأسه، أفواهها نصف مفتوحة يسيل اللعاب منها، فيما تمرر أعينها المتوحشة على جسده المنبسط.

ذات ليلة، جاءت تتبختر، كما كان يتوقع، متباعدة عن بعضها البعض، كي تشتت أنظار يوسف من واحد إلى آخر. كان النور قوياً، كالنهار. اقترب منه أكبر الكلاب، واقفاً في الفسحة قبالة الدكان. تصاعد من جسده المشدود جنير طويل خفيض، فأخذت الكلاب الأخرى تجرّ أقدامها رويداً رويداً تشكّل قوساً في المكان. سمع يوسف لهاثها، ورأى أفواهها تتسع في زمجرة صامتة. وفجأة، دون سابق إنذار أو تفكير، أسهلّ بطنه. صاح في ذهول، ورأى قائد الكلاب يتبعد. ثمّ استيقظ خليل من صرخة يوسف، ونهض مفزوعاً، ورأى قرب الكلاب. كانت تجأر في غضب، تتميزّ غضباً وهي تستعدّ لهجوم مسعور. فاندفع خليل إلى الساحة، يصرخ ويلوح بذراعيه للكلاب المسعورة، يرشقها بالحجارة والتراب وأي شيء آخر في متناول يده. استدارت الكلاب وابتعدت، تئنّ وتناوش بعضها البعض كالحيوانات الخائفة. ظلّ خليل دقيقة طويلة في الساحة المقمرة يصيح بالشتائم العربيّة على الكلاب الهاربة، ويلوح لها بقبضته. ثمّ هرع عائداً فرأى يدي يوسف ترتجفان. وقف أمامه، وهزّ قبضتيه الغاضبتين في وجهه، يتحدث بالعربيّة ويوضّح معنى ما يقوله أكثر بإيماءاته الغاضبة. بعد ذلك استدار وأشار بإصبع اتّهام نحو الكلاب.

«تريدهم أن يعضوك؟ هل تعتقد أنهم أتوا إلى هنا ليلعبوا معك؟ أنت أسوأ من كيفا أوروغو، أنت طفل بليد الذهن بلا روح. ماذا كنت تنتظر؟ تكلم يا ملعون».

ثمّ توقّف خليل في نهاية المطاف وتنشّق، ثمّ ساعد يوسف في تلمّس طريقه نحو الصنبور في الجدار الخارجي للحديقة المحظورة. ثمّة سقيفة بجانب المنزل تُستخدم مرحاضاً، لكنّ يوسف كان يرفض استخدامها في الظلام خشية أن يتعثّر ويسقط في حفرة المرحاض الخبيثة التي لا قعر لها. أسكته خليل بإصبع على شفّتيه وربّت على رأسه، فلمّا لاحظ أنّ يوسف ما يزال مرتبكاً مسدّ شعره ومسح الدموع عن وجهه. ساعده في خلع ملابسه، ثمّ وقف في مكان قريب تاركاً يوسف يفعل ما في وسعه لتنظيف نفسه عند الصنبور.

عادت الكلاب ليلة بعد ليلة، وكانت تتوقّف على مسافة من الساحة، تعوي وتنبح في الظلام. وحتى في الليالي التي لم يتمكّن يوسف وخليل من رؤيتها، كانا يشعران بوجودها وهي تجوس حول البيت، ويسمعانها تهسّس تحت الشجيرات. أخذ خليل يقصّ ليوسف حكايات أبناء آوى والذئاب التي سرقت الصغار وربّتهم كحيوانات، وأطعمتهم صدور الكلاب واللحوم المتقيّنة. علّمهم كيف يتحدّثون لغة الحيوان، وكيف يصطادون. وحين كبّروا، زوّجتهم من أنفسها فخرج من ذريّتها مستذنبون يسكنون الغابة ولا يأكلون إلّا الميّة. الغيلان أيضاً تأكل اللحوم الميّة، ويا حبّذا لو كانت لحوم بشر، أولئك الذين لم يُصلّ عليهم بعد موتهم. لكنّهم جنّ على أيّ حال، مخلوقون من نار، وليسوا مستذنبين مخلوقين من تراب كبقية الحيوانات. أمّا الملائكة، إذا كان الأمر يهمّك، فهم مخلوقون من نور، وهذا من أسباب أنّهم لا يُروْن. وعلى أيّ حال، فالمستذنبون يعيشون أحياناً بين البشر.

سأله يوسف: «هل رأيت واحداً من قبل؟»

بدا خليل كأنما يفكر. قال «لست متأكدًا. لكن أعتقد أنني رأيت. يأتون متنكرين، تعرف ذلك طبعًا. ذات ليلة رأيت رجلًا طويل القامة متكئًا على شجرة الصوفي هناك، طويلًا كطول منزل، متشعًا بالبياض. يتوهج كالضوء... لكنه كالنار، لا كالنور».

قال يوسف وهو يرجو أن يكون محققًا: «لعله ملاك».

«غفر الله لك. الملاك لا يُرى. كان يضحك، متكئًا على الشجرة ويضحك بشرة».

«بشرة؟»

«أغمضت عيني وأخذت أدعو. لا ينبغي لك النظر في عين المستذئب، وإلا عليك السلام، هم هم. فلما فتحت عيني مرة أخرى كان قد رحل. وذات مرة رأيت سلّة فارغة تتبعني ساعة أينما ذهبت. إن توقفت، توقفت، وإن انعطفت، انعطفت. وحين أكملت طريقي، سمعت عواء كلب. نظرت خلفي، فإذا بالسلّة الفارغة تتبعني».

سأله يوسف بصوت خافت متهيّب: «ولماذا لم تركض؟»

«لا فائدة من ذلك. المستذئبون أسرع من الحمر الوحشية، أسرع مما تظن. ولا شيء أسرع من المستذئب إلا الدعاء. فإن ركضت، مسخوك حيوانًا أو عبدًا. يوم القيامة، حين ينتهي العالم ويبعث الله الجميع... بعد القيامة يعيش المستذئبون في الطبقة الأولى من الجحيم. آلاف مؤلفة منهم، وسوف يأكلون الأثمين الذين لا يطيعون الله».

«وهل ستعيش الغيلان هناك أيضًا؟»

فقال خليل بعد تفكير طويل: «ربّما».

«ومَن أيضًا؟»

«لا أدري. لكنّه بالتأكيد مكان ينبغي اجتنابه. كما أنّ الطبقات الأخرى أسوأ منها، لذا ربّما يكون من الأفضل الابتعاد عن هذا المكان تمامًا. نَم الآن، وإلا غفوتَ في وقت العمل».

درّبه خليل على أعمال الدكان، فبيّن له كيف يرفع الأكياس دون أن يؤذي نفسه، وكيف يصبّ الحبوب في الأحواض دون إهراقها. وعلمّه كيف يعدّ النقود بسرعة وكيف يحسب الباقي، وأسماء العملات، وكيف يميّز الكبيرة منها عن الصغيرة. وعلمّه كيف يستلم النقود من الزبون، وكيف يمسك الورقة النقدية فلا تنفلت من بين أصابعه. كان يمسك بيده حتّى لا ترتعش وهو يقيس زيت جوز الهند بالمغرفة، ويعلمّه كيف يقطع الصابونة الطويلة بسلك. كان يبتسم راضيًا حين يُحسن يوسف ما يفعل، ويضربه بقوة حين يخفق، أمام الزبائن أحيانًا.

يضحك الزبائن على كلّ ما يفعله خليل، غير أنّه لم يكن يضيق ذرعًا بذلك. كانوا يسخرون دائمًا من لكنته، يقلّدونه ويضحكون. فيقول لهم إنّ شقيقه الأصغر يعلمه كي يتحدّث على نحو أفضل، وحين يتقن ذلك سيتزوّج من سواحلية ممثلة ويعيش مستقيمًا ورعًا. كان أولئك الشيوخ الذين يجلسون في الشرفة يستطيّبون الحديث عن الزوجات الصغيرات الممثلّات، فيرضيهم خليل بحديثه. يطلب منه الزبائن أن يكرّر ألفاظًا وعبارات يتوقّعون أن يسيء نطقها، فيكرّرها بغير إتقان قدر الإمكان، ثم يضحك معهم وعيناه تشتعلان ابتهاجًا.

كان زبائن الدكان أشخاصًا يسكنون بالقرب منه، أو أهالي من القرية في طريقهم للخروج من البلدة. يتذمرون من فقرهم وكلفة المعيشة، غير أنهم يسكتون عن أكاذيبهم وقساوتهم، شأنهم شأن الجميع. وحين يكون الشيوخ جالسين على مقاعدهم، يتوقف الزبائن للحديث معهم أو ينادون بائع القهوة لتقديم فنجان لآبائهم. أما الزبونات فكنّ يحبين يوسف ويعاملنه بأमومة في كلّ فرصة تسنح لهنّ، يضحكن في سعادة على ملاطفاته الصغيرة ووسامته. وثمة امرأة كانت تحبه، ذات بشرة سوداء لامعة ووجه لا يهدأ من الحركة. أما اسمها فكان «ما عجوزة»، وهي امرأة ضخمة قويّة الملامح، ولها صوت يخترق الحشود. كان يوسف يرى فيها عجوزاً متعبّة، تبدو المعاناة على سيمائها حين تكون على طبيعتها. عندما تراه يرتعش جسدها ويعود إلى استقامته باندفاع لا إراديّة، ثم تنفّلت منها آهة صغيرة. وحين يغفل عنها تلاحقه حتّى تقترب بما يكفي لاعتصاره بين ذراعيها، فتهلّل فرحاً وانتصاراً بينما هو يركل ويقاوم. أمّا حين لا تستطيع التسلّل إليه خفية، تقترب منه بأهات انتشاء وتقول له يا زوجي، يا سيّدي. تتملّقه بالكلام المعسول والوعود، وتغريه بالحلويات وما لذّ وطاب من المتع التي تفوق أقصى خيالاته إن هو عاد معها إلى بيتها. تصبح به: ارحمني يا زوجي. فيعرض رجال آخرون أنفسهم شفقة عليها، لكنّها ترفضهم بازدراء. كان يوسف يهرب فور أن يراها، فيختبئ في زاوية مظلمة من الدكان بينما تتأوّه هي في اشتياق إلى ظهوره. كان خليل يفعل كلّ ما في وسعه لمساعدتها، فيترك لها أحياناً باب المنضدة مفتوحاً، عن طريق الخطأ، كيما تستطيع الدخول إلى داخل الدكان وتلاحق يوسف بين الأكياس والعلب. وتارة أخرى يبعثه خليل في مهمّة إلى دكان قريب، حيث

تتربّص به المرأة هناك. كانت كلّما حاصرته، انقضّت عليه بصيحات جامحة، في حين يرتجف جسدها في نوبات من الرعدة والعطاس. تفوح منها رائحة التبغ الممضوغ، وتحرجه معانقاتها وصرخاتها. وبدا أنّ الجميع يستظرف الأمر، رغم أنّ يوسف لم يستوعب النكته، فكانوا دائماً ما يدّلون ما عجوزة على المكان الذي يختبئ فيه يوسف.

قال لخليل: «إنّها عجوز جدّاً».

فقال له: «عجوز! وما علاقة الحبّ بالسنّ؟ المرأة تحبّك، ولا تجد منك إلا التعاسة المستمرة. ألا ترى كيف ينكسر قلبها؟ أليست لك عينان؟ أليست لك مشاعر؟ يا كيفاً أورونغو الغبيّ، أنت شاب جبان ضعيف. تقول إنّها عجوز؟ انظر إلى جسمها، انظر إلى وركيها... أشياء كثيرة جميلة هناك. لن تجد أفضل منها».

«شعرها أبيض».

«قليل من الحنّاء... ويختفي الشعر الأبيض. وماذا يهمّك في الشعر؟ الجمال في أعماق الإنسان، في الروح. ليس في السطح فقط».

«أسنانها حُمر من التبغ التي تمضغه، كأولئك الشيوخ. لماذا لا ترغب في واحد منهم؟»

«اشتر لها فرشاة أسنان».

فقال يوسف حزيناً وهو يرغب في التخلص من مغايظة خليل: «بطنها كبير جدّاً».

قال خليل ساخراً: «واه واه. ربّما ذات يوم تأتي أميرة جميلة رشيقة من بلاد فارس إلى دكاننا وتدعوك إلى قصرها. اسمعني يا أخي الصغير، تلك المرأة الضخمة الجميلة تحبّك».

فضحك خليل واحتضن يوسف فجأة في سعادة. «ليست غنيّة بما يكفي لانتشالك من هذه الحفرة».

7

كانا يريان العمّ عزيز مرّة واحدة على الأقل كلّ يوم، حين يأتي في وقت متأخّر من المساء لأخذ المدخول. ينظر في كيس النقود الذي يعطيه إياه خليل، وينظر في الدفتر الذي يسجّل فيه خليل الحسابات، ثم يأخذهما للتدقيق أكثر. وفي بعض الأحيان كانا يريانه أكثر من مرّة في اليوم، وإنّ على نحو عابر. فقد كان مشغولاً على الدوام، يمشي من أمام الدكان صباحاً في طريقه إلى البلدة متفكّراً، ويعود متفكّراً، فيبدو في معظم الأحيان كأنّما يحمل في رأسه هموماً ثقيلة. ينظر كبار السنّ الجالسون في الشرفة بهدوء إلى العمّ عزيز وهو يداول أفكاره. حفظ يوسف أسماءهم (با تمبو، ومزي تميم، وعلي مافوطة⁽⁶⁾) لكنّه ظلّ يعتبرهم ظاهرة واحدة. فكان يخطر له أنّه إذا ما أغمض عينيه أثناء حديثهم، فلن يميّز بين واحد والآخر.

لم يستطع يوسف أن يخاطب العمّ عزيز بالسيد، رغم أنّ خليل كان يضربه كلّما خاطبه بالعمّ عزيز. «ليس عمّك، أيها الفتى السواحليّ الغنيّ. لا بدّ أن تتعلّم عاجلاً أم آجلاً كيف تتملّق الرجل. السيد، السيد، وليس العمّ. هيّا، قلها: السيد». لكنّه لم يفعل. فإنّ اضطرّ إلى

(6) مزي (بتسكين الميم وكسر الزاي) كلمة بالسواحليّة تُستخدم احتراماً لكبير السنّ، بمعنى عمّي أو الوالد مثلاً. و«با» تعني أبي، أو الوالد، وتُستخدم كذلك احتراماً لكبير السنّ. (المترجم).

الحديث عن العمّ عزيز، أشار إليه بضمير الغائب، أو ترك فجوة في كلامه يملأها خليل في سخط.

كان يوسف قد تعلّم ألا يعدّ الأيام، إذ أدرك من تجربته السيئة أنّ الأيام إن كانت مكروهة قد تصبح طويلة كالأسابيع. وبعد عدّة أشهر من وصوله، بدأت التجهيزات لرحلة إلى الداخل. كان العمّ عزيز يتحدث إلى خليل طويلًا في المساءات، يجلس أمام الدكان على المقعد الذي يشغله الشيوخ نهارًا. كان هناك مصباح مشتعل بينهما، يحول وجهيهما إلى قناعين من الصراحة. ظنّ يوسف أنّه يفهم شيئًا من العربية، لكنّه لم يهتم. كانا يراجعان الدفتر الصغير الذي يدوّن فيه خليل الحسابات والمعاملات، يقلبان الصفحات للأمام والخلف، ويجمعان الأرقام. أمّا يوسف فكان يجلس في مكان قريب، يستمع إليهما وهما يتحدثان بصوت قلق، وكأنّهما قلقان على سلامتهما. وأمّا خليل فكان مضطربًا أثناء هذه الأحاديث، يتكلّم بحدة لا يستطيع التحكم بها، فيما تتوهج عيناه في ما يشبه السعار. في بعض الأحيان يضحك العمّ عزيز على حين فجأة، فيقفز خليل في ذهول، لكنه في الغالب يجلس منصتًا، هادئًا، مشغول البال. فإنّ تحدّث، كان صوته هادئًا، يزداد حدة عند الضرورة.

بعد ذلك تكثّفت الاستعدادات، فاستحالت إلى فوضى. كانت الطرود والبضائع تصل في أوقات مفاجئة، فتُحمل إلى المخازن التي تمتدّ على جانب المنزل. أمّا الجوالات والأكياس المنسوجة فكانت تُكدّس في الدكان. بدأت كثير من الأشكال والروائع تظهر في زوايا الشرفة، مغطاة بالأكياس والأقمشة لحجب الغبار. ومع تلك الأحمال جاء خدم يراقبون في صمت، يحلّون محلّ الشيوخ على المقاعد،

ويعدون الأطفال والزبائن الذين أغراهم منظر البضائع المغطاة. كان أولئك الخدم صوماليين ونياموزيين، مسلّحين بعصي رفيعة وسياط. لم يكونوا في واقع الأمر صامتين، لكنهم كانوا يتبادلون كلمات لا يفهمها أحد غيرهم. كانوا بالنسبة إلى يوسف شرسين أشراراً، على أهبة الاستعداد للحرب. لم يكن يجرؤ على النظر إليهم علانية، أمّا هم فلم يبد أنهم كانوا يرونه. أبلغه خليل أنّ منيابارا و سافاري (مشرف الرحلة) سيكون في انتظارهم في منطقة ما في الداخل، إذ كان السيّد ثرياً للغاية بحيث لا يضطرّ إلى تنظيم الحملة بنفسه. في الأوضاع الطبيعية يكون منيابارا حاضراً في بداية الرحلة، يستأجر الحمّالين ويجمع الإمدادات، غير أنّه كان منشغلاً بأمور أخرى. هكذا قال خليل وهو يقلّب عينيه. لم تكن تلك الأمور سهلة، وإلاّ لكان منيابارا حاضراً هنا. والأرجح أنّها مشبوهة. إصلاح أمر ما، أو تهريب، أو تصفية حسابات قديمة. لا بدّ أنه كان عملاً قدراً، فدائماً ما يكون هناك شيء غير سويّ حين يحضر ذلك الرجل. قال خليل إنّ اسم منيابارا محمد عبد الله، وارتعش وهو ينطق باسمه. «شيطان! عاصفة من أرواح قاسية القلب، دون حكمة أو رحمة. لكنّ السيّد يحترمه رغم كلّ رذائله».

سأله يوسف: «إلى أين يذهبون؟»

فقال خليل: «يتاجرون مع الهمج. هذه هي حياة السيّد. وهذا ما يفعله. يذهب إلى أولئك المتوحّشين ويبيع لهم هذه البضائع ثم يشتري منهم. يشتري أيّ شيء. . . إلّا العبيد، حتى قبل أن تأمر الحكومة بالتوقف عن ذلك. المتاجرة في العبيد عمل خطير، وغير مشرف».

«إلى متى يغيبون؟»

فقال خليل مبتسمًا بشيء من الفخر والإعجاب: «شهور، وأحيانًا سنوات. هذه تجارة. لا يقولون كم من الوقت ستستغرق الرحلة. يعبرون المرتفعات في كلّ حذب وصوب ولا يعودون إلا بعد أن يتمّوا تجارتهم. السيّد بطل، لذلك دائمًا ما يحسن في تجارته ويعود سريعًا. لا أعتقد أنّها ستكون رحلة طويلة، وإنّما للحصول على بعض المال».

كان الرجال يأتون أثناء النهار بحثًا عن عمل، وللمساومة مع العمّ عزيز. بعضهم يأتي حاملًا رسائل ممّن عملوا معهم سابقًا، من بينهم رجال مستون كانوا يتوسّلون بعيون يائسة ساطعة حين يُردّون.

وذاث صباح، حين غدت الفوضى من حولهم لا تُحتمل، انطلقوا تحت أصوات الطبل والزمير التي تعزف بحماس مبهج لا يُقاوم. ومن خلف العازفين حمّالون يحملون الحقائق والأكياس، يصيحون بالشتائم المضحكة بعضهم إلى بعض، وإلى المارة الذين أتوا لتوديعهم. وإلى جانب هؤلاء كان الصوماليّون والنياموزيّون يسرون بعصيتهم وأحزمتهم، في تهديد لإبعاد أيّ متطفّل. أمّا العمّ عزيز فقد كان واقفًا ينظر إلى الرجال يمرّون من أمامه، بابتسامة مريّة ومبتهجة في الوقت نفسه. فلمّا كاد الموكب يغيب عن الأنظار التفت إلى خليل ويوسف. وفي إشارة أكثر منها فعلًا حقيقيًا، نظر نحو الباب البعيد في أعماق الحديقة، وكأنّه سمع شخصًا ينادي. بعدها ابتسم ومدّ يده ليوسف كي يقبلها. انحنى يوسف على يده، غارقًا في نفحة من العطر والبخور، فجاءت يد العمّ عزيز الأخرى تربّت على رقبته. خطرت ليوسف العشر آنات، ثمّ اجتاحت رائحة قنّ الدجاج وساحة الأخشاب. وفي الدقيقة الأخيرة، وكأنّ الأمر لا يهمّه، التفت العمّ عزيز إلى وداع خليل الصاحب، فأعطاه يده يقبلها، ثم استدار مبتعدًا.

ظلاً ينظران إلى سيدهما الراحل حتى غاب عن الأنظار. ثم نظر خليل حوله وابتسم ليوسف. «لعله يحضر ولداً آخر معه حين يعود. أو ربّما فتاة». مكتبة سُر من قرأ

في غياب العمّ عزيز، انحسر هوس خليل انحساراً واضحاً. عاد الشيوخ إلى الشرفة، يتمتمون بشيء من الحكم المأثورة لبعضهم البعض ويمازحون خليل بالإشارة إلى أنّه أصبح سيّداً مرةً أخرى. كان يتولّى شؤون المنزل ويدخله كلّ صباح، رغم أنّه لم يتحدث عن ذلك حين أبدى يوسف اهتمامه. كان يدفع لبائع الخضروات الهرم الذي يأتي كلّ يوم ويدخل من باب الحديقة، بكتفين ساقطين تحت ثقل سلاله. ثمّ يعطي النقود لأحد الصبية في الحيّ ويلقّنه بعض الأوامر للتبضع من السوق. أمّا الصبيّ فكان اسمه كيسيماماجونغو، وكان يصفرّ أحياناً من منخريه وهو يتنقل من مهمّة إلى أخرى، وينجز ما يطلبه منه الناس. يضحك منه الجميع بسبب اصطناعه القسوة والعناد، فقد كان في الواقع ضئيل الحجم سقيم المنظر يرتدي الخرق البالية، وغالباً ما يضربه الأولاد الآخرون. لم يكن أحد يعرف أين يبيت؛ فلم يكن له منزل. وكان خليل يسمّيه كيفا أوروونغو أيضاً، ويقول: «هذا واحد آخر. الأصلي».

في كلّ صباح يأتي البستاني الهرم حمداني ليعتني بالأشجار والأجمات السريّة، وينظّف البركة والقنوات المائية. لم يكن يتحدث إلى أحد قطّ، يعمل بقسمات جادة وهو يترنّم بالآيات والقصائد. وعند الظهر يتوضّأ ويصلّي في الحديقة، ثمّ ما يلبث أن يغادر في صمت. كان زبائن الدكان يعدّونه رجلاً مباركاً، عالماً بالطبّ والعلاج.

يدخل خليل إلى البيت في أوقات الطعام، فيخرج بطبقين له وليوسف، ثمّ يعيد الطبقين الفارغين. وفي المساء يأخذ كيس النقود

والدفتّر إلى البيت. في بعض الأحيان يسمع يوسف أصواتاً حادة تتحدّث في وقت متأخّر من الليل. كان يعلم أنّ هناك نساء مختبئات في البيت. دائماً. لم يصل يوسف قطّ إلى أبعد من الصنبور على جدار الحديقة، لكنّه كان يرى من هناك حبل الغسيل، وعليه سترات وملءات بألوان زاهية، فيتساءل في نفسه متى جاءت تلك الأصوات لتعلّق تلك الأشياء. كانت هناك زائرات يأتين بزيّ البويوي الأسود، من الرأس حتى أخمص القدمين. يحيّين خليل باللغة العربيّة ويسألن عن يوسف، فيجيبهنّ خليل دون النظر إليهنّ. في بعض الأحيان تمتدّ يد منقّشة بالحناء من تحت الطيّات السّود، فتداعب خدّ يوسف. تفوح منهنّ رائحة عطر ثقيل يذكر يوسف بصندوق ملابس والدته. كانت قد أخبرته أنّ هذا العطر اسمه عودي، وهو بخورٌ مصنوع من الصّبار والعنبر والمسك، فيخفق قلب يوسف عند سماعه تلك الأسماء.

سأل يوسف خليلاً في نهاية المطاف: «من يعيش داخل البيت؟». كان وجود العمّ عزيز يمنعه من طرح الأسئلة، ولم يكن يفكّر في وجود رغبات أخرى غير تلك التي تتطلّبها طريقة عيشهما، والتي بدتْ عَرَضِيّة قابلة للتغيير المفاجئ. لقد كان العمّ عزيز محور تلك الحياة ومعناها، وكلّ شيء كان يدور حوله. لم يكن يوسف يعرف حتى الآن طريقة لوصف العمّ عزيز بعيداً عن احتضانه إيّاه، لكنّه الآن في غيابه يمكن أن يبدأ في الشعور بانفصاله عنه.

هكذا طرح سؤاله: «من يعيش داخل البيت؟». كانا قد أغلقا الدكان، لكنهما ما يزالان في الداخل، يقيسان أكواز السكر ويغلّفانها. يغرف يوسف السكر على الميزان، فيما يلفّ خليل الأكواز الورقيّة ويملأها. للحظة بدا أنّ خليلاً لم يسمع السؤال الذي تكرّر، ثم توقّف

ونظر في ريبة إلى يوسف. لقد أدرك يوسف أنّ هذا سؤال محظور، وبدأ يتوتّر بسبب الضربات التي يتلقاها بعد أخطائه الكثيرة، غير أنّ خليلاً ابتسم ونظر بعيداً عن عيني يوسف الخائفتين. قال: «السيدة»، ثم وضع إصبعه على شفتيه لمنع يوسف من طرح أسئلة أخرى. بعدها نظر إلى الجدار الخلفي للدكان محدّراً. وهكذا أكملوا أكواز السكر في صمت.

لاحقاً، جلسا تحت شجرة الصوفي، في كهف الضوء الذي صنعه فانوسهما. حطّمت الحشرات أجسادها على الزجاج، مسعورة لعجزها عن إلقاء نفسها في اللهب. قال خليل فجأة «السيدة مجنونة»، ثم ضحك حين سمع صيحة تعجّب صغيرة من يوسف. «عمّتك. لماذا لا تناديهما عمّتي؟ إنها غنيّة جدّاً، لكنّها عجوز مريضة. إذا حيّيتها بلطف فربما تترك لك كل أموالها. عندما تزوّجها السيّد، منذ سنوات عديدة، أصبح فجأة رجلاً ثرياً. لكنّها قبيحة جدّاً. لديها مرض. مرّت سنوات والأطباء يتوافدون عليها، والحكماء العارفون ذوو اللحي البيض الطويلة يقرأون عليها الأدعية، وجلب لها المشعوذون الأدوية من الجبال، لكنّ هذا كلّ لم ينفع. حتّى أطباء البقر والجِمال جاؤوا لرؤيتها. إنّ مرضها أشبه بجرح في القلب. لكنّه ليس جرحاً من يد بشر. هل تفهم؟ لقد مسّها السوء. وها هي تختبئ عن الناس».

لكنّ خليلاً توقّف ولم يكمل. وشعر يوسف أنّ سخرية خليل تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى نبرة بؤس، فحاول أن يفكّر في شيء يقوله ليهجه. لم يفاجئه أمر العجوز المجنونة على الإطلاق، فقد كان هذا بالضبط ما تحمله القصص التي كانت والدته تقصّها عليه. كان الجنون في تلك القصص نتيجة لحبّ فاشل، أو سحر لسرقة ميراث،

أو انتقام لم يتحقق. لا شيء يمكن فعله حيال ذلك الجنون، إلى أن تستقيم الأمور، إلى أن تُرفع اللعنة. كان يريد أن يقول ذلك لخليل. لا تقلق كثيراً، فسوف تعود الأمور إلى نصابها قبل أن تنتهي الحكاية. وقد قرّر أنه إذا ما التقى السيّدة المجنونة، فسوف يشيح ببصره ويتلو دعاء. لم يكن يريد أن يفكر في والدته، أو في الطريقة التي كانت تحكي بها القصص. شعر بالتعاسة لحزن خليل، فقال أوّل ما خطر في باله، لا شيء إلّا ليجعله يستأنف الحديث. «هل كانت أمّك تحكي لك القصص؟».

فقال خليل وقد بوغت بالسؤال: «أمي!»

بعد برهة لم يقل فيها خليل شيئاً آخر، سأله يوسف: «أكانت تحكي لك؟»

فقال خليل: «لا تحدّثني عنها. لقد ذهبت. كبقية الآخرين». ثم انتقل إلى الحديث بالعربيّة سريعاً وبدا وكأنّه سيضرب يوسف: «ذهبوا، أيها الصبيّ الأحمق، يا كيفاً أوروغوا. رحل الجميع إلى جزيرة العرب. وتركوني هنا. إخوتي، وأمّي... كلّهم».

دمعت عينا يوسف وقد شعر بالحنين والهجر، لكنّه صارع كي يمنع نفسه من البكاء. بعد لحظة، تنهّد خليل ومدّ يده فضرب يوسف على قفاه. «ما عدا أخي الصغير»، وأخذ يضحك حين انفجر يوسف باكياً، مشفقاً على نفسه.

كانا عادة ما يغلقان الدكان ساعة أو ساعتين بعد ظهر الجمعة، وبما أنّ العمّ عزيز غائب فقد سأل يوسف خليلاً ما إذا كان بإمكانهما قضاء بقية النهار في البلدة. كان قد لمح منظر البحر في حرارة النهار، وسمع

الزبائن يتحدثون عن العجائب التي يأتي بها الصيادون. فقال خليل إنه لا يعرف أحداً في البلدة، ولم ير المرفأ إلا مرة واحدة بعد المرة الأولى، أي حين أنزل من قارب في أعماق الليل إلى أحضان السيّد.

قال إنه حتّى بعد كلّ هذا الوقت لم يكن يعرف أحداً هناك. فلم يسبق له أن دخل منزل أحد. كان يرافق السيّد في الأعياد إلى الجامع للصلاة، وذات مرة أخذه السيّد معه إلى جنازة، لكنّه لم يكن يعرف جنازة من كانت.

فقال يوسف: «إذن علينا أن نذهب ونستكشف. يمكننا الذهاب إلى المرفأ».

ضحك خليل ضحكة مضطربة، وقال: «سنضيع».

فقال يوسف بعزيمة ثابتة: «لن نضيع».

قال خليل وهو يضرب يوسف على ظهره: «شباب! يا لك من أخٍ صغير شجاع. إذن سوف تعطني بي، هاه؟»

وما إن غادرا الدكان حتى صادفا بعض زبائنهم، فألقيا عليهم التحيّة وغاصا في موجة الأجساد السارية في الشوارع حتّى جُرفا إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة. ولاحظ يوسف أنّ خليلاً لم يكن واثقاً من معرفته بما ينبغي أن يفعل أو يقال. بعد ذلك سارا على الساحل كي يشاهدا مراكب الدهو والقوارب. لم يسبق ليوسف أن اقترب من البحر، فأصابه الذهول من ضخامته ولم ينس بينت شفة. كان يتوقّع أن يكون الهواء نقيّاً منعشاً قرب البحر، غير أنّ الرائحة كانت رائحة روث وتبغ وخشب خام. وثمة رائحة أخرى نفاذة فاسدة، عرف لاحقاً أنّها رائحة الأعشاب البحرية. على الشاطئ صفّ من القوارب، يجلس من بعده أصحابها

تحت المظلات وحول نيران الطبخ. قالوا إنهم ينتظرون تغيير المد، إذ سيحدث قبل حوالي ساعتين من الغروب. أفسحوا لهما، فجلس خليل بينهم دون مشقة، وجرّ يوسف للجلوس إلى جانبه. وقد تبين أنّ الوجبة التي كانوا يحضّرونها في القدرين المسودّين عبارة عن أرز وسبانخ، وُضعت في صحن دائريّ بالٍ أكلوا منه جميعاً.

قال خليل بعد أن غادرا: «كنت أسكن في قرية صيد على طول الساحل، جنوب هذا المكان».

أمضيا عصر ذلك اليوم في التجوال والضحك على كلّ ما يتجرّآن عليه. اشتريا عوداً من قصب السكر ومخروطاً من المكسّرات، وتوقفا لمشاهدة الأولاد وهم يلعبون الكيپاندي. سأل يوسف خليلاً ما إذا كان يجدر بهما الانضمام إلى الأولاد، فأوماً له خليل. لم يكن يعرف كيف يلعبها، لكنّه رأى في تلك الدقائق القليلة ما يكفي لفهم الفكرة العامّة. طوى لباسه الساروني على هيئة مئزر، وأخذ يطارد الكيپاندي بجنون. فضحك الأولاد، وأخذوا يطلقون عليه الألقاب. وسرعان ما استحوذ على المضرب بقوة، وسلّمه ليوسف الذي أخذ يسجّل الضربة تلو الأخرى بثقة اللاعب الموهوب. أشاد خليل بكلّ ضربة من ضرباته، وحين أمسكوا بيوسف أخيراً حمله على كتفيه خارج اللعبة، فيما كان يوسف يصارع للنزول.

وفي طريقهما إلى المنزل أبصرا كلاباً بدأت تتحرّك في شوارع المساء الباكر، وقد بدت أجسادها تحت الضوء هزيلة متقرّحة، بشعر رثّ أجرب. أمّا عيونها التي تبدو شديدة القسوة تحت ضوء القمر فكانت سيّالة متخثرة بمادّة بيضاء في وضوح النهار. وقد أخذتْ سُحب من الذباب تحلّق فوق قروحها الحُمْر.

تغنّى خليل أمام الزبائن بأداء يوسف البطوليّ في لعبة الكيپاندي، وأخذ يبّالغ في تضخيم مآثر يوسف في كلّ مرّة يروي فيها الحكاية، فيما يقزّم دوره هو أكثر فأكثر. كان خليل على عادته مع الزبائن يتلاعب بكلّ شيء من أجل إثارة الضحك، لا سيّما إن كانت هنالك فتيات أو شابات من حوله. فلمّا جاءت ما عجوزة لسماع القصّة تحوّلت لعبة الكيپاندي إلى مجزرة خرج يوسف منها منتصرًا، فيما كان مهرّجه الصغير يتقافز إلى جانبه وينشد ببطولاته. يوسف العظيم، المبارك، ذو القرنين الجديد، قاتل يأجوج ومأجوج! وهكذا ظلّت ما عجوزة تصيح وتشيد في منعطفات الحكاية حيث يُسقط يوسف عدوًّا وهميًّا بعد الآخر بنصله الوامض. فلمّا انتهت الحكاية، وكما كان يمكن ليوسف أن يتوقّع، فقد أطلقت ما عجوزة زغاريدها وانطلقت إليه. ابتهج الزبائن وشيوخ الشرفة وأخذوا يحرّضون ما عجوزة أكثر فأكثر، ولم يعد هناك من مفرّ، فأمسكت به وجرتّه إلى شجرة الصوفي، وهي ترتعش في رغبة محمومة، إلى أن استطاع التملّص منها.

لاحقًا سأل خليل: «من هؤلاء المايجوج الذين ذكرتهم لما عجوزة؟ ما قصّتهم؟»

في بادئ الأمر أبعد خليل بإشارة من يده، إذ كان مشغول البال بعد دخوله البيت في ذلك المساء، لكنّه قال له لاحقًا: «ذو القرنين حصان صغير يطير. إنّ استطعت أن تمسك به وتشويه على نار من خشب القرنفل، ثم أكلت قطعة من كلّ طرف (بما في ذلك الجناحان)، فسوف تسيطر على السحرة والشياطين والغيلان. بعد ذلك يمكنك أن تطلب منهم (إن شئت) أن يحضروا لك أميرة جميلة رشيقة من الصّين أو فارس أو الهند. غير أنّ الثمن الذي تدفعه هو أن تصبح أسيرًا ليأجوج ومأجوج، إلى الأبد».

انتظر يوسف في صمت، غير مقتنع بما سمعه.

فقال خليل مبتسمًا: «حسنٌ، سأخبرك بالحقيقة. دون مزاح. ذو القرنين بالعربية تعني الشخص الذي له قرنان... الإسكندر الأكبر الذي هزم العالم كله. هل سمعتَ من قبل عن الإسكندر الأكبر؟ ذات مرة في غزواته سافر إلى أطراف العالم، فأتاه بعض الناس وأخبروه بأن يأجوج ومأجوج يعيشون قريبًا منهم في الشمال، وهؤلاء قوم متوحشون لا لغة لهم، يعيشون فسادًا في أراضي جيرانهم طوال الوقت. ولذلك سيّد ذو القرنين سورًا لا يمكن ليأجوج ومأجوج أن يتسلّقوه أو يخترقوه. وهذا هو السور الذي يحدّد حافة العالم؛ فمن خلفه يعيش البرابرة والشياطين».

«ومن أيّ شيء صُنِعَ السور؟ وهل ما يزال يأجوج ومأجوج هناك؟»

فردّ خليل غاضبًا: «وكيف لي أن أعرف؟ أرهقتني بأسئلتك. كلّ ما تريده هو القصص. دعني أنام قليلًا».

قلّ اهتمام خليل بالدكان في غياب العمّ عزيز، فقد زاد ذهابه إلى البيت، ولم يكن يغضب من يوسف إنّ حامّ في الحديقة. كانت الحديقة في الواقع مسوّرة بالكامل، ما عدا عند المدخل الواسع بالقرب من شرفة البيت الأمامية. وكان يوسف قد شُغف بهدوء الحديقة وبرودتها (الواضحين حتّى من مسافة بعيدة) منذ وصوله أوّل مرة. وفي غياب عمّه تخطّى الجدار فوجد أنّ الحديقة مقسّمة إلى أرباع، مع بركة في الوسط وقنوات مائيّة تجري منها في الاتجاهات الأربعة. أمّا الأرباع فكانت مزروعة بأشجار وأجمات، وبعضها بالزهور، من خزامى وحنّاء

وإكليل جبلٍ وصَبَّار. وأمّا المساحة المفتوحة بين الأجمات فكانت مزروعة بالبرسيم والعشب، وكتل متناثرة من الزنبق والسوسن. من خلف المسبح، باتجاه الطرف العلويّ من الحديقة، ترتفع الأرض إلى شرفة مزروعة بالخشخاش والورد الأصفر والياسمين، متناثرة وكأنّها نمت في الطبيعة. وقد رأى يوسف في المنام أنّ راثحتها تهادت إليه ليلاً فدوّخته. وفي غمرة انتشائه خيّل إليه أنه سمع موسيقى.

كانت أشجار البرتقال والرمّان مبعثرة في أرجاء من الحديقة، وقد شعر يوسف بأنّه دخيل وهو يسير تحت ظلالها، يشمّ أزهارها وهو يشعر بالذنب. ثمّة مرايا تتدلّى من جذوع الأشجار، لكنّها موضوعة في مكان شديد الارتفاع، فلم يكن يوسف يرى نفسه فيها. تحدّث يوسف وخليل عن الحديقة وجمالها وهما مستلقيان على الشرفة الترايبية أمام الدكان. ورغم أنّ يوسف لم يقل ذلك، إلّا أنّه لم يكن راغباً في شيء أكثر من أن يُنْفَى لفترة طويلة في ذلك البستان الصامت. قال له خليل إنّ الرّمّان هو التحقّق الأكمل لكلّ الثمار؛ فلا هو برتقال ولا خوخ ولا مشمش، لكنّه شيء من كلّ ذلك. فالرّمّان شجرة الخصوبة نفسها، جذعها وثمارها تشبه سرعة الحياة في متانتها وامتلائها. والبذور الصلبة الناشفة التي قدّمها خليل ليوسف تأكيداً على رأيه (من ثمرة التّقطت بجرأة من الحديقة) لم تكن تشبه طعم البرتقال على الإطلاق، وهو طعم لم يكن يوسف يحبّه على أيّ حال. ولم يكن قد سبق له أن سمع عن الخوخ. ثمّ سأل خليلاً: «ما المشمش؟»

فردّ خليل متبرّماً: «ليس في حلاوة الرّمّان».

فقال يوسف بحزم: «في هذه الحالة إذن أنا لا أحبّ المشمش». تجاهله خليل.

الأکید أنه كان یقضى کثیراً من الوقت فی البیت. فقد کان یوسف یذهب إلی الحدیقة کلّما سنحت له الفرصة، رغم أنه کان یعلم متى یُشار إلیه بالرحیل. إذ یسمعُ تأقفاً وتذمرًا فی فناء البیت و یعرف أنه موجه إلیه. کان صوت السیّدة.

قال له خلیل: «لقد رأْتُک. تقول إنَّک غلام جمیل. فهي تراقبک من مراياها بین الأشجار حین تمشی فی الحدیقة. هل رأیت المرايا؟»

کان یوسف یتوقع أن یمازحه خلیل ویضحک علیه کما کان یفعل مع ما عجوزة، لکنّه کان متجهّماً، تعیساً، مشغول البال. سأله مستفزاً: «هل هي عجوز جدّاً؟ أقصد السیّدة».

«نعم».

«قیحة؟»

«نعم».

«بدیئة؟»

«لا».

مکتبة

t.me/soramnqraa

سأله أيضاً وهو ینظر إلی انشغال خلیل نظرة اندهاش: «هل هي مجنونة؟ هل لديها خادمة؟ من یطبخ فی البیت؟»

فصفعه خلیل بضغ صفعات، ثم لکمه بقوة علی رأسه، وطوّق رأسه بركبتیه لحظة قبل أن یدفعه بعيداً. ثمّ صاح به وقد أزد وأرعد من الغضب الذی کان یحاول أن یسيطر علیه: «أنت خادمها. أنا خادمها. نحن عبیدها. ألیس لك عقل؟ أنت سواحليّ غبیّ، أيها الأحمق الضعیف... إنها مریضة. ألیست لك عینان؟ موتک أفضل من حیاتک. تعرّض نفسك لكلّ سوء. ابتعد عني!».

البلدة الجبلية

جاءت رحلته الأولى إلى الداخل على حين فجأة. كان يوسف قد اعتاد وقوع ذلك النوع من الحوادث، وكانت الاستعدادات جارية قبل أن يكتشف أنه سيذهب معهم. تراكمت أمتعة الرحلة في القسم الخلفي من الدكان، وعلى الشرفة، وتكدست أكياس التمور والفواكه المجففة بروائحها الزكية في أحد المخازن الجانبية. هكذا وجدت النحل والدبابير طريقها عبر قضبان النوافذ، تشدها رائحة الأكياس المنسوجة ونداوتها. ثمة أحمال أخرى تفوح منها رائحة الحوافر والجلود، نُقلت على عجل إلى البيت نفسه. كانت الأحمال غريبة الشكل، مغطاة بالخيش. همس خليل قائلاً: ماغندو، بضائع للتهريب عبر الحدود. أموال طائلة. شهد الزبائن وصول الأحمال المغطاة بالخيش وقد ارتفعت حواجبهم دهشة، وأخذوا يتبادلون نظرات تواطؤ سعيدة مع الشيوخ الذين رغم ابتعادهم عن الشرفة كانوا ما يزالون يراقبون بهدوء من تحت الأشجار، فظلّوا يومثون ويبتسمون وكأنهم كانوا طرفاً في هذا الذي يحدث. وكلّما حاصر أحد الشيوخ يوسف، اضطرّ هذا إلى الاستماع إلى حديث مسهب ودقيق عن البواسير وحركة الأمعاء والإمساك، والأمر يعتمد على من الذي أمسك به. لكنّه إذا ما استطاع أن يحتمل حديثهم عن عذابات الأجساد المتدهورة، فسوف يسمع منهم قصصاً عن رحلات أخرى، ويشاهد أولئك الشيوخ وهم ينسون أنفسهم في غمرة الاستعدادات الجديدة.

امتلأت الأجواء برائحة السفر، وارتفع رنين الأوامر هنا وهناك. ومع اقتراب يوم الرحيل انحسرت تلك الفوضى على مضض. كانت

ابتسامة العمّ عزيز المرتبكة ووجهه القاسي يفرضان على الجميع التزام الوقار. وفي نهاية الأمر انطلقت الرحلة في جوّ من السكينة، يقودها عازف البوق إذ يعزف لحناً مهذاراً، فيما يدقّ عازف الطبل نغمة موافقة. وقف الناس في الشوارع يتابعون مرورهم في هدوء، يتسمون ويلوّحون في مزاج خافت. لم يخطر في بال أحد أن ينكر ضرورة هذا الموكب السائر إلى الداخل، وكانوا يعرفون نوع الكلمات التي يمكن أن تجعل رحلات كهذه تبدو ضرورية.

كان يوسف قد شاهد العديد من هذه المغادرات من قبل، وأصبح يستمتع بما يصاحب تلك الاستعدادات من إلحاح وهوس. طُلب إليه هو وخلييل أن يساعدا الحمّالين والحراس، فكانا يحضران الأغراض ويحملانها، ويراقبان، ويحسبان. بل إنّ العمّ عزيز نفسه شارك قليلاً في الترتيبات. أمّا التفاصيل الدقيقة فقد تُركت للمنيابارا محمد عبد الله. الشيطان! فكلّما حان الوقت لرحلة طويلة من رحلات العمّ عزيز، أرسل في طلب المنيابارا من مكان ما في الداخل. وكان دائماً ما يأتي، ذلك أنّ العمّ عزيز تاجر قادر على تمويل رحلاته بنفسه، دون الحاجة إلى الاقتراض من مُكيّ هنديّ. ثمة تشريف في العمل مع رجل كهذا. كان محمد عبد الله هو الذي يستأجر الحمّالين والحراس، ويتفق على حصّتهم من الأرباح. وكان هو أيضاً الذي يضمن انضباطهم. كان معظمهم من سكّان الساحل، من مناطق بعيدة مثل «كيليفي» و«ليدي» و«مريما»، وكان المنيابارا يثير الرعب فيهم أجمعين. فنظراته المتجهّمة المزمجرة، والضوء القاسي في عينيه، كانت وعيداً بالآلم لمن يجروّ على الغدر به. هذه القوّة التي يتمتّع بها هي التي تضمن الطاعة لأبسط إشارة منه. كان رجلاً طويل القامة قويّ المظهر، مرفوع

الكتفين، كأنما ينتظر تحدّيًا. أمّا وجهه فكان ممثلاً، بارز العظام، يهدر برغبات مضطربة. كان يحمل معه عصاً رقيقة من الخيزران يستخدمها لتأكيد حديثه، يلوّح بها أثناء سخطه، وينزل بها على مؤخّرة الكسالى حين تثور ثائثرته. وقد عُرف عنه أنّه لوّاط عديم الرحمة، بل كثيراً ما كان يداعب ذكّره وهو شارد الذهن. البعض قال (وأغلبهم ممّن رفض توظيفهم) إنّهُ كان يختار الحمّال الذي لديه استعداد لأن يجثر على أربع أثناء الرحلة.

كان ينظر إلى يوسف أحياناً بابتسامة مخيفة، يهزّ رأسه في شيء من السعادة، ويقول: ما شاء الله. كانت عيناه آنذاك ترقّان في سرور، ويفتح فمه بابتسامة غير معتادة، تكشف عن أسنان لطّخها التبغ الممضوغ. وحين تتابه هذه اللوعة يتنهّد بقوة من أثر الشهوة، ويتمتم بأغنية عن معنى الجمال. كان هو الذي أخبر يوسف بأنه سوف يرافقهم في رحلتهم، ما يجعل من تعليمات بسيطة كهذه تبدو خطيرة.

كان الأمر بالنسبة إلى يوسف بمثابة انقطاع غير محبّب عن السكينة التي اكتسبها حياته في العبوديّة سنة بعد سنة. فعلى أيّ حال، لم يكن تعيشاً في دكان العمّ عزيز. وقد أدرك تماماً أنّه كان يعمل هناك بوصفه رهباني، رهناً لدى العمّ عزيز مقابل ديون أبيه. ولم يكن من الصعب تخمين أنّ والده اقترض الكثير بمرور السنوات، لدرجة أنّه حتّى لو باع فندقه فلن يوفي دينه. أو لعلّه كان سيّئ الحظّ، أو أساء الإنفاق من أموال لا يملكها. وقد أخبره خليل أنّ هذه هي طريقة السيّد؛ حتّى إذا ما احتاج إلى شيء، وجد أشخاصاً يمكن تكليفهم بالمطلوب. وإنّ أصبح السيّد شديد الحاجة إلى المال، ضحّى بحفنة من دائنيه لتوفير المال.

ربما يأتي والده ذات يوم يخلصه ممّا هو فيه، حين ينجح ويكثر ماله. كان يبكي على أمّه وأبيه حين يستطيع، وفي بعض الأحيان كان يشعر بالذعر لأنّ صورهم تبهت في ذاكرته. غير أنّ صوتيهما أو شيئاً من خصائصهما (كضحكة أمّه أو ابتسامة أبيه المتردّدة) كانت تعود إليه فتطمئنه. لم يكن الأمر أنّه يتوق إليهما، وعلى أيّ حال فقد كان اشتياقه إليهما يقلّ شيئاً فشيئاً، بل إنّ انفصاله عنهما كان أبرز حدث في حياته. لهذا السبب استغرق في الأمر، وأصابه الحزن على ما فقده. أخذ يفكّر في الأشياء التي كان ينبغي أن يعرفها عنهما، أو كان بإمكانه أن يسألهما عنها. الشجارات المريرة التي كانت ترعبه. أسماء الولدين اللذين غرقا بعد أن غادروا باغامويو. أسماء الأشجار. لو أنّه فكّر في سؤالهما عن أشياء كهذه، لربما لم يشعر بالجهل الشديد والعزلة الهائلة عن كل شيء. كان يؤدّي ما يُطلب إليه من أعمال، وينقذ تعليمات خليل، وأصبح يعتمد على «أخيه». كما كان يعمل في الحديقة حين يُسمح له.

كان حبّه للحديقة قد ترك أثره في مزي حمداني، الشيخ الذي يأتي للاعتناء بالحديقة صباحاً وبعد الظهر. كان هذا نادراً ما يتحدّث، ويغضب إذا ما اضطرّ إلى التوقّف عن ترتيل ابتهالاته (وكان بعضها من تأليفه)، أو الاستماع إلى من يتحدّث إليه. كان يبدأ العمل صباحاً دون إلقاء تحية على أحد، فيملأ دلاءه، وينثر الماء بيده وهو يسير على طول الممرّات، وكأنّه لا يوجد شيء غير هذه الحديقة وهذا العمل. وحين تشتدّ حرارة الشمس، يتفياً شجرةً ويقرأ في كتيب صغير، يتمتم ويتمايل شيئاً قليلاً، غائباً في نشوة العبادة. وبعد أن يفرغ من صلاة الظهر، يغسل قدميه وينصرف. كان مزي حمداني يسمح ليوסף

بمساعده حين يرغب في ذلك، لا يوجهه لفعل شيء بعينه، لكنه لا يصرفه بعيداً. في أواخر العصر، مع غروب الشمس، تصبح الحديقة ملكاً ليوسف. يقلّم الأشجار ويسقيها ويتمشّى تحتها، بين الشجيرات الصغيرة. وحين يحلّ الظلام يعلو الصوت الشكّاء من فوق الجدار، فيصرفه بعيداً، رغم أنّه كان في أوقات أخرى يسمع شيئاً من تنهّات ونثار من أغنيات في الظلمة التي تتشكّل. يملأه الصوت حزناً. وذات مرّة سمع صرخة اشتياق طويلة ذكرّته بأمّه، ودفعته إلى الوقوف تحت الجدار والإنصات برجفة من خوف.

كان يوسف قد كفّ عن السؤال عن السيّدة، كي لا يغضب خليلاً. ليس هذا من شأنك، ولا ينبغي لك أن تسأل أسئلة لا فائدة منها. سيحلّ علينا الكيسيرانى.. النحس. أتريد أن تجلب الشرّ علينا؟ كان يُدرك أنّ غضب خليل يتطلّب منه السكوت عن أمرها، رغم أنّه كان يرى نظرات الزبائن وهم يستفسرون عن المنزل، علاوة على أنّ سؤاله كان من باب التهذيب. في تجواله مع خليل في البلدة عصراً كان يرى المنازل الضخمة الصامتة، ذات الجدران الأمامية الفارغة، حيث تسكن العائلات العمانيّة الثرية. قال له أحد الزبائن: «لا يزوجون بناتهم إلّا لأبناء إخوتهم. في بعض تلك القلاع الشاسعة ثمة ذريّة ضعيفة حييسة لا يتحدّث عنها أحد أبداً. في بعض الأحيان يمكنك أن ترى وجوه تلك المخلوقات المسكينة على قضبان النوافذ في الطابق العلوي. والله أعلم بالحيرة التي ينظرون بها إلى عالمنا البائس. أو لعلّهم يدركون أنّه عقاب الله على خطايا آبائهم».

كانا يزوران البلدة كلّ جمعة للصلاة في الجامع، ولعب الكيپاندي وكرة القدم في الشارع. أمّا المارّة فكانوا يصيحون في وجه خليل،

يقولون له إنّه يكاد يكون أبًا، ولا يليق به أن يلعب مع الأطفال. كانوا يصيحون به أنّ الناس سوف يتحدّثون عنك ويلقبونك باللقاب قدرة. ذات يوم توقّفتُ عجوز بضع دقائق لمشاهدة المباراة، إلى أن اقترب منها خليل، فبصقتُ على الأرض وابتعدت. عند الغروب يذهبان إلى الواجهة البحريّة يتحدّثان إلى الصيّادين إن لم يدخلوا البحر. كانوا يعرضون السجائر على خليل فيقبلها، لكنّه يمنع يوسف من ذلك. يقول الصيّادون إنّه لشدّة جماله لا ينبغي له أن يدخن. سوف يفسده. التدخين من عمل الشيطان، خطيئة، ولكن هل يوجد خيار آخر للفقير؟ تذكر يوسف القصص المأساوية التي قصّها عليه المتسوّل محمد، وكيف أنّه فقد حبّ والدته ومزرعته جنوب ويتو، فلم يأبه بالتدخين. كان الصيّادون يروون حكايات عن مغامراتهم، والمحنّ والابتلاءات التي حلّت عليهم في البحر. وفي هدوء شديد يحكون عن الشياطين التي نزلت عليهم من السماء الصافية، تتخفّى في هيئة عواصف عجيبة، أو ترتفع من بحار الليل الحالكة على شكل سمكة طباق عملاقة متوهّجة. برحابة صدر يتبادلون حكايات معارك لا تُنسى، خاضوها ضدّ أعداء أقوياء شجعان.

بعد ذلك يشاهدان لعبة ورق قرب مقهى، أو يشتريان طعامًا يأكلانه في العراء. في بعض الأحيان كانت هناك رقصات وحفلات موسيقية في الهواء الطلق، تستمرّ حتى ساعات الصباح الأولى احتفالاً بمناسبة أو حدث سعيد. كان يوسف يشعر براحة غامرة في البلدة، ويودّ لو يُكثر من زيارتها، غير أنّه شعر بأنّ خليلًا لم يكن مرتاحًا. فقد كان هذا يسعد أكثر في دكانه وهو يمزح مع الزبائن بلكنته الثقيلة. كانت سعادته صادقة حقيقية، يضحك على مغايباتهم واستهزائهم به بسرور

يعادل سرورهم، يستمع باهتمام وتعاطف إلى المشاق التي يعيشونها وأوجاعهم وآلامهم. ذات مرة قالت له ما عجوزة لولا أن يوسف قد وضع عينه عليها، لكانت قد فكّرت فيه، رغم مزاجه العصبيّ وجسمه الهزيل.

ذات مساء حضرا حفل زفاف هنديّ في قلب البلدة القديمة، لا كضيفين، بل كجزء من الرعاع الذين تجمّعوا لمشاهدة العرض البديع وذلك الاحتفال بالحبّ. وقد أذهلتهم الأناقة في أردية الديباج والحليّ الذهبية، وأعجبا كثيرا بالعمائم الزاهية التي يرتديها الرجال. كانت هناك روائح ثقيلة ذات أصل عتيق، فيما تتصاعد أدخنة البخور من أنية نحاسية موضوعة على الطريق أمام المنزل، كي يغطّي على روائح المجاري المغطّاة في وسط الطريق. أمّا الموكب الذي رافق العروس فكان يقوده رجلان يحملان فانوسًا أخضر كبيرًا على شكل قصر ذي قباب عديدة في شكل بصلات. إلى جانب العروس صفّان من الشبان يهتفون ويرشّون ماء الورد على الجموع المصطفيين في الشوارع. بعضهم كان محرّجًا بعض الشيء، واستشعرت الحشود ذلك فراحت تصرخ ساخرة منهم وشاتمة، لا لشيء إلا لتزيد من حرجهم. وقد بدت العروس صغيرة للغاية، ضئيلة نحيفة. كانت مغطّاة من رأسها حتى أخصص قدميها بأحجية من حرير مطعّمة بالذهب، تومض وتتلألأ في كلّ حركة. أساورها وخلاخيلها الثقيلة تلتمع على نحو هادئ، فيما يتطاير قرطاهما الكبيران مثل طيفين ساطعين خلف حجابها. وقد أسقط وهجُ الفانوس ظلّه على خطوط وجهها المطرق فيما هي تنعطف إلى البوابة الضيقة في منزل العريس.

بعد ذلك قدّمت أطباق الطعام للمتفرّجين في الشارع. أطباق «السنبوسة» و«اللّدو» و«الحلوى بادَم». تعالى صوت الموسيقى

طوال الليل، تترافق الأوتار والطبول مع أصوات ارتفعت بوضوح ودقة بديعين. لم يكن أحد من الحشد في خارج المنزل يفهم شيئاً من تلك الأهازيج، لكنهم ظلّوا يستمعون على أيّ حال. وبمرور الوقت ازدادت نبرة الحزن في الأغنيات، حتى بدأ الناس يتفرّقون، مدفوعين بالحزن الذي تعدّ به تلك الأغنيات.

2

«كيجانا مزوري (أيها الغلام الوسيم)». هكذا قال محمد عبد الله وهو يمسك ذقن يوسف بيده التي بدت مرقطة مقشّرة، فهزّ يوسف رأسه متحرّراً من يد الرجل، وشعر بخفقان في ذقنه. «ستأتي معنا. السيّد يريدك أن تكون جاهزاً في الصباح. ستأتي وتتاجر معنا، وتتعلم الفرق بين الحضارة والهمجيّة. حان الوقت لأنّ تكبر، وترى العالم... بدلاً من اللعب في الدكاكين القذرة». كبرت ابتسامته وهو يتحدّث، في حركة مفترسة ذكّرت يوسف بالكلاب التي تجوب كوابيسه.

ذهب إلى خليل علّه يشفق على حاله، فأبى هذا أن يواسيه أو ينوح معه على مصيره. ضحك ولكّمه على ذراعه مازحاً، لكنّ يوسف تألّم من ضربته. «تريد أن تجلس وتلعب في الحديقة هنا؟ وتُنشد القصائد مثل المجنون مزي حمداني؟ الحداثك كثيرة هناك. بإمكانك أن تستعير معولاً من السيّد. سيحمل عشرات منها كي يتاجر بها مع الهمج. كم يحبّون المعاول أولئك الهمج، لا أدري لماذا! سمعتُ أنّهم يحبّون القتال أيضاً. لكنّك بالتأكيد تعرف ذلك، ولست في حاجة إلى أن أخبرك. فأنت من ذلك البلد الهمجيّ. ممّ تخاف؟ سوف تستمتع. قل

لهم فقط إنك واحد من أمرائهم، عدت إلى بلادك بحثاً عن زوجة». في تلك الليلة تجنّب خليل، وأشغل نفسه بالدكان، وراح يتبادل أحاديث مستعرة مع الحمّالين. وحين استلقيا للنوم ولم يعد بإمكانه أن يتجنّب، كان يلقي نكتة على كلّ سؤال من أسئلة يوسف. «ربّما تلتقي أحد أجدادك في الرحلة. ما أروع ذلك... علاوة على المناظر العجيبة والحيوانات البرية. أم تراك خائفاً من أن يسرق أحداً ما عجوزة حين تسافر؟ لا تقلق يا أخي السواحليّ، فهي لك إلى آخر العمر. سأقول لها إنك بكيتَ عليها قبل سفرك، لأنك كنت تخشى ألا تجد بين الهمج من يعتصر زبّك. سوف تنتظرك، وحين تعود تأتي لتغني لك. عمّا قريب ستصبح تاجراً ثرياً، وترتدي الحرير وترشّ العطور مثل السيّد، وتحمل أكياس النقود على بطنك، ومسبحة على معصمك».

فسأله يوسف في سَخَط، وصوته يرتعش لفرط ألمه وإشفاقه على نفسه: «ما بالك؟!»

ردّ خليل ضاحكاً: «وماذا تريدني أن أفعل؟ أبكي؟»

«سأسافر غداً مع ذلك الرجل ولصوصه—»

فأطبق خليل بيده على فم يوسف. كانا في مؤخرة الدكان، ينمان هناك لأنّ محمد عبد الله ورجاله كانوا قد استولوا على الشرفة الأمامية منذ فترة طويلة، كما حولوا الأدغال القريبة إلى مراحيض مفتوحة. وضع خليل إصبعه على شفتيه، وهسهس محدّراً. فلمّا همّ يوسف بقول المزيد، لكّمه خليل بقوة في بطنه حتى أخذ يئنّ من الألم. شعر يوسف كما لو أنّه مطرود، وأنّه مُتهم بخيانة لم يستوعبها. فاقرب منه خليل واحتضنه فترة طويلة، ثم أطلقه. قال له: «هذا لمصلحتك».

في الصباح، حُمِلت جميع الطرود المغلفة بالخيش في شاحنة قديمة لنقلها بمفردها إلى الداخل، على أن تنضم إليها بقية القافلة لاحقاً. كان سائق الشاحنة نصف يوناني ونصف هندي يُدعى باخوس، بشعر أسود طويل وشارب مهذب. يمتلك والده مصنعاً للتعبئة وصناعة الثلج في البلدة، وكان يؤجر شاحنته وابنه للتجار من وقت إلى آخر. استرخى باخوس على مقعد السائق بجسده المستدير الناعم وترك الباب مفتوحاً، وأخذ يطلق سيلاً من الألفاظ النابية بصوت معتدل ووجه غير باسم. وبين الحين والآخر كان يغني مقتطفات من أغنيات عاطفية، وينفث من سيجارة «البيري». «لو سمحتم، لمرّة واحدة كونوا لطفاء معي يا نياكي الماعز. لا يوجد شيء أحبّ إليّ من أن أجلس هنا وأداعب شروجكم طوال اليوم، ولكن لديّ شحنات أخرى أحملها يا بوب. شدّوا الهمة قليلاً وكفّوا عن شمّ خراء بعضكم البعض».

كلّما فكّرتُ في الحقيقة لاح لي وجهك،
أمّا وجوه الآخرين فليست سوى كذبة.
وكلّما حلمتُ بالسعادة أحسستُ بلمستك
ورأيتُ الحسد يشتعل في عيون الآخرين.

«واه، واه، جناب! لو سمعني مهراجا أغني لدعاني الليلة إلى أكل أفضل قطعة لحم لديه. توجد رائحة غريبة في هذا المكان. تبدو لي رائحة زبّ متعفن، ولكن لعلّها رائحة الطعام الذي يعطونكم إياه. هيه، بابا! ماذا يطعمونكم؟ دهون كثيرة في العرق الذي ينساب على ظهوركم. هناك حيث ستذهبون يحبّون اللحوم الدهنية يا بوب، لذلك

انتبهوا على أطيأزكم. بالله عليك يا أخي، كفى، لا تحك نفسك في ذلك المكان. دع شخصاً آخر يحك لك. لن ينفع على أي حال. هناك دواء واحد لهذه الجروح. تعال خلف الحائط ودلكني. سأعطيك خمس آنات». قهقهه الحمّالون على لسانه البذيء، وجرأته على استخدام لغة كهذه أمام التاجر. فإن تلعثم قليلاً، أكالوا عليه الشتائم عن أمّه وأبيه، مع تلميحات قبيحة عن أطفاله. فيمسك بذكره ويقول: «تعال مصّ زبيّ»، ويعود مرّة أخرى إلى السباب.

أمّا البضائع المراد نقلها إلى محطة القطار فكان من المقرر أن تُحمل على «ركواما»، وهي عربة طويلة يجرها الحمّالون. ظلّ العمّ عزيز يتحدث إلى خليل في هدوء، فيما يتمايل هذا إلى جانبه مطيعاً إرشاداته. ووقف الحمّالون في مجموعات خاملة، يتحدثون ويتجادلون، فينفجرون في فورات مفاجئة من الضحك وضرب الأيدي بعضها ببعض.

ثمّ قال العمّ عزيز أخيراً وهو يشير إليهم بالمسير: «هيا، خذونا إلى البلدة». فاشتعل الطبال والزمار من فورهما وانطلقا في حماس أمام القافلة، فيما أخذ محمد عبد الله يمشي من خلفهما مرفوع الرأس وعصاه تتمايل صعوداً وهبوطاً. أمّا يوسف فراح يدفع العربة، متنبهاً إلى عجالاتها الخشبيّة التي يمكنها أن تسحق الأقدام، وانضمّ بدوره إلى النخير المتواصل للحمّالين. كان يشعر بالخزي حين رأى خليلًا يتدلّل إلى العمّ عزيز في اللحظة الأخيرة، إذ يهوي على يده كما لو أنّه مستعدّ لابتلاعها إن استطاع. لم يكن شيئاً جديداً على خليل، لكنّ يوسف اشمئزّ منه اليوم أكثر من أيّ وقت مضى. وقد سمعه يوسف يصيح بشيء قال فيه: سواحليّ، لكنّه لم يلتفت.

تخلف العمّ عزيز عن القافلة، إذ كان يتوقّف من حين إلى آخر مودّعاً أبرز معارفه بين الواقفين في الشوارع.

3

ركب الحمّالون والحراس عربية الدرجة الثالثة، وبسطوا أنفسهم على مقاعدها الخشبيّة المضلّعة وكأنّ العربية ملك لهم. وكان يوسف معهم. أمّا الركّاب الآخرون فقد انتقلوا إلى عربات أخرى، أو تراجعوا إلى زوايا العربية اتّقاء ضجيجهم وغلظتهم. ثمّ جاء محمد عبد الله يزورهم من عربية أخرى في القطار، هازئاً بما يسمعه من تذرّ وكلام فارغ. كانت العربية ضيّقة، مظلمة، تفوح منها رائحة التراب اللزج ودخان الخشب. وحين أغمض يوسف عينه تذكّر رحلته الأولى بالقطار. هكذا ساروا في رحلتهم يومين وليلة، بين توقّفات كثيرة، وبطء لا ينقطع. في بادئ الأمر كانت الأرض مكتنّزة بأشجار النخيل والفاكهة، فكان الحمّالون والحراس يرون المزارع الصغيرة، وكلّما توقّف القطار تدفّقوا على الرصيف لإلقاء نظرة. البعض منهم مرّ من هذه الأماكن من قبل وكانوا يعرفون موظّفي المحطّة أو الباعة فيها، فلم يضيّعوا وقتاً في تجديد هذا التعارف، وتسلمّوا رسائل وهدايا كي يوصلوها في طريقهم. وفي إحدى المحطّات، وسط حرارة الظهر الساكنة، خطر ليوسف أنّه سمع خرير ماء. توقّف القطار عصراً في «كاوة»، فجلس يوسف على أرضيّة العربية في صمت متوتّر، خشية أن يراه شخص ما فيُخرج والدیه. لاحقاً، حين ارتفعت تضاريس الأرض وتحول مسيرهم شرقاً، شحّت الأشجار والمزارع، وتحولت المراعي إلى أجسام موروقة.

ظَلَّ الحَمَّالُونَ والحِرَّاسُ يدمدمون ويتشاجرون. تحدّثوا كثيراً عن الطعام، وتجادلوا حول الأطباق اللذيذة التي لم تكن في متناولهم في ذلك الوقت، وناقحوا عن تميّز مأكولاتهم. فلمّا زاد هذا من جوعهم وسوء مزاجهم، تجادلوا حول أشياء أخرى. تحدّثوا عن المعاني الحقيقية لبعض الكلمات، وعن مقدار المهر الذي قدّم لابنة تاجر أسطوري، وعن شجاعة ربّان شهير، وعن بشرة الأوروبيين الحمراء المقترحة. أنفقوا نصف ساعة مستعرة اختلفوا فيها على وزن الخصيتين في الثيران والأسود والغوريلات. وقد بدا أنّ كلّ حيوان من هذه الحيوانات له أنصاره. تشاجروا على أماكن النوم، إذ رأى كلّ منهم أنّ الآخر قد تعدّى على مساحته. هكذا راحوا يغلّظون الأيمان ويزمجرون، ويتدافعون على مساحات النوم. فلمّا استعر انفعالهم، أطلقت أجسادهم رائحة عرق لاذعة، ممزوجة برائحة بول وتبغ فاسد. وما هي إلّا دقائق حتّى ابتدأت المعارك، فغطّى يوسف رأسه بذراعيه، وأسند ظهره على جانب العربة، وأخذ يركل بكلّ قوّته أيّ أحد يقترب منه. في أعماق الليل تناهت له تتمّات، ثمّ حركات خفيفة. وبعد فترة أدرك صوت المداعبات الخفيّة، وسمع ضحكاً خفيفاً وهمسات متعة مكتومة.

في وضّح النهار أخذ ينظر من النافذة، يبحث في الريف ويلاحظ التغيرات فيه. فعن يمينهم كانت المرتفعات البعيدة تظهر مرّة أخرى، موروقة مظلمة. الهواء فوق المرتفعات كثيف معتم، كأنّما يخبئ وعداً. أما السهل الجاف الذي يسير القطار فيه، فقد كان مضيئاً. غير أنّ الهواء تعباً بالغبار مع ارتفاع الشمس. ما يزال السهل المسفوح مغطّى بقطع من الحشائش الميتة، تلك التي سوف تستحيل مع المطر إلى غابات

من السافانا الخصبة. ثمة أشجار شائكة متغضّنة تنتشر على السهل، تكتسي لونًا داكنًا من نتوءات صخرية سود متناثرة. موجات من الحرارة والبخار تتصاعد من الأرض المحترقة، يمتلئ بها فم يوسف فيلهث في أنفاسه. وفي إحدى المحطّات التي توقّفوا فيها فترة طويلة، كانت هناك شجرة جاكاراندا وحيدة مُورقة. بتلاتها البنفسجية والأرجوانية مبسوطة على الأرض، مثل سجادة قزحية الألوان. إلى جانب الشجرة دكان من غرفتين، علّقت على أبوابه أقفال ضخمة صدئة، فيما يتناثر طين اللاتريت على جدرانهِ البيض.

خطر له خليل عدّة مرات، وانتابه الحزن كلّما تذكّر أيامه معه، ورحيله عنه في سرعة ووجوم. لكنّ خليلًا بدا كما لو كان سعيدًا برحيله. فكّر في كاوة وفي والديه: أترى كان يمكنه أن يفعل شيئًا غير ما فعل؟

في وقت متأخر من العصر ترجّلوا عن القطار في بلدة صغيرة، تحت جبل ضخّم مغطى بالثلوج. كان الهواء باردًا ولطيفًا، فيما الضوء ناعم نعومة الشفق في أوله إذّ ينعكس على مياه لا حدود لها. فلمّا وصل العمّ عزيز حيّا ناظر المحطة الهنديّ تحيّة الصديق القديم.

«موهون سدوا، هوجامبو بوانا وانغو. أرجو أن تكون في أتمّ عافية، وأن يكون أولادك وأمّ الأولاد بخير. الحمد لله ربّ العالمين. نشكر الله».

فقال ناظر المحطة وهو يهزّيد العمّ عزيز بحماس وسعادة جيّاشة: «كريبو، بوانا عزيز. أهلاً وسهلاً. أرجو أن يكون أهل بيتك بخير. ما الأخبار؟ وكيف العمل؟»

«نشكر الله على نِعَمِهِ يا صديقي. دعكَ مِنِّي، وأخبرني كيف تسير الأمور هنا. أدعو الله أن يوفِّقَكَ في كُلِّ شؤْنِكَ».

واختفى الاثنان في مكتب الناظر الخفيض الذي يشبه السقيفة، يتبسَّمان ويثرثران، في تنافس على المجاملات قبل بدء الحديث عن العمل. وثمة علَمٌ أصفر ضخم يرفرف فوق المبنى، يتموِّج ويطلق مع النسيم، فيثير نائِرة الطائر الأسود. وتبسّم الحَمَّالون فيما بينهم، إذ يعلمون أنَّ سيدهم إنّما ذهب يقدِّم رشوة مناسبة للناظر حتَّى يخفِّض لهم رسوم الشحن. وما لبث أن جاء كاتب الناظر، واستند إلى الحائط كأنه ممثل مسرحي غير مكترث بالمشهد الذي يستعدّ لتمثيله. كان هنديًّا هو الآخر، شابًّا نحيفًا قصير القامة لا يحبّ لفت الانتباه إليه. تغامز الحَمَّالون ونَبْزوه نَبْزَ العارفين بحاله. في أثناء ذلك كانوا يحمّلون البضائع تحت إشراف محمد عبد الله والحراس، ويكدّسونها فوق الرصيف.

صاح فيهم محمد عبد الله مستمتعًا، مهدّدًا بعصاه: «افتحوا أعينكم، قبحكم الله أيّها الثرثارون». كان يبتسم باستخفاف شارد الذهن وهو يدلكّ نفسه مباعدًا بين ساقيه. «حذار أن تسرقوا شيئًا. فإنّ قبضت على أحد منكم قطعْتُ ظهره إربًا. لاحقًا سأغنّي لكم تهويده للنوم، أمّا الآن افتحوا أعينكم. نحن في بلد الهمج. وهم من طينة تختلف عن طينتكم الجبّانة. هؤلاء يسرقون أيّ شيء، حتّى رجولتكم إن لم تربطوا مآزرهم جيّدًا. هيّا، هيّا، الناس في انتظارنا».

فلَمَّا أصبح كلُّ شيء جاهزًا، ساروا في موكب، وكلّ يحمل ما كُلف به. وعلى رأس القافلة قائدهم المتغطرس، يهشّ بعصاه ويحدّق في الناس المذهولين إذ يمرّون بهم. كانت بلدة صغيرة تبدو فارغة، غير

أَنَّ الجبل الضخم الذي تربض تحته أضفى عليها شيئاً من الغموض والكآبة، وكأنّها ساحة للمآسي. سار أمامهم محاربان مرصعان بالخرز، بجسديهما اللامعين المدهونين. كانت نعالهما الجلديّة تطرق الأرض في تناغم مع تلويح الرماح، إذ ينحني الجسد إلى الأمام في إجهاد وعجلة. لا ينظران يميناً ولا يساراً، وفي نظرتهم ثقة وإصرار، تكاد تكون من جنس التفاني. الشّعْرُ في جديلتين، مصبوغاً بحمرة الأرض، شأنه شأن «الشوكا» الجلديّة التي يرتديها كلّ منهما من كتفه إلى فخذه إلى الركبتين. التفتَ محمد عبد الله ينظر إلى موكبه بازدياء، ثمّ أشار بعصاه إلى المحاربين وقال: «همجيان. الواحد منهما بعشرة منكم».

قال شابّ من الحمّالين دائماً ما يتصدّر الحديث: «كيف يخلق الله أمثال هؤلاء! وكأنّهم مخلوقون من خطيئة. يبدو شرسين».

فقال حمّال آخر: «كيف تُراهم يَحْمَرُّون هكذا؟ لا بدّ من أنّهم يشربون الدم. أليس كذلك؟ يشربون الدم».

«انظر إلى نصل الرمح!».

فقال حارس بصوت خفيض، مخافة أن يسمعه قائده المتجهّم: «ويعرفون كيف يستخدمونها. قد تبدو وكأنّها سكاكين خرقاء على عصيّ، لكنّها تفعل الأفاعيل. خاصّة وأنّهم يتدربون عليها كثيراً، فهم طوال الوقت إمّا يصطادون أو يهاجمون الآخرين. ولكي يصبح الواحد منهم مقاتلاً كاملاً لا بدّ من أن يصطاد أسداً ويقتله، ثم يأكل ذكّره. وكلّما أكل ذكراً جاز له أن يتزوَّج امرأة أخرى، وكلّما زادت الذكور التي يأكلونها، زادت ذريّتهم بين أهلهم».

فصاح به رفاقه مستهزئين به ورافضين تصديق ما يقوله: «يلاً. ما هي إلا قصص تضحك بها علينا».

فاحتجّ قائلاً: «صدّقوني. لقد رأيتهم بأَمّ عيني. واسألوا أيّ شخص سافر في هذه الأنحاء. واللهِ إنّي أقول الحقيقة. وكلّما قتلوا رجلاً قطعوا شيئاً منه واحتفظوا به في كيس».

فسأله الشاب الثرثار: «لماذا؟»

فقال محمد عبد الله في حدّة وهو يستدير نحو الشاب: «وهل تسأل همجياً عن السبب؟ لأنّه همجيّ. هكذا هو. لا يُسأل القرش أو الأفعى عن افتراسهما. والأمر نفسه عند الهمجيّ، فهكذا هو. خير لكم أن تتعلّموا قلة الكلام والإسراع في المشي بحمولتكم هذه. لستم سوى حفنة من النساء المتدّمّرات».

فقال الحارس بعد برهة: «للأمر علاقة بدينهم».

وردّ عليه الحمّال الشاب: «ليس في عيشتهم هذه أيّ شرف»، فنال نظرة طويلة مخيفة من محمد عبد الله.

وقال حارس آخر من «كومورو»: «الغلبة دائماً للرجل المتحضّر على الهمجيّ، حتى وإن أكل الهمجيّ ألف قضيب أسد. إنّما يغلبه بالمكر والمعرفة».

لم تستغرق القافلة وقتاً طويلاً حتى تصل إلى وجهتها، وهي دكان يقع في طرف دهليز بالقرب من الطريق الرئيس خروجاً من البلدة الصغيرة. أمام الدكان فسحة دائريّة، تطوّقها أشجار الخبز. وصاحب المحلّ رجل قصير القامة ممتلئ الجسم يرتدي قميصاً أبيض كبيراً

وسروا لآ فضفاضًا. شاربُهُ رفيع مشدّب، وخَطُهُ الشيب كما وخط شعر رأسه. يُعرف من هَيَاتِهِ ولغته أَنَّهُ من أهل الساحل. كان يتحرّك بينهم في شغل، يوجّه تعليماته في حزم وسلطة، دون أن ينتبه لمحمد عبد الله الذي يحاول التدخّل وتوجيه الأوامر.

4

كان الهواء قارسًا تحت الجبل، وللضوء صبغة أرجوانية لم يرها يوسف من قبل. في الصباح الباكر كانت الغيوم تغطّي قِمّة الجبل، لكنّها انحسرت بقدوم الشمس، وتحولت قِمّة الجبل إلى جليد. وعلى جانب من الجبل ينبسط السهل إلى مسافة بعيدة. قال له من جاؤوا إلى هذا المكان من قبل إنّ وراء الجبل قومًا محاربين أغابر يرعون الماشية ويشربون دماء الحيوانات. كانوا يرون في الحرب شرفًا، ويفخرون بتاريخهم في القتال. والقائد منهم إنّما يُعرف قدره بعدد الحيوانات التي غنمها من الغارات على الآخرين، والنساء اللاتي اختطفهنّ من بيوتهنّ. وحين لا يكونون في قتال، يعكفون على تزيين أجسادهم وشعورهم، وكأَنَّهُم غانيات في بيوت الهوى. من بين ضحاياهم أولئك المزارعون الذين يقطنون المنحدرات الجبلية حيث يهطل المطر. كان هؤلاء يَفِدُون إلى البلدة عدّة مرّات كلّ أسبوع لبيع ثمارهم، وعلى مظهرهم شدّة وتبلّد لا يليق بمن يسافر مسافة طويلة عن أرضه.

كان قسّ لوثرِيّ قد علّمهم استخدام المحراث الحديدي وصنع العَجَلَة. قال لهم إنّها عطايا من ربّه الذي أرسله إلى هذا الجبل ليرشدكم إلى الخلاص. وإنّ العمل فريضة من الله، فرضها على

الناس كيما يكفّروا عن شرورهم. كان هذا القسّ يحول كنيسته في غير أوقات العبادة إلى مدرسة، يعلم فيها رعيّته القراءة والكتابة. وبسبب من إصراره، فقد حول الناس كلّهم ولأهم لهذا الإله الذي اتخذ قساوسة عمليّين كهذا القسّ. نهاهم القسّ عن اتّخاذ أكثر من زوجة، وأقنعهم بأنّ العهد الذي بينهم وبين إلههم الجديد أهمّ وأقوى من أيّ شيء يدينون به لعادات آبائهم وأمهاتهم. لقّنهم التراتيل، وقصّ عليهم قصصاً عن الأودية الخضر الوافرة بالثمر والزبدة، والغابات التي تعجّ بالعفاريات والوحوش، والجبال التي تغطّيها الثلوج، والقرى التي تنزلج فوق بحيرات متجمّدة. هكذا صار للرعاة سبب آخر لاحتقار المزارعين الذين ظلّوا يغيرون عليهم جيلاً بعد جيل. فهم لم يكتفوا بنبش الأرض كما تفعل الحيوانات والنساء، بل صاروا يغنون جوقات حزينة عن شعوب مدحورة لوثوا بها هواء الجبل.

هناك إذن عاش الأوروبي الأسطوريّ، في ظلّ الجبل المغطّي بالثلوج، حيث الشعب المحارب وشحّ المطر. قيل إنّ كان ثرياً ثراء فاحشاً. وقيل إنّ عرف لغة الحيوانات وكان يتحدّث معها ويأمرها. تمتدّ مملكته على مساحات كبيرة من الأرض، ويعيش في قصر حديديّ على جرف. كان القصر كذلك مغناطيساً قوياً، كلّما اقترب الأعداء منه انتزعت أسلحتهم من أغمادها ومن أيديهم، فيسقطون في الأسر. كانت لدى الأوروبيّ سلطة على زعماء الهمج، الذين كان رغم ذلك معجباً بقسوتهم وصلابتهم. كان يراهم نبلاء، أشداء، رشيقين، بل وسيمين أيضاً. وقيل إنّ الأوروبي يملك خاتماً يستحضر به أرواح الأرض لخدمته. في شمال مملكته تجوس قطعان من الأسود التي تتلهّف على لحوم البشر، لكنّها لا تقترب من الأوروبيّ ما لم يستدعها.

كان صاحب الدكان الذي وصلت إليه القافلة (وحيث جلس يوسف تحت أشجار الخبز مع الرجال يستمع إلى تلك القصص) يدعى حامد سليمان، وهو من بلدة صغيرة شمال ممباسا تُسمى «كيليفي». أدرك يوسف أنها لم تكن بعيدة عن جنوب «ويتو» لأنّ محمد الشحاذ كان قد أخبره كيف كاد أن يغرق ذات مرة في قناة عميقة في «كيليفي». قال: ليتني هلكت وتحرّرت من عبوديّتي المخزية للحشيش. لكنّه كان مبتسمًا وهو يقول ذلك، كاشفًا عن أسنانه المكسورة في اعتذار.

كان حامد سليمان رجلًا لطيفًا حسن الطباع، يعامل يوسف كأنّه واحد من أقاربه. فقد قال له العمّ عزيز شيئًا قبل رحيله. رآه يوسف يتكلّم وينظر صوبه. لم يشرح ليوسف ما يحدث، لكنّه ربّت على رأسه وأوصاه بالبقاء مع حامد. هكذا شاهدهم يوسف يرحلون، بمشاعر مختلطة. فقد استراح من خطر محمد عبد الله، لكنّ الرحلة إلى البحيرات في الداخل كانت قد بدأت تثيره. كما أنّه، ويا للغرابة، تألف مع الحمّالين وكان يشعر بسعادة غامرة وهو يستمع إلى حكاياتهم التي لا تنتهي ونوادهم البذيئة.

ميمونة زوجة حامد من الساحل أيضًا، من جزيرة «لامو» في أقصى شمال ممباسا. كانت لها لهجة مختلفة، وتقول إنّ سواحليّة لامو أنقى من أيّ لهجة سواحليّة أخرى. سواهيلي أسلي. واسأل من شئت. أمّا لامو نفسها فكانت في عينيّها الكمال الأكيد. كانت لطيفة ممتلئة الجسم مثل زوجها، ولا تقوى على الصمت إنّ كان هناك أحد حولها. سألت يوسف أسئلة كثيرة: أين وُلد؟ وأين وُلد أبواه؟ وأين يقيم أهله؟ وهل يعرفون مكانه؟ ومتى زارهم آخر مرة؟ أو زار أقاربه الآخرين؟ ألم يعلمه أحد أهميّة ذلك؟ هل لديه خطيبة؟ ولمّ لا؟ ومتى ينوي الزواج؟

ألا يعلم أنّه إن انتظر طويلاً فسوف يعتقد الناس أنّ به علة؟ كان يبدو لها في سنّ مناسب للزواج، رغم أنّ المظاهر قد تخدع. كم عمره؟ كان يوسف يبذل ما في وسعه كي يتجنّب تلك الأسئلة. وفي كثير من الأحيان لم يكن في وسعه إلّا أن يهزّ كتفيه استسلاماً أمام الأسئلة التي لم يفكرّ فيها من قبل، أو يخفض بصره في خجل. فتنخر ميمونة من مراوغاته، وترمقه بنظرة الواثقة بأنّه سيقول الحقيقة عاجلاً أم آجلاً.

كانت وظيفته تشبه ما كان يفعله في الدكان الآخر، غير أنّ الأعمال كانت أقلّ هنا لأنّ الدكان لم يكن ناجحاً جداً. كان عليه أيضاً أن يمسح الأرض أمام الدكان صباحاً وعصرًا. فكان يجمع ثمار الخبز التي تسقط من الأشجار فيضعها في سلّة يأخذها رجل من السوق كلّ يوم. أمّا الثمار التالفة فكان يلقي بها في الفناء الخلفي، ذلك أنّهم لا يأكلون ثمار الخبز.

قالت ميمونة: «الحمد لله الذي أغنانا عن هذا».

قال له حامد إنّ هذا المكان كان محطة تتوقّف عندها القوافل القادمة من الداخل، في الأيام الخوالي، قبل أن ينتقلوا إلى هنا. كانت محطة مزدهرة في ذلك الوقت، وكانت ثمار الخبز طعاماً للحمالين والعبيد، الذين يأكلون أيّ شيء بعد رحلتهم الطويلة. لكنّ ذلك لا يعني أنّه يستهجن تلك الثمرة، بل كانوا يطبخونها مع صلصة جوز الهند والسردين المقلي. ويعلم الله أنّ ما يأكلونه الآن بدلاً من ثمار الخبز طعام بسيط، ولا ينبغي ليوسف أن يرى في ذلك مدعاة لاحتقار ثمار الخبز. الأمر وما فيه أنّ ثمار الخبز تذكرّ الناس بالعبودية، لا سيّما في هذه الأنحاء.

أعطى يوسف غرفة صغيرة في البيت، وكان يتناول طعامه مع الأسرة. تبقى المصاييح مشعلة طوال الليل، وتُقفَل الأبواب ومصاريع النوافذ ما إن يحلّ الظلام. قيل له إنهم يفعلون ذلك تجنبًا للصّوص والحيوانات. كان حامد يربّي حمامًا في صناديق تحت أفاريز البيت، لذلك كان الحمام في بعض الليالي يكسر الصمت بخفق أجنحته، فيتناثر شيء من الريش والدم على الفناء. كانت كلّ الحمامات بيضاء، ولها ذيول عريضة، إذ يقضي حامد على أيّ فروخ يبدو شكلها مختلفًا. كان يطيب له الحديث عن الطيور، وعاداتها في الأقفاص. يسمّي حماماته طيور الجتّة. فكانت تختال فوق سطح البيت في تهوّر، وكأنّ استعراض جمالها أهمّ من سلامتها. غير أنّ يوسف كان يرى في أعينها في بعض الأحيان ما يشبه السخرية من أنفسها.

كان حامد وزوجته يتبادلان النظرات أحيانًا بعد كلام يوسف، فخطر لهما أنهما يعرفان عنه أشياء أكثر ممّا يعرفه. ما الذي قاله لهما العمّ عزيز يا ترى؟ لقد استغربا شيئًا من سلوكه في بادئ الأمر، لكنهما لم يقولوا له شيئًا. كانا دائمًا ما يتعاملان مع ما يقوله بشيء من الشكّ، وكأنّهما يرتابان في دوافعه. فحين وصف لهم الأرض القاحلة التي قطعوها للوصول إلى البلدة، انزعجا، وشعر يوسف بأنّه أساء القول أو الفعل إذ لفت الانتباه إلى واحدة من المشكلات المحتومة التي يعيشون فيها.

قال حامد: «وما الغريب في ذلك؟ فالأرض قاحلة في كلّ مكان في هذه الأنحاء. أترّاك كنت تتوقّع منحدرات وافرة الخضرة ونبايح صغيرة؟ أنت مخطئ. هنا قرب الجبل جوّ بارد على الأقلّ، ومطر، رغم أنّه ليس كثيرًا كما في المنحدرات. ولكنّ هذا هو الحال».

فقال يوسف: «نعم».

وتابع حامد عابسا: «لا أعرف ما كنتَ تتوقع، لكنّ الحال واحد في كلّ مكان ما عدا في بضعة أسابيع بعد هطول المطر، وفي الأرض المرتفعة مثل أرضنا. ولكنّ يجب عليك أن ترى تلك السهول القاحلة بعد المطر. يجب أن تراها!».

«نعم».

فقالت ميمونة بغضب: «نعم.. يا ضبع؟ نعم.. يا حيوان؟ قل: نعم يا عمي».

وقال يوسف بعد لحظة: «لكنّ الأرض كانت خصبة عند البحر. فالبيت الذي كنّا نسكن فيه له حديقة جميلة، وسور يطوقها. بها أشجار نخيل وبرتقال، بل رمان أيضا، وقنوات ماء، وبركة، وأعشاب زكية».

فقالت ميمونة بصوت يزداد حدّة: «أها، لكنّنا لا نستطيع أن ننافس هؤلاء التجّار، هؤلاء الأسياد. فلسنا سوى أصحاب دكان فقراء. أنتَ محظوظ، أمّا نحن فهذه هي الحياة التي اختارها لنا الله. نعيش هنا كالحيوانات بأمره. هو الذي أعطاك حديقة من حدائق الجنّة، وهو الذي أعطانا الشجيرات والأحراش المليئة بالأفاعي والحيوانات المتوحشة. فماذا تريد منّا أن نفعل الآن؟ نكفر بالله؟ نقول إنّهُ ظلمنا؟»

فقال حامد مبتسما، يحاول أن يلطّف الأجواء: «لعلّه مشتاق إلى بلده». أمّا ميمونة فلم تهدأ، وظلّت تتمتم وهي تستشيط غضبا، كأنّها لم تقل كلّ ما في داخلها.

ثمّ قالت: «هناك ثمن لكلّ شيء. وأرجو أن يتعلّم هذا بسرعة».

لم يكن يوسف يقصد المقارنة، لكنّه لزم الصمت. ففي حديقتهم كان الظلّ والأزهار التي يزرعها مزي حمداني، والبرك والشجيرات المثمرة، أمّا هنا فلا شيء سوى أجمة خلف فنائهم الخلفي، تُستخدم للقمامة. كانت تختلج بحياة سرّية، وتخرج منها روائح العفونة والأوبئة. كانا قد حدّراه في يومه الأوّل منها بسبب الأفاعي، فشرع بأنّ إنذارهما ضرب من النبوءة. انتظرا منه الآن أن يقول شيئاً، لكنّه لم يجد شيئاً يقوله، وظلّ صامتاً أمامهما، في سوء أدب.

ثمّ قال أخيراً: «كنت أعمل في الحديقة وقت العصر».

فضحكا، ومدّت ميمونة يدها تلمس وجهه. «من ذا الذي يستطيع أن ينزعج من ولد وسيم مثلك؟» ثمّ قالت وهي تنظر نظرة خاطفة إلى زوجها: «ما رأيك أن أتخلّص من زوجي البدين وأتزوجك؟ ولكن قبل ذلك ربّما تبني لنا حديقة. يمكننا أن نكلّفه بعمل حقيقيّ أثناء وجوده بيننا».

فقال يوسف: «هل تُزرع أشجار البرتقال هنا؟». ظلّاه يقولها ساخراً، فضحكا مرّة أخرى.

قالت ميمونة بالنبرة المازحة نفسها: «يمكنك أن تبني لنا نوافير وقصوراً صيفيّة. وستكون الحديقة مليئة بالطيور من كلّ الأنواع. طيور مغرّدة، وليست كهذه الحمامات المدممة التي يهواها حامد. أرجو كذلك أن تعلّق مرايا على الأشجار كما في الحدائق العتيقة، كي تعكس الضوء فيُغشى على الطيور حين تنظر إلى صورها الجميلة في المرايا. اصنع لنا حديقة كهذه».

فقال حامد مصفّقاً لزوجته: «إنها شاعرة. وكلّ نساء عائلتها شاعرات. أمّا الرجال فهم إمّا عاطلون أو تجّار بلا ذمة».

فقلت وهي تبسم وتشير إلى زوجها: «سامحك الله على هذه الأكاذيب. لكن كما ترى هو الذي يجيد الحكايات. انتظر واسمع. سوف تنسى الأكل والنوم إلى أن ينتهي من الحكاية. انتظر رمضان، وسوف يبقيك مستيقظًا طوال الليل. حامد هو المزاح، دون شك».

في اليوم التالي انطلق حامد بمنجل إلى أطراف الشجيرات، يهوي به بقوة على الأغصان التي تصل إليها يده. صاح ليوسف أن يأتي ويجمع ما تساقط من الأغصان ويراكمها لهم كي يحرقوها. ثم قال في مرح: «أنت الذي تريد حديقة. حسنٌ، ها أنا أخلي المكان لك كي تزرع لنا حديقة. أرنا همّتك يا ولد. سنقطع هذه الشجيرات كلها إلى شجرة الشوك هناك». في بادئ الأمر كانت ضرباته مصحوبة بصيحات متعطّشة للدماء، وأغنيات غليظة الصوت. قال إنه يفعل ذلك لإخافة الأفاعي. ولكن ما لبثت نشوته أن انحسرت، وصار يتوقّف بين الضربات في انزعاج من تهليل ميمونة وسخريتها. قال: لو أننا تركنا كلّ شيء للنساء، فأين سيّنتهي بنا المطاف في رأيك؟ أعتقد أننا كنا سنظّل نسكن الكهوف. تفصّد العرق وسال على وجهه. وبعد ساعة أو نحو ذلك تحوّلت صيحات الحرب التي يطلقها إلى نخرات وهو يضرب في وهن تلك الشجيرات المرتعشة. كان كثيرًا ما يتوقّف، يلتقط أنفاسه، ويوجّه يوسف إلى ترتيب الأغصان الساقطة. كان يفعل من خراقة يوسف، واشتعل فيه غضبًا حين جفّل يوسف من طعنة برعمٍ حادّ في راحة يده. وأخيرًا، ألقي بالمنجل على الأرض في عويل يائس، وانطلق عائداً إلى البيت. قال وهو يمرّ بزوجته: «لن أقتل نفسي على تلك الغابة. وكان بإمكانك أن تحضري إبريق ماء على الأقل».

فقلت ساخرة وهي تبتسم وتصفق. «ليست غابة، بل بضع شجيرات أيها الشيخ الضعيف. لقد انتهى أمرك يا حامد سليمان. لحسن الحظ أنني وجدت لنفسى زوجاً جديداً».

فصاح من الداخل: «ستعرفين من أنا لاحقاً».

وهللت ميمونة ساخرة: «لا تُخف الأطفال، أيها الشاب». ثم قالت ليوسف وهو يحمل المنجل: «وأنت. اترك ذلك السلاح. لا نريد أن نحتمل وزر دمك. لدينا من المشكلات ما يكفيننا، ولا ينقصنا أن ينقض علينا أقرباؤك. عليك أن تعتاد هذه الشجيرات والأفاعي، واستبق حديقتك في أحلامك، إلى أن يعود عمك. خذ شربة ماء لعمك».

5

كان يوسف مكلّفاً بخدمة الزوجين معاً. فكلّما احتاج واحد منهما إليه صاح يناديه، وإن أبطأ في المجيء تلقّياه بالنظرات الحادة والكلمات الغاضبة. أحضر ماء من البئر. قطع حطباً. اكسّ الفناء. وحين لا تكون هناك حاجة لوجوده في الدكان، يذهب إلى السوق كي يشتري الخضروات واللحم. وعندها يتمهل يوسف، يتلکأ في الساحات ناظراً إلى الرعاة والمزارعين العابرين. كانت الأبقار تترك خلفها قطعاً هائلة من الروث وهي تتمايل في تأفف. تهز أذيالها المبللة بين الفينة والأخرى، فتلقي في الهواء رذاذاً من روثها. يهسهس الرعاة لها ويقرقرون، أو يهمزونها بأطراف عصيهم كي تمشي في طريق مستقيم. وكثيراً ما كان يوسف يرى المحاربين المصطبغين بالأحمر يمشون هناك، يلفتون أنظار الجميع أينما حلّوا. وفي بعض الأحيان كان

يُكَلِّفُ بِإِصْصَالِ أَغْرَاضٍ إِلَى بِيوتِ التِّجَارِ الهِنودِ وَالْيُونَانِيِّينَ، فَيَحْمِلُ سِلَاحًا مَعْلُوقَةً بَعْضًا طَوِيلَةً عَلَى كَتْفَيْهِ، وَيَحَاطِلُ أَلَّا يَتَذَكَّرَ بَائِعِ الْخَضَارِ الْبَائِسِ الَّذِي كَانَ يَأْتِي إِلَى مَنْزِلِ الْعَمِّ عَزِيزٍ. يَأْتِي الْمَزَارِعُونَ الْأُورُوبِيِّونَ إِلَى الْبَلَدَةِ فِي شَاحَنَاتِهِمْ وَعَرَبَاتِهِمْ الَّتِي تَجْرُهَا الشِّيرَانُ، كَيْ يَتَزَوَّدُوا بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَنْجِزُوا مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَعْمَالٍ غَامِضَةٍ. لَمْ يَكُونُوا يَنْظُرُونَ إِلَى أَحَدٍ، بَلْ يَسِيرُونَ فِي طَرِيقِهِمْ وَفِي أَعْيُنِهِمْ نَظَرَةُ اشْمِئزَازٍ. وَحِينَ يَعُودُونَ إِلَى الْبَيْتِ قَدْ يَبِيعُهُ الزَّوْجَانِ لِشِرَاءِ شَيْءٍ، أَوْ يَطْلُبَانِ مِنْهُ أَخْذَ أَحَدِ أَطْفَالِهِمْ إِلَى الْحَمَّامِ. كَانَ لَدَيْهِمْ ثَلَاثَةُ أَطْفَالٍ، أَكْبَرُهُمْ صَبِيَّةٌ فِي مَطْلَعِ شَبَابِهَا، وَكَانَ مِنَ الْمَتَوَقَّعِ مِنْهَا أَنْ تَهْتَمَّ بِشَقِيْقِيَّهَا. غَيْرَ أَنَّهَا كَانَتْ مَنشَغَلَةً جَدًّا بِشُؤْنِهَا الْخَاصَّةِ، تَجْرِي فِي الْبَيْتِ وَالْفَنَاءِ، تَصْفُقُ الْأَبْوَابَ وَتَبْتَسِمُ. لِذَلِكَ كَانَ يُطْلَبُ إِلَى يُوسُفَ أحيانًا أَنْ يَرعى الطِّفْلَيْنِ الْآخَرَيْنِ، وَقَدْ كَانَا نَشِيطَيْنِ مُزْعَجَيْنِ، لَا يَنْفَعُ مَعَهُمَا إِلَّا الزُّجْرُ. حِينَ يَكُونُ مَعَهُمَا يَتَذَكَّرُ كَيْفَ كَانَ خَلِيلَ يَعَامِلُهُ، فَيَحَاطِلُ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ، فَيَنْجَحُ مَرَّةً وَيَخْفَقُ مَرَّاتٍ.

حَكَى يُوسُفَ لِحَامِدٍ عَنْ خَلِيلٍ وَمَا كَانَا يَفْعَلَانِهِ فِي الدِّكَانِ (فَقَدْ كَانَا فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ هُمَا مِنْ يَدِيرِ الدِّكَانِ)، عَلَى أَمَلٍ أَنْ يَكْلَفَهُ حَامِدٌ بِعَمَلٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَشَاوِيرِ وَالْجَرِيِّ بَيْنِ الدِّكَانِ وَالْمَحَالِّ الْآخَرَى، فَمَا كَانَ مِنْ حَامِدٍ إِلَّا أَنْ ابْتَسَمَ. قَالَ إِنَّ أَعْمَالَ الدِّكَانِ قَلِيلَةٌ، وَلَوْلَا الْمَسَافِرِينَ وَتِجَارَةُ الدَّخْلِ لَمَا بَقِيَ لَهُمْ شَيْءٌ يَفْعَلُونَهُ. «أَلَيْسَ لَدَيْكَ مَا يَكْفِي مِنْ الْعَمَلِ؟ فَلِمَاذَا تَرِيدُ الْمَزِيدَ؟ حَدَّثْنِي عَنِ التَّاجِرِ، عَمَّاكَ عَزِيزٍ. أَكَانَ خَيْرَ سَيِّدٍ لَكَ؟ إِنَّهُ ثَرِيٌّ جَدًّا، وَهُوَ مِنْ خَيْرَةِ النَّاسِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ اسْمِ عَلَى مَسْمَى. لَدَيَّ حِكَايَاتٌ عَنْهُ، حِكَايَاتٌ مَدْهُشَةٌ. يَنْبَغِي لِي أَنْ أَزُورَ بَيْتَهُ ذَاتَ يَوْمٍ. أَتَخَيَّلُهُ قَصِيرًا... وَمِمَّا حَكِيَّتُهُ لَنَا عَنِ الْحَدِيقَةِ يَبْدُو لِي أَنَّهُ

قصر دون شك. هل يقيم ولائم واحتفالات؟ لا بدّ من أنّك وخليلاً
كنتما مدللّين كالأمراء الشباب».

كانت هناك ثلاثة مخازن في البيت، واحد منها مغلق ولا يُطلب إلى
يوسف أن يدخله أبداً. في بعض الأحيان كان يوسف يتلصّكاً عند الباب،
فيُخيل إليه أنه يشمّ رائحة حيوان ذي جلدٍ وحافر. ماغندو. مال وفير،
كما يتذكّر. كان حامد قد ذكر سائق الشاحنة ذا اللسان الفاحش، وقال
عنه إنّّه كائن خارج من مبولة، فاستنتج يوسف أنّ ذلك المخزن يحتوي
بضاعة سرّية لا يمكن نقلها في القطار معهم. كانت المخازن خلف
البيت، ضمن الفناء الخلفيّ المسوّر. في الجهة المقابلة من الفناء
تقع البيوت الخارجيّة والمطبخ ودورة المياه. كانت غرفته أيضاً في
طرف ذلك البيت، وذات ليلة سمع يوسف صوت حامد في المخزن
المحظور. ظنّ في أوّل الأمر أنّه لصّ أو غير ذلك، ثمّ سمع صوت
حامد. همّ يوسف بالخروج كي يلقي نظرة، وقد فتح باب غرفته دون
إصدار صوت. كان ذلك في وقت مظلم. وفيما هو واقف عند بابه
المفتوح، رأى ضوء مصباح تحت الباب. ثمّ تناهت إلى سمعه تمتمة
حامد، فتوقّف في مكانه. كان صوته يعلو ويهبط في شكوى قلقة
وتوسّل. ثمّة شيء غريب في ذلك الصوت الشاكي، في ذلك البيت
الصامت. شيء مخيف، مُفجع. قال في نفسه ليتني ظللت في مكاني
ولم أسمع شيئاً. وحين توقّف حامد كي ينصت أيضاً، أغلق يوسف
باب غرفته بهدوء، وعاد يستلقي في مكانه. في الصباح التالي لم يقل
أحد منهما شيئاً، رغم أنّ يوسف لاحظ عدّة نظرات من طرف عينه.

مرّ تجّار كثر على البلدة، وسواء أكانوا من أهل الساحل أم عرباً
أم صوماليّين، فقد كانوا يرتاحون عند بيت حامد يوماً أو يومين ريثما

يتولّون أمورهم. ينامون تحت أشجار الخبز ويأكلون من طعام البيت، في مقابل بعض الهدايا والمجاملات الصغيرة. وفي بعض الأحيان كانوا يتاجرون بشيء من بضائعهم قبل أن يكملوا طريقهم. يأتي المسافرون محمّلين بالأخبار وحكايات عجيبة عن الجرأة والإقدام في رحلاتهم، فتأتيهم قلة من الناس من أهل البلدة تستمع إليهم، من بينهم ميكانيكي هندي من أصدقاء حامد. كان هذا دائماً ما يعتمر عمامة زرقاء شاحبة، ويأتي في شاحنة صاخبة تثير دعر التجار في بعض الأحيان. كان نادراً ما يتحدث، لكن يوسف رآه يضحك أحياناً في وقت لا يناسبه الضحك، فيشير بذلك نظرات الحيرة والاستياء بين الآخرين. وفي آخر الليل يجلسون في المساحة المفتوحة أمام المنزل، يرتعشون شيئاً قليلاً من برد الجبل، ومصائبهم تحترق من حولهم، فيتحدّثون عن ليالي طوّقت فيها الحيوانات والرجال مخيماتهم. فلو أنّهم كانوا غير مسلّحين، أو جُبّئوا، أو لم يحفّهم الله برحمته، لما ظلّ منهم سوى عظام على نيكا⁽⁷⁾ مغبرة في مكان ما، بعد أن تلتهمهم النسر والديدان.

كلّما ذهبوا إلى مكان وجدوا الأوروبيين قد سبقوهم إليه، ووضعوا جنودهم ومسؤوليهم يخبرون الناس أنّهم جاؤوا لإنقاذهم من أعدائهم الذين لا يريدون إلاّ استعبادهم. وكأنّه لا توجد تجارة أخرى في البلاد سوى تلك التجارة. كان التجار يتحدّثون عن الأوروبيين في دهشة، فزعين من شرّاستهم وقسوتهم. كان هؤلاء يستولون على أفضل الأراضي دون أن يدفعوا خريزة واحدة، ثمّ يحتالون على الناس للعمل عندهم، ويأكلون كلّ شيء مهما كان صلباً أو تالفاً. فلا حدود لشهيتهم

(7) النيكا (nyika): كلمة سواحلية تعني الأجمة أو المنطقة الخلفية في بلدة ما. (المترجم)

أو ذوق، شأنهم شأن أسراب الجراد. يفرضون ضريبة على هذا وذاك، ويحكمون على المذنبين بالسجن أو الجلد، أو حتى الإعدام شنقًا. فأول ما بينونه السجن، ثم الكنيسة، ثم السوق المسقوفة كي يراقبوا كل التعاملات التجارية ويفرضوا الضرائب. يفعلون هذا كله قبل حتى أن يبنوا لهم بيتًا يسكنون فيه. فهل سمع أحد بذلك من قبل؟ يرتدون ملابس مصنوعة من المعدن، لكنّه لا يخدش جلدهم، ويمكنهم أن يقضوا أيّامًا من دون نوم أو ماء. بصقتهم مسمومة. والله. فإن أصابك رذاذها أحرقت جلدك. وما من سبيل إلى قتل واحد منهم إلّا بطعنه تحت إبطه الأيسر، غير أنّ هذا يكاد يكون مستحيلًا بسبب دروعهم الثقيلة.

وأقسم تاجر أنّه رأى أوروبيًا يسقط صريعًا ذات مرّة، فأتى إليه رفيقه وأحياه. كان قد رأى الأفاعي تفعل ذلك أيضًا، والأفاعي تبصق السمّ. فما دامت جثة الأوروبي سليمة لم تتلف أو تتعفن، يمكن لأوروبي آخر أن يحييه. وقال إنّ حتّى إن رأى أوروبيًا ميتًا، فلن يقترب أو يأخذ شيئًا منه، مخافة أن يعود إلى الحياة ويلاحقه.

فقال حامد ضاحكًا: «لا تكفر. الله وحده يحيي ويميت».

فقال التاجر وهو ينظر حوله في الوجوه الضاحكة: «رأيت ذلك بأمّ عيني. فليأخذ الله بصري إن كنت أكذب. أوروبيّ ميت على الأرض وآخر إلى جانبه، نفخ هذا في فمه، فانتفض الميت ونهض».

فقال حامد: «إن كان بإمكانه أن يهب الحياة، فهو الله إذن».

قال التاجر وهو يرتجف غضبًا: «أستغفر الله. لماذا تقول ذلك؟ لم أقصد شيئًا كهذا».

وبعد أن ذهب التاجر ليوصل رحلته قال حامد: «ذاك رجل جاهل. في بلدته يؤمنون بالخرافات. وذلك في بعض الأحيان من أثر التدين الزائد عن الحدّ. فما الذي كان يقصده إذن؟ أنّ الأوروبيين ثعابين متنكرة في هيئة بشر؟»

كان بعض المسافرين قد التقوا بقافلة العمّ عزيز. وآخر أخبره أنّه كان على الجانب الآخر من البحيرات خلف مرتفعات «مارونغو»، في الروافد العليا للأنهار الغربية الكبرى. كان هناك يتاجر مع أهل «مانيسما» ويحقّق أرباحاً جيّدة. كانت بلاداً خطيرة، لكنّ التجارة فيها قائمة. فيها المطّاط والعاج، وقليل من الذهب أيضاً إن شاء الله. وقد أرسل العمّ عزيز رسائل يطلب فيها تسديد مستحقّات التجّار الذين اشتري منهم بضائع، بل إنّ شحنة من المطّاط وصلت مع تاجر في رحلة عودته. كانت هناك رسائل كثيرة منه تبشّر بالخير، ما دفع حامد إلى إكرام المسافرين الذين نقلوا إليه تلك الأخبار.

6

في شهر شعبان، قبل وصول شهر رمضان بما يفرضه من جوع وتعبّد، قرّر حامد أن يزور القرى والمستوطنات في المنحدرات الجبلية. كانت هذه نزهة سنوية يتطلّع إليها، لكنّه أقنع نفسه بأنّها لغرض التجارة أيضاً. بما أنّ الزبائن لم يأتوا إليه، سيذهب هو إليهم. هكذا دعا يوسف إلى مرافقته، واستأجرا سيارة من الميكانيكيّ السيخي الذي زارهم لسماع حكايات المسافرين. كان اسمه هاربنز سنغ، لكنّ الجميع يسمّونه كالاسنغا. ومن الجيّد أنّه يقود الشاحنة بنفسه، إذ كثيراً

ما تتعطلّ، وتثَقَّب عجلاتها مرّة كلّ بضعة كيلومترات. لم تكن تُفزعها تلك المشكلات، وكان يلقي باللائمة على الطريق الوعر والمنحدر الحادّ. كان يعالج شاحنته في مرج، ويردّ على سخرية حامد ردوداً دمثة، ويحتفظ بردود أخرى في جعبته. كان كلّ منهما يعرف الآخر جيّداً، ويوسف كذلك قد أوصل طلبات إلى منزل كالاسنغا عدّة مرّات. هكذا كان حامد وكالاسنغا يغيظُ أحدهما الآخر، يستمتعان بتلك المماحكات. كان كلاهما قصيراً ممتلئ الجسم، بل يبدوان متشابهين في بعض الصفات. غير أنّ حامداً كان يتحدّث مبتسماً، في حين لا يتغيّر شيء من تعابير كالاسنغا حتّى في أصعب الظروف.

قال حامد وهو مرتاح على صخرة بينما يعالج كالاسنغا محرك سيارته المعتلّ: «لو لم تكن بخيلاً لاشرتيتَ شاحنة جديدة وأرحتَ زبائنك من هذا العناء. ماذا تفعل بكلّ النقود التي تسرقها منّا إذن؟ ترسلها إلى بومباي؟»

«يا أخي كفّ عن المزاح الثقيل. أتريد أن يهجم عليّ شخص ويقتلني؟ أيّ مال؟ كما أنّني لست من بومباي، وأنت تعرف ذلك. تلك بلاد البانيان الخراء. الحثالة الغجراتيّون هؤلاء هم أصحاب الأموال، وإخوتهم أولئك البهرة المكيّ-يكيّ مصاصو الدماء⁽⁸⁾. أتعرف كيف يجمعون تلك الأموال؟ بالغشّ وإقراض الناس. يقرضون التاجر المعسر بفوائد مركّبة، ويحجزون على أملاكه لأبسط سبب. هذا هو تخصّصهم. حثالة! لذلك أرجوك احترمني ولا تخلط بيني وبين تلك الحشرات».

(8) البهرة (bohra): طائفة إسماعيلية عُرفت بالتجارة. والمكيّ-يكيّ لفظة هندية يبدو أنّها تحقيرية. (المترجم)

فقال حامد: «أولستم كلكم من طينة واحدة؟ كلكم هنود، البانيان والغشاشون والكذابون».

ظهر الحزن على وجه كالاسنغا وقال: «لولا أنك أخي منذ سنوات طويلة لأوسعتك ضربًا. أعرف أنك تغايظني، ولذلك سأسيطر على غضبي. لن أدعك تستمتع برؤيتي وأنا أسوء الأدب. ولكن أرجوك لا تحمّلني فوق طاقتي يا صديقي. من الصعب جدًّا على السنغ أن يحتملوا الإهانات في صمت».

«ومن طلب منك أن تصمت؟ يُقال إنّ للكالاسنغيين شعر طويل ينبت من مؤخراتهم. وسمعت أنّ واحدًا منهم انتزع شعرة وربط بها شخصًا كان يزعجه».

فقال كالاسنغا بنبرة حزينة: «يا صديقي، إنني رجل حليم. لكنني أحذرك، فما إن يُثار غضبي حتّى لا يخمد شيء سوى الدم». ثمّ نظر إلى يوسف وهزّ رأسه من جانب إلى آخر يستعطفه. «هل سمعتَ عني حين أستميت غضبًا؟ أصبح مثل أسد يزأر».

فضحك حامد وقال: «لا تفزع الصبيّ أيّها الكافر المُشعر. لستم سوى كذّبة أيّها البانيان. أسد يزأر! حسنٌ، حسنٌ، دع المفكّ. لا أريد أن يتيّم أطفال من أجل نكتة. ولكن قل لي، بحقّ صداقتنا القديمة. لا توجد أسرار بيننا. ماذا تفعل بكلّ الأموال التي تكسبها؟ تصرفها على امرأة، أليس كذلك؟ فأنّت لا تنفق على أيّ شيء. لا شيء في بيتك سوى مجموعة من السيّارات المعطّلة. وليس لديك أحد ترعاه. كلّ شيء لديك يبدو في فقر مدقع. وأنّت لا تشرب شيئًا سوى ذلك

الپومبي⁽⁹⁾ الرخيص أو السمّ الذي تصنعه في ورشتك. ولا تقامر. فلا بدّ من أن تكون امرأة إذن».

«امرأة! ليس لديّ امرأة».

فانفجر حامد ضاحكًا. كانت هناك روايات عن مآثر كالاسنغا مع النساء، انطلقت كلّها من كالاسنغا نفسه، ثمّ أضاف إليها الآخرون شيئًا من الزخرفة. ودائمًا ما يكون كالاسنغا في هذه القصص بطيئًا في انتصابه، فتصرف المرأة انتباهها عنه. لكنّه حين ينتصب لا ينزل من فوقها.

صاح كالاسنغا وهو يضرب غطاء المحرك: «لعلمك أيّها الحمار، فأنا أرسل شيئًا إلى إختوتي في البنجاب. لأساعدهم في رعاية أرض العائلة. هذا كلّ ما تريد الحديث عنه. ماذا تفعل بأموالك؟ أيّ أموال؟ هذا شأنني!» فضحك حامد ملء شدقيّه، وكان على وشك أن يعود من جديد، لكنّ كالاسنغا اندفع إلى داخل الشاحنة وشغلّ المحرك.

توقفوا قبيل المساء قرب مستوطنة صغيرة على سفوح الجبل العليا، فسوف يتاجرون هناك في اليوم التالي قبل أن يواصلوا رحلتهم. أوقف كالاسنغا شاحنته تحت تينة، عند ضفّة نبع جبليّ نازل. كانت العشب المورق على الضفاف يصل إلى الركب. نزع يوسف ملابسه وقفز في النهر، فصرخ من شدة برودته، لكنّه احتمل عدّة دقائق، وما لبث أن تخدّر جسمه كلّّه. قال له كالاسنغا إنّ النبع يرفده الثلج الذائب من قمة الجبل. كانت الأرض وافرة بالأشجار والأعشاب، وبينما كانوا يخيمون هناك عند الغسق، امتلأ الجوّ بتغريد العصافير وخرير الماء.

(9) پومبي (pombe): بيرة تُصنع محليًا في إفريقيا من الذرة البيضاء. (المترجم)

سار يوسف قليلاً على ضفة النهر، يدوس على الصخور الضخمة التي تتناثر فيه. ثم رأى على الضفة الأخرى في الأرض المفتوحة أجسام كثيفة من أشجار الموز. وسرعان ما وصل إلى شلال، فتوقّف عنده ينظر. ثمّة جوّ من السريّة والسحر في المكان، لكنّ روحه كانت لطيفة مهادنة. كانت هناك أشجار سرخس وخيزران عملاقة تنحني إلى الماء، ورأى من وراء الشلال صخرة تُشير عتمتها إلى وجود كهف، لعله مخبأ الكنوز والأمراء الهاربين من غاصبين طغاة. تحسّس يوسف ملابسه فوجدها مبتلة حتى ملابسه الداخلية، لكنّه كان سعيداً بالوقوف عند رذاذ الشلال الذي شعر به وكأنّه يطوّقه. كان واثقاً من أنّه إن أنصت جيّداً فسوف يسمع همهمة ترتفع وتنخفض خلف هدير الشلال، صوتَ إله النهر وهو يتنقّس. وقف هنالك طويلاً في صمت، وفي نهاية المطاف رأى حامداً يلوح له من بعيد مع انحسار الضوء وعبور أطياف الخفافيش وطيور الليل فوق السماء الصافية.

أسرع يوسف نحوه، يقفز فوق الصخور ويرشّ الماء على طول النبع كي يخبره عن جمال الشلال. فلماً وصل إلى حامد انقطعت أنفاسه، ولم يكن في استطاعه إلّا أن يقف لاهثاً يضحك على نفسه.

قال حامد ضاحكاً وهو يضرب يوسف على ظهره: «ملابسك كلّها مبتلة. تعال كي تأكل وترتاح قبل أن يشتدّ الظلام. الجوّ هنا بارد جداً في الليل».

فقال يوسف وهو يلتقط أنفاسه: «الشلال! ما أجمله!».

«أعرف».

فجأة ظهر أمامهما من الظلام الدامس رجل يرتدي قميصاً مضلعاً بلون أزرق داكن، مع حشوة جلديّة في الكتفين، وسروال خاكيّ

قصير، وهو زيّ الموظّفين الأوروبيّين. فلمّا اقتربا منه أخرج هراوته من خلف ساقه، كي يعرفا أنّه مسلّح. وحين اقتربا أكثر رأى يوسف ندبتين قطريّتين رفيعتين على كلّ جانب من وجهه، من أسفل العين إلى طرف الفم. ملابسه رثّة حين تراها من قرب، ورائحته رائحة دخان وروث. أمّا عيناه فتلقيان ضوءاً صارخاً، مروّعاً.

رفع حامد يده بالتحية وقال: «السلام عليكم». فنخر الرجل ورفع هراوته. «ماذا تريدان؟ ابتعدا من هنا!»

فقال حامد وقد بدا ليوسف أنّه كان خائفاً: «لقد أوقفنا سيّارتنا هناك. لا توجد مشكلة يا أخي. كلّ ما في الأمر أنّ الصبيّ ذهب لرؤية الشلال، وسنعود الآن إلى حيث سيّارتنا».

فقال الرجل بحزم وهو ينظر إليهم شزراً: «ولماذا جئتما؟ بؤانا لا يروقه مجيئكما إلى هنا. لا لتخيّما، ولا لتنظرا إلى الشلال. لا يروقه مجيئكما إلى هنا».

سأله حامد: «بؤانا؟»

أشار الرجل بهراوته إلى المكان الذي جاء منه يوسف، فرأيا شكل مبنى خفيض، وفجأة اشتعل الضوء في إحدى النوافذ. ثبت الرجل عينيّه الغاضبتين عليهما، منتظراً أن يرحلا. فخيّل إلى يوسف أنّه رأى شيئاً مأساوياً في تلكما العينين، وكأنّهما فقدتا البصر.

فقال حامد معترضاً: «لكنّا توقّفنا هناك بعيداً. لن نتنفّس حتّى الهواء نفسه».

فكرّر الرجل بحدّة: «بؤانا لا يحبّكما. ارحلا!».

قال حامد لاجئًا إلى أسلوب التاجر المتمرس: «اسمع يا صديقي. لن نسبب أيّ مشكلة لبواناك. تعال واشرب معنا كوب شاي، وانظر بنفسك».

فجأة أطلق الرجل سيل كلمات غاضبة بلغة لم يفهمها يوسف، ثم استدار وسار في الظلام. راقباه لحظة، ثم هزّ حامد كتفيه وقال هيّا. يبدو أنّ بواناه يعتقد أنّه يملك العالم بأكمله. فلمّا عادا إلى السيّارة وجدا أنّ كالاسنغا قد طبخ أرزًا وغلا علبه شاي. فتح حامد علبه تمر ووزّع على رفيقيه شرائح السمك المجفف التي لوّحوها على جمر النار المحتضّر. وأخبرا كالاسنغا عن الرجل صاحب الهراوة.

فقال كالاسنغا وهو يضطرّ دون أيّ إحساس بالحرج: «يعيش مزونغو هناك. أوروبيّ من الجنوب، يعمل لدى الحكومة. أنا أصلحت له المولّد الكهربائيّ. آلة ابنة حرام مزعجة وكبيرة، وقديمة جدًا. قلت له أستطيع أن أجلب لك مولّدًا أجدد، فلم يعجبه ما قلت. احمرّ وجهه وأخذ يصرخ ويقول إنّني أطلب رشوة. عمولة صغيرة ربّما... فما المشكلة؟ هذا هو العرف السائد. لكنّه قال لي أيّها الحمّال القذر. أيّها الحمّال القذر، يا لصّ يا ابن الحرام. ثمّ جاءت كلابه. هو هو! كلاب كثيرة، من النوع الكبير المشعر ذي الأسنان الكبيرة».

فقال حامد في هدوء: «كلاب»، وأدرك يوسف ما يعنيه تمامًا.

قال كالاسنغا وهو يقف ويفتح ذراعَيْه ويجأر: «نعم، كلاب كبيرة! بعيون صُفر وشعر فضيّ. مدرّبة على اصطیاد المسلمين. فلو كنت تفهم نباحهم لعرفت أنّهم يقولون: أحبّ لحم أصحاب الله. أعطوني لحم المسلم».

فَرِحَ كالاسنغا بنكته، فأخذ يضحك ويضرب فخذَه. فأخذ حامد ينعته بالكافر المجنون، واللصّ ابن الحرام، والكافر المشعر، لكنّ كالاسنغا لم يسكت. ظلّ ينبع ويجأر بين الفينة والأخرى، ثمّ يضحك وكأنّه لم يسمع شيئاً أشدّ إضحاكاً من هذا.

«كفّ عتاً إزعاجك أيّها الحمّال القدر. ستتحسنا، وتأتينا كلاب الأوروبيّ... حتّى ذات القدمين منها». ثمّ قال بانزعاج حين استمرّ كالاسنغا في مزاحه: «كفى أيّها البانياني المشعر!»

فقال كالاسنغا وهو ينظر حوله بحثاً عن سلاح أو عصا، وقد أغرته علبة الشاي التي تغلي: «بانياني! حدّرتك من وصفي بهذه الكلمة. هل هي مشكلتي أنكم أنتم المسلمون ترتعبون من الكلاب؟ هل يبرّر لك ذلك أن تسيء إلى أصلي؟ فكلّ مرّة تتلفّظ بها بتلك الكلمة تهين عائلتي بأكملها. هذه آخر مرّة لك».

وبعد أن هدؤوا جميعاً، استعدّوا للنوم. فرّش كالاسنغا حصيرته عند الشاحنة واستلقى حامد بالقرب منه. أمّا يوسف فقد استلقى في مكان يستطيع منه رؤية السماء، على بعد بضعة أقدام منهما، كي يبتعد عن ريح كالاسنغا، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يسمع كلامهما. هكذا ارتاحوا بتنهدات متعبة وأثاث ارتياح، وبدأ يوسف يغفو في ذلك الصمت اللطيف.

قال حامد بصوت خفيض في هدأة الليل إلّا من صوت الماء: «أليس جميلاً أن نتصوّر الجنّة مثل هذا المكان؟ شلّالات أجمل من أيّ شيء يخطر في خيالنا. بل أجمل حتّى من هذا، إن كنتَ تستطيع تخيّل ذلك يا يوسف. ألا تعلم أنّ هذا هو مصدر مياه الدنيا كلّها؟

أنهار الجنة الأربعة. تجري في اتجاهات مختلفة، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فتقسم الجنة الله إلى أرباع. ماء في كل مكان. تحت السرادق، وعند البساتين، تجري في الشرفات، وعلى طول الممرات في الغابات».

فسأله كالاسنغا: «وأيّن تقع هذه الجنة؟ في الهند؟ لقد رأيت حدائق عديدة ذات شلالات في الهند. أهذه جنتكم؟ هل يعيش الأغا خان هناك؟»

تجاهل حامد كالاسنغا وأدار وجهه كأنما يخاطب يوسف وحده بصوت يزداد خفوتاً: «لقد خلق الله سبع سماوات. الفردوس الأعلى في السماء السابعة، وهي مقسمة إلى سبعة مستويات أعلاها جنة عدن. لا يدخلها الكافر المشعر، حتى وإن كان يزأر كألف أسد».

«عندنا حدائق كهذه في الهند، بسبعة مستويات وثمانية وما إلى ذلك. بناها البرابرة المغول. كانوا يقيمون حفلات جنسية جماعية في الشرفات، ويحتفظون بالحيوانات في الحديقة كي يصطادوا كلما عن لهم ذلك. لا بدّ من أن تكون هذه هي الفردوس، وفردوسكم في الهند. الهند أرض عامرة بالروحانية».

«وهل تظنّ الله مجنوناً كي يقيم الفردوس في الهند!».

«لعلّه لم يجد مكاناً أفضل. سمعتُ أنّ الجنة الأصلية ما تزال موجودة، هنا على الأرض».

«كافر! تصدّق أيّ حكايات سخيفة».

«قرأت هذا في كتاب. كتاب روحانيّ. فهل تستطيع أنت القراءة يا صاحب الدكان، أيّها المسلم الذي تحبّ الكلاب لحمه؟»

فضحك حامد وقال: «سمعت أنّ الله حين أرسل الطوفان في زمن النبي نوح لم يصل الماء إلى الجنة، فظلت سليمة. ربّما ما تزال الجنة الأصلية موجودة، لكنّها محتجزة بمياه هادرة وبوابة من لهب».

قال كالاسنغا بعد صمت طويل: «تخيّل لو صحّ القول بأنّ الجنة على الأرض!». علّق حامد تعليقًا ساخرًا، لكنّ كالاسنغا لم ينتبه. فقد كانت المياه الهادرة وبوابة اللهب من التفاصيل التي لها شأنها. لقد نشأ كالاسنغا في أسرة سيخية متديّنة تفخر بوجود كتابات المعلّمين الكبار في ضريح العائلة. على أنّ والده كان رجلًا متسامحًا سمح بوجود تمثال برونز لغانيش [من آلهة الهندوس]، ولوحة صغيرة ليسوع المسيح المخلّص، ونسخة مصغّرة من القرآن في الجزء الخلفي من الضريح. لذلك كان كالاسنغا يدرك جيّدًا قوّة تلك التفاصيل مثل المياه الهادرة وبوابات اللهب.

فقال حامد في حزم: «سمعت بعض الناس يقولون إنّ الجنة موجودة على الأرض، لكنّي لا أصدّق ذلك. وحتىّ إنّ كانت موجودة، فلا يمكن لأحد أن يدخلها، لا سيّما البانيان».

7

بعد أربعة أيّام من السفر توقّفوا خلالها عند كلّ مستوطنة أو قرية واعدة بشيء من التجارة، وصلوا إلى «أولموروغ»، وهي المحطة الحكومية الواقعة في منتصف الجبل. ولم تكن الرحلة لتستغرق كلّ ذلك الوقت لولا تعطلّ الشاحنة مرّة تلو المرّة. ظلّ كالاسنغا يغترف الأعذار في المراحل الأخيرة من الرحلة، لكنّ حامدًا لفرط إرهاقه

لم يسخر منه. «هَيَّا، هَيَّا، كَفَّ عن الثروة، وأوصلنا إلى هناك». كانت أولموروغ وجهتهم النهائية، يعودون أدراجهم بعدها بيوم واحد، وقد كانت هذه المنطقة في ما مضى مستوطنة كبيرة يسكنها رعاة ماشية يصبغون أجسادهم وشعرهم بالمغرة. لذلك السبب أنشئت المحطة الزراعية فيها، إذ كان يُعتقد أنّ هذا النموذج سيُثني المحاربين الرّحل عن تعطّشهم للدماء ويحوّلهم إلى متّجعي ألبان. غير أنّ هذا لم يحدث، ربّما لأنّ المسؤول الذي جاء بتحويل من الحكومة لتغيير هذا المكان لم يستطع عليه صبراً. على أيّ حال، طاب للناس أن يتركوا تلك المحطة وشأنها، فنقلوا مستوطنتهم إلى مكان أبعد وظلّوا يتردّدون إلى أولموروغ للتجارة.

كان حامد في العادة يبيت عند رجل من زنجبار يُدعى حسينًا، ولديه دكان يعتاش منه. في داخل الدكان آلة خياطة يدوية يستنسخُ منها حسين أردية الشوكا والأزُر لزبائنه. وعلى طاولة عند الجدار أكياس سكر وعُلب شاي ومنتجات صغيرة أخرى للبيع. يسكن حسين لوحده في غرفة خلفية، لذلك فحين وصلوا جهّز لهم مكانًا في المخزن وكان يتطلّع إلى الدردشة معهم. هكذا كانوا يجلسون خارج الدكان مساءً، يستمعون إلى حسين وهو يتحدّث عن زنجبار. وبعد أن يقضي حاجته من الكلام، يشرعون في مناقشة أعمالهم، ويتأملون الضوء وهو يفرق في بطن الجبل.

بعد فترة قال حسين: «هل لاحظتم أنّ الضوء أخضر هنا؟ لا فائدة من سؤال كالاسنغا، فهو لا يلاحظ شيئًا إلّا إذا كان ملطّخًا بالزيت ويصدر صوتًا مزعجًا. ما آخر أخبارك يا صديقي؟ في آخر مرة جئنا قلت إنّك ستشتري حافلة وتفتح طريقًا إلى القرى الجبلية. ما الذي

حدث لتلك الفكرة الرائعة؟». هزّ كالاسنغا كتفيه دون أن يجيب، ودون حتى أن يلتفت إليه، وأخذ يشرب خمراً محلّية أحضرها معه. لم يكن يشرب كثيراً في حضرتهم، لكنّ يوسف رآه يزدرد جرعات سريعة من الزجاجاة الحجرية الكبيرة حين يظنّ أنّه بعيد عن الأنظار.

«ولكن أنت أيها الفتى، يوسف! هل لاحظت الضوء؟ ذات يوم ستُجنّ الفتيات بوسامتك. تعال معي إلى أونغوجا وسأزوّجك من ابنتي. هل لاحظت الضوء؟»

فقال يوسف: «نعم». كان قد رآه يتغيّر أثناء صعودهم في الجبل، وكان سعيداً بالحديث عن ذلك قدر سعادته بالحديث عن زنجبار. فحين كان يستمع إلى حديث حسين عن زنجبار قرّر فجأة أنّه سيذهب إلى هناك ذات يوم ليرى ذلك المكان المدهش بنفسه.

فقال حامد ضاحكاً: «سيقول نعم لأيّ شيء بعد أن وعدته بابنتك. لكنّ الأوان قد فاتك، فقد خطبناه لابنتنا الكبرى. ألم أخبرك بذلك يا حسين؟»

فقال حسين: «أنت مقرف. البنت ما تزال في العاشرة من عمرها».

قال حامد: «الحادية عشرة. وهو عمر جيّد للزواج».

كان يوسف يعلم أنّهما يغايطانه ليس إلّا، لكنّه لم يكن مرتاحاً. فقال: «لماذا لونه أخضر؟ الضوء أقصد».

فقال حسين: «بسبب الجبل. فحين تصل إلى البحيرات ستري أنّ العالم مطوّق بالجبال التي تضيئي مساحة خضراء على السماء. فتلك

الجبال على الجانب الآخر من البحيرة هي حافة العالم الذي نعرفه. أما ما بعد ذلك، فهو له لون الطاعون والأوبئة، ومخلوقات لا يعلمها إلا الله. نعرف الشرق والشمال، إلى حدّ أرض الصين في أقصى الشرق، وإلى سدّ يأجوج ومأجوج في الشمال. أما الغرب فهو أرض الظلام، أرض الجنّ والوحوش. لقد أرسل الله يوسف من قبل نبياً إلى أرض الجنّ والهمج. ولعلّه يرسلك أنت أيضاً إليهم».

سأله يوسف: «هل زرتَ البحيرات؟»

فقال حسين: «لا».

قال حامد: «لكنّه لم يدع مكاناً آخر لم يزره. هذا الرجل لا يحبّ البقاء في البيت».

فقال كالاسنغا: «أيّ يوسف؟». كان يقهقه ويبتسم ساخراً أثناء حديث حسين عن الضوء والبحيرات، صائحاً بأنّها حكايات خرافية، لكنّهم كانوا يعلمون أنّه لا يقاوم قصص الأنبياء والجنّ.

فقال حسين: «النبيّ يوسف الذي أنقذ مصر من المجاعة. ألا تعرف هذه القصة؟»

فسأل يوسف: «ما الذي يوجد وراء الظلام في الغرب؟»، فطقّ كالاسنغا بلسانه في انزعاج. كان يرجو الحديث عن قصّة المجاعة في مصر، وهي قصّة يعرفها بالطبع لكنّه يودّ سماعها مرّة أخرى.

قال حسين: «لا أحد يعرف حدود الفيافي والقفار، لكنّي سمعت أنّها تساوي مسير خمسمئة عام. ينبوع الحياة يوجد في تلك الفيافي، تحت أعين غيلان وثعابين يساوي حجمها حجم الجرّ».

فسأله كالاسنغا عائداً إلى سخريته المعهودة: «وهل الجحيم هناك أيضاً؟ وغرف التعذيب التي يتوعدكم بها إلهكم؟»
فقال حامد: «لعلكم، ذلك مثواك».

قال كالاسنغا فجأة: «سوف أترجم القرآن». وحين توقف الآخرون عن الضحك أضاف: «إلى السواحلية».

فقال حامد: «أنت لا تجيد حتى التحدث بالسواحلية، ناهيك عن أن تقرأ العربية».

فقال كالاسنغا بتجهّم: «سأترجمه من الترجمة الإنجليزية».

سأله حسين: «ولماذا تريد أن تترجمه؟ لا أظنّ أنّي سمعتك تقترح فكرة أتفه من هذه. ما الذي يدعوك إليها؟»

فقال كالاسنغا: «كي تسمعوا أنتم أهل البلاد هذا الإله المُجمع الذي تعبدونه. ستكون هذه معركتي التي أناضل من أجلها. هل تفهمون ما هو مكتوب في القرآن بالعربية؟ ربّما شيئاً قليلاً، لكنّ معظم أهل بلدك الحمقى لا يفهمون. وهذا ما يجعلكم حمقى جميعاً. لعلكم إن فهمتم القرآن ترون تعصّب الله الذي تعبدونه. عندها ستفعلون في حياتكم شيئاً أفضل من عبادته».

فقال حامد ممتعضاً: «والله لا أظنّ أنّه يجوز لشخص مثلك أن يتحدث عنه بهذه الطريقة التي لا تُغتفر. ربّما ينبغي لأحد أن يلقّن هذا الكلب المشعر درساً. ربّما في المرّة القادمة حين تنتصت على أحاديثنا في الدكان أخبر أهل البلد الحمقى بما قلته، وما هي إلا لحظات ويشعلون النار في مؤخرتك المشعرة».

فقال كالاسنغا حازماً: «مع ذلك، سأترجم القرآن. لأنّي أهتمّ بإخوتي البشر، حتى لو كانوا من الجهلة أصحاب الله. أهذا دين للكبار العاقلين؟ لعلّي لا أعرف ما هو الله، ولا أتذكر أسماءه الألف ووعوده المليون، لكنّي أعلم أنّه لا يمكن أن يكون هذا «البلطجي» الذي تعبدونه».

في تلك اللحظة جاءت امرأة إلى الدكان كي تشتري دقيقاً وملحاً. كانت تغطي وسطها بقطعة قماش، وترتدي قلادة كبيرة من الخرز حول رقبتها وفوق كتفها. مكشوفة الصدر والنهدين. لم تنتبه لكالاسنغا وهو يتلوّى قربها، يتأوّه لذّة، يتنهّد ويتمطّق في نهم. تحدّث حسين معها بلغتها، وكانت تردّ مبتسمة في إسهاب، تشرح أشياء وتحرك يديها، وتضحك. ضحك حسين معها، ضحكات كالشخرات المتفجرة. وبعد أن ذهبت، واصل كالاسنغا غزله الفاحش، متخيلاً أن يمتطيها ويمتطيها إلى أن يفرغ فيها. «يا لهذه النساء الهمجيّات. هل شممت رائحة الروث؟ هل رأيتم نديّهما؟ لقد أوجعاني من فرط امتلائهما».

فقال حسين: «إنّها تُرضع. كانت تتحدّث عن طفلها الجديد. تسخر من إلها المتعصّب، وحماقتنا لأننا نحتمل هذا الإله، ثمّ تصف الناس بأنهم همج».

تجاهل كالاسنغا ذلك التوبيخ، ثمّ بدأ (بتحريض من حامد) يروي قصصاً عن مغامراته الجنسيّة، مركزاً على الجانب الساخر منها. فحكى عن المرأة الجميلة التي وافقت (بعد حيّل كثيرة معقّدة) أن ترافقه إلى منزله، ثمّ اكتشف أنها رجل. وحكى عن العجوز التي راح يفاوضها، ظانّاً أنّها القوادة، فتبيّن أنّها هي العاهرة التي دفع ثمنها. وروى أيضاً عن علاقته بامرأة متزوجة، ثمّ كاد يفقد شيئاً مهماً من جسده حين سمع

صوت زوجها الديوث عند الباب. كان يمثل كل شيء في قصصه، يرقق صوته، ويرخي أطرافه. أما حين يتحدث عن نفسه يقف شعر لحيته، وتستوي عمامته فوق رأسه إذ يصبح «الجناب» الجامع الذي لا يفكر في شيء سوى البحث عن المتعة. في أثناء ذلك كان حامد يتلو من الضحك، يمسك بضلوعه لاهثاً حين تغلبه الضحكات. وتقصد كالاسنغا تعذيبه كلما استطاع، فكان يكرر المشاهد التي لم يستطع حامد مقاومة الضحك عليها. أما يوسف فكان يضحك على استحياء وهو يشعر بالذنب، فقد لاحظ أن حسيناً لم يكن يقرهما على البذاءة، لكن يوسف لم يحتمل رؤية حامد وهو يتلو ضحكاً.

لاحقاً، وبعد أن انتصف الليل، صارت أحاديثهم أخف وطأة وأكثر كآبة، تتخللها ثاؤبات تزداد طولاً وتكراراً.

قال حسين في هدوء: «أخشى من الزمن الذي ينتظرنا»، فتهّد حامد في تعب. «كل شيء في حالة اضطراب. وهؤلاء الأوروبيون عازمون على ما يخططون له، وسوف يسحقوننا جميعاً في اقتتالهم على ثروات الأرض. أحقق من يظن أن مجيئهم سيأتي بخير. هؤلاء لم يأتوا للتجارة، بل للأرض نفسها، وكل ما فيها... ونحن».

قال كالاسنغا: «إنهم يحكمون الهند منذ قرون. وهنا أنتم لستم متحضّرين، فكيف لهم أن يفعلوا الشيء نفسه؟ حتّى في جنوب إفريقيا، لا شيء يغريهم بقتل الناس والاستيلاء على أرضهم سوى الذهب والماس. فما الذي يوجد هنا؟ سيتشاجرون ويتنازعون، يسرقون شيئاً من هنا وشيئاً من هناك، وقد يخوضون حرباً صغيرة تلو الأخرى، وحين يتعبون سيعودون إلى بلادهم».

فقال حسين: «أنت تحلم يا صديقي. ألم تر كيف تقاسموا أفضل أرض في الجبل؟ حتى في البلاد الجبلية الواقعة شمالنا استطاعوا أن يتخلصوا من أشرس شعوبها ويستولوا على أراضيهم. طردوهم كالأطفال، دون أي صعوبة تذكر، ودفنوا بعض قادتهم أحياء. أولا تعرف ذلك؟ لم يسمحوا لأحد بالبقاء هناك إلا الذين استعملوهم خدماً. لا يحتاج الأمر إلا إلى مناوشة أو اثنتين بالأسلحة، ويستحوذون على الأرض. فهل جاء هؤلاء زيارة؟ قلت لكم إنهم عازمون. يريدون العالم كله».

فقال كالاسنغا: «إذن اعرف عنهم. فما الذي تعرفه عنهم غير قصص الأفاعي والرجال الذين يأكلون المعدن؟ هل تعرف لغتهم؟ قصصهم؟ كيف إذن تريد أن تواجههم؟ بالتدمير والدممة، ما الفائدة؟ كلنا سواء. هم أعداؤنا. وهذا أيضاً ما يجعلنا سواء. فنحن في أعينهم بهائم، ولن نستطيع أن نغير نظرتهم الحمقاء عنا قريباً. أتعرف لماذا هم أقوىاء جداً؟ لأنهم يعتاشون على العالم منذ قرون. وتدمرك لن يوقفهم».

فقال حسين على نحو قاطع: «لا يوجد شيء نتعلمه يمكن أن يوقفهم».

قال كالاسنغا بلطف: «لست إلا خائفاً منهم».

فقال حسين: «معك حق، أنا خائف. لكنّ خوفي ليس منهم وحدهم. أخاف أن نخسر كل شيء، حتى عاداتنا. والعاقبة أشدّ على هؤلاء الصغار. ذات يوم سيجعلونهم ييصقون على كل ما تعلمناه، ويردّدون أحكامهم وروايتهم هم عن العالم، كأنها كلام مقدّس. فما الذي سيقولونه حين يكتبون عنا؟ سيقولون إنّنا نحن الذين صنعنا تجارة الرق».

فصاح كالاسنغا: «تعلّم إذن كيف تتعامل معهم. وإن كان ما تقوله هو الحقيقة، عن المخاطر التي تنتظرنا، فما الذي يبقيك هنا على الجبل لتقول هذا الكلام؟»

فقال حسين مبتسمًا من غضب كالاسنغا: «فأين أذهب وأقوله إذن؟ إلى زنجبار؟ هناك حتّى العبيد أنفسهم يدافعون عن الرقّ».

قال حامد معترضًا: «لماذا هذا الكلام الكئيب؟ وما الرائع في عاداتنا وطريقة عيشنا أصلًا؟ لدينا ما يكفي على كاهلنا ولسنا في حاجة إلى هذه التنبؤات المخيفة. لنترك الأمر لله. ربّما تتغيّر الأمور، لكنّ الشمس ستظلّ تشرق من الشرق وتغرب في الغرب. كفى حديثًا في هذه المواضيع الكئيبة».

وبعد صمت طويل، قال حسين: «ما أخبار شريكك الخبيث يا حامد؟ وما آخر حماقة ورّطك فيها؟»

فسأله حامد بانفعال: «من تقصد؟ عمّ تتحدّث؟»

فقال حسين بازدياء: «من؟ ستعرف ذات يوم من يكون. شريكك! أليس هذا ما قلّته آخر مرّة؟ عندما يحين الوقت سيسلبك هذا الرجل كلّ شيء ولن يبقى لديك حتّى إبرة وخيطاً تصلح بهما قمصانك. كنت تقول إنّ سيّاتيك بثروة. وقال إنّ الأمر لا مخاطرة فيه. لا شكّ في ذلك أبدًا. بل يمكنك حتّى أن تشتري معاطف حرير لك من الآن إن أردت. ولكنّ يومًا ما، ستأتي المخاطرة ويكون قد فات الأوان. سيقول حظّنا سيّئ، وهذه هي التجارة كما تعرف. كم عدد الذين دمرهم حتّى الآن؟ يعطيك الآن أكثر من قدرتك، وحين تعجز عن السداد يستولي على كلّ شيء. هذه طريقته، وأنت تعرف تمامًا ما أقصده».

قال حامد: «ما بالك اليوم؟ لا بدّ أنّه من أثر العيش في الجبل مع ذلك الضوء الأخضر». لاحظ يوسف أنّ حامداً كان مضطرباً، منفعلًا. كان يبدو مكتئبًا، سارحًا، ونظر مرّة واحدة تجاه يوسف.

وتابع حسين: «أتعرف ما سمعت عنه، شريكك هذا؟ أنّه حين يعجز شريكه عن الدفع، يأخذ ابنه أو ابنته رهاني عنده. تمامًا كما كان يحدث في أيام الرقّ. ليس هذا خلق الأشراف».

فقال حامد بغضب وقد تحرّك قليلاً وكأنّه سيلتفت إلى يوسف: «يكفي». وبدا أنّ لدى كالاسنغا ما يريد قوله أيضًا، لكنّ حامداً أسكته بيده. «دعني أرتكب من الحماقات ما أشاء. أتظنّ أنّ هذا... ما تفعله أنت... وما نفعله نحن... أفضل؟ من أيّ ناحية؟ نحن نعمل، ونخاطر بكلّ شيء، ونعيش بعيداً عن أهلنا... وما نزال خائفين وفقراء كالفران».

قال حسين مستذكراً آية من القرآن: «يقول المولى عزّ وجلّ—

فقاطعه حامد بلطف، يكاد يستجديه: «أرجوك!»

قال حسين: «سيقع في شرّ أعماله ذات يوم. لن تنتهي أعمال التهريب والصفقات الفاسدة على خير، وسيورّطك معه فيها».

وقال كالاسنغا لحامد: «اسمع كلام أخيك. قد لا نكون أثرياء، لكننا على الأقلّ نعيش وفق القانون ويحترم بعضنا البعض».

فضحك حامد. «يا لنا من فلاسفة نبلاء! ومتى اكتشفت القانون أيّها الوغد الكذاب؟ عن أيّ قانون تتحدّث؟ المبالغ التي تأخذها منا على أبسط الأعمال... تسمّيها عيشاً وفق القانون؟». كان يحاول من

نبرته وأسلوبه الإشارة إلى أن التوتّر قد زال، وأنه يودّ تغيير الحديث إلى مسار المزاح هذا. «على أيّ حال، لا نريد أن يأخذ هذا الشاب فكرة سيّئة عنا».

كان يوسف آنذاك في السادسة عشرة، وقد بدا تعبير الشاب راقياً في أذنيه، يساوي في حلاوته وصفه بأنه طويل القامة، أو حتّى فيلسوفاً. كان حريصاً على إبداء سعادته، يتصرّف بشيء من التهريج، فضحك الرجال الثلاثة على حماقته. وهكذا انتقل الحديث عن موضوع الرجل الذي أُجبر على رهن ابنه لسداد ديونه. وقد خطر ليوسف أنّه فهم شيئاً مما قاله حسين عن حامد. فاستماتة هذا من أجل الثراء، واهتمامه المحموم برحلة العمّ عزيز، يكشفان عن ضعف ثقة بالنفس، وانتظار الفشل. تذكر يوسف تلك الهمهمات في المخزن المحظور، ورائحة الماغندو التي تنبعث من البضائع المخزّنة هناك. فما سمعه يوسف من تصرّعات حامد كانت دعاء.

8

وصل العمّ عزيز من رحلاته بعد أيّام قليلة من عودتهم إلى البلدة، وكالعادة كان في مقدّمة موكبه طبّال وزمّار يتبعهما محمد عبد الله. وصلوا في وقت متأخّر من العصر، حين انحسرت الشمس وعادت الرطوبة مرّة أخرى إلى النسيم والأوراق. يوسف هو الذي رأيهم، إذ رأى في البداية مجرد تعكير في الهواء فوق الطريق الذي كان يتجول فيه عند المسار الصامت، ثمّ سحابة من الغبار الناعم وجلجلة الطبل والزمر. كان يريد أن ينتظر ويرى ما تخيل أنه قافلة من المسافرين المتعبين، لكنّه ارتأى العودة لإبلاغ الأسرة.

عرفوا لاحقاً أنها كانت رحلة صعبة، محفوفة بالخطر والعوز. واجهوا أحداثاً قاسية، ولكن دون قتال. أصيب رجلان منهم إصابة بالغة، أحدهما من هجمة أسد، والآخر من لدغة أفعى، فترك الاثنان في بلدة صغيرة قرب البحيرة، تقوم على رعايتهما أسرة نفحها العمّ عزيز مبلغاً مجزياً. لم يكن قد تعامل معها من قبل، لكنه قال إنه ائتمنها على رعاية الرجلين. وقد أصيب في هذه الرحلة كثير من الحمالين والحراس بأمراض، لكنّها حمداً لله لم تكن أمراضاً خطيرة أو غير معتادة، بل تلك المعهودة في الرحلات إلى الداخل. وسقط محمد عبد الله في مجرى مائيّ ذات ليلة، وأصيب بجروح بالغة في كتفه. وقال العمّ عزيز إنه يتماثل للشفاء، لكنّه ما يزال يتألّم، رغم محاولته إخفاء ذلك. وعلى الرغم من هذه المِحَن، إلّا أنّ تجارتهم سارت على ما يرام، رغم أنّهم كانوا يعلمون طوال الوقت بأنّهم بعيدون عن الساحل. كان العمّ عزيز يبدو هادئاً كعادته، بل أكثر نحافة وصحّة من ذي قبل. فبعد أن استحمّ وغيرّ ملابسه وتعطّر، كان من الصعب أن يصدّق أحد أنّه كان يترحّل على الطرق عدّة أشهر.

قال العمّ عزيز: «كانت التجارة ممتازة في الروافد العليا للأنهار. بل إنّنا لم نقض وقتاً طويلاً على النهر. سوف نعود إلى مارونغو العام المقبل، قبل أن يتقاطر التجّار عليها مرّة أخرى. وسوف يغلق الأوروبيون المنطقة قريباً، البلاجكة تحديداً. سمعت أنّهم يقتربون أكثر من البحيرات. وهؤلاء ليسوا سوى صعاليك حسودين لا نفع منهم، ولا يفهمون شيئاً في التجارة. لقد سمعت عنهم. بل إنّ حتّى الألمان والإنجليز أفضل منهم، رغم أنّهم جميعاً (يعلم الله) تجّار أشرار. لقد أحضرنا معنا هذه المرّة بضائع ثمينة».

وقعَ هذا الكلام كالْموسيقى في أذنيّ حامد، فشَدّد على كلامه باستخدام ألفاظ عربيّة، رغبة منه في تأكيد تحالفه مع العمّ عزيز. كان يتسم ملء شدقيّه ويتأوّه إعجابًا وهو ينظر إلى الحمّالين وهم يخزّنون البضائع. فقد تقرر أن تُترك أكياس الذرة التي حصل عليها العمّ عزيز بأسعار زهيدة عند حامد، أمّا الصمغ والعاج والذهب فكانت سترُسل بالقطار إلى الساحل. كان المطّاط الذي وصل سابقًا قد بيع لتاجر يونانيّ في البلدة. في المساء أخذ حامد العمّ عزيزَ إلى المخازن كي يتفقد البضائع، ثم جلسا يتناقشان في سجلّاتهما ويحسبان الأرباح.

لم يبقَ العمّ عزيز طويلًا، فقد كان ينوي العودة إلى الساحل قبل رمضان، كي يصوم الشهر ويرتاح في بيته. ولئن تخلص من البضائع قبل نهاية الشهر، فسوف يستطيع أن يدفع أجور الحمّالين في الوقت المناسب قبل بدء العام الجديد وتكاليف العيد. هكذا انطلق الموكب في يوم الرحيل، ومحمد عبد الله لمّا يعد بعدُ إلى حالته الأولى. أمّا يوسف فلم يُدع إلى مرافقتهم. ناداه العمّ عزيز قبيل الرحيل، ونفحه حفنة من النقود.

قال له: «خذ هذه، في حال احتجت إلى أيّ شيء. سأعود في العام المقبل. لقد أبليتَ بلاءً حسنًا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الرحلة إلى الداخل

كان حامد سعيدًا بعد زيارة العمّ عزيز، فقد أثارت حكايات الرحلة حماسته، وخلقت صلة بينهم جميعًا والعالم المخيف الذي يقبع وراء الأفق. كما أنّ الأرباح جعلت من قراءة الحسابات أمرًا ممتعًا، في حين أنّ البضائع المتروكة في مخزن حامد أعطته لمحة عن الحظّ السعيد الذي رافقهم. لم يكن حامد ينتظر حلول الليل دائمًا كيما يذهب إلى مخزنه السريّ ويزهو بنجاحه، بل إنّ كان يترك الباب مفتوحًا في بعض الأحيان، فتنتقل في الفناء رائحة طاغية من جلود الحيوانات. رأى يوسف أكياس الخيش والقشّ المكدّسة هناك، وأدرك أنّ بعضها كان يحتوي على الذرة التي جاء بها العمّ عزيز، وبعضها الحُزم التي أوصلها باخوس ذو اللسان البذيء بشاحنته. رأى حامدًا يذرع المكان حول الغنيمة، يحسب الأكياس ويحدّث نفسه. فلمّا رأى يوسف واقفًا عند الباب المفتوح، سرت في وجهه موجة من الذعر، متبوعة على حين فجأة بارتياح، وشكّ. عبس وقطب جبينه على نحو لا يشي بشيء سوى التركيز، ثمّ ضحك ضحكة ماكرة، وخرج.

قال بابتهاج وهو يوحد باب المخزن بالقفل: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أليس لديك عمل تنجزه؟ هل نظّفت الفناء؟ جمعت الخبز؟ في هذه الحالة إذن سأرسلك في مهمّة إلى البلدة. من الذي أمرك بمراقبتي، هاه؟ تريد أن تعرف ما يوجد في الأكياس، أليس كذلك؟ ستعرف كلّ شيء ذات يوم. كانت رحلة جيّدة، حمدًا لله، حالفنا فيها جميعًا قدرًا من الحظّ. هل كنت تريد شيئًا؟ لم كنت تفتّش هنا؟»

فهمّ يوسف بالإجابة: «أنا—»، لكنّ حامدًا قاطعه، وسار بخطى سريعة في انتظار أن يتبعه يوسف.

«حسنٌ، لست تبحث عن شيء، أليس كذلك؟ أودّ لو أسمع ما سوف يقوله حسين الآن. فلمجرد أنه اختار عيش الكفاف في منتصف الجبل يظنُّ أن من يحاول كسب شيء لنفسه مذنب. كنت موجوداً وسمعت! أنا لا أبحث عن الثروة الكبيرة، ولكن ما دمت أعيش وأتاجر في هذه المنطقة، ما المانع أن أكسب شيئاً؟ إن كان يريد التصرف كالحالمين المجدوبين، فهذا شأنه. سمعته بنفسك، ذاك المثاليّ الكبير. سمعته، أليس كذلك؟»

فقال يوسف: «نعم»، وقد توجّس من عدوانية حامد. تساءل في نفسه عما يوجد فعلاً في الأكياس، لكنّه تردّد في سؤال حامد، فقد شعر بأنّ حامداً يعتقد أنّه يعرف. خطر له أنّها تحوي شيئاً قيماً وُضع في مأمّن، بعيداً عن الدكان.

قال حامد وقد احتدّ صوته في ازدراء: «ما الخطيئة في أن تكسب عيشاً أفضل لأسرتك؟ أو أن تمكّنهم من العيش وسط أهلهم؟ ما الخطأ في هذا؟ أنا أسألك. كلّ ما أريده هو أن أبني منزلاً صغيراً لأسرتي، وأزوّج أطفال زيجات صالحة، وأن أستطيع الصلاة في المسجد بين المتحضّرين. وإن كان بالإمكان أيضاً، أودّ أن أجلس مع أصدقائي وجيراني في المساء أشرب كوباً من الشاي وأدردش... هذا كلّ ما أريده! هل قلت إنّي أريد أن أقتل أحداً؟ أو أن أسترّق أحداً؟ أو أسرق رجلاً بريئاً؟ إنّما أنا صاحب دكان صغير يحاول أن يحقق لنفسه شيئاً. ويشهد الله أنّ ما أريده شيء صغير ليس إلّا. في هذه الأيام يسلّط لسانه على الأوروبيين، وكيف أنّهم سيطرّدون الجميع من أراضيهم، وكيف سيدمّروننا ويدمّرون كلّ ما آمنّا به. وحين يتعب من هذا الكلام يبدأ بالحديث عن تجارتي. يمكنني أنا أيضاً أن أنتقده في أمر أو اثنين،

لكنّي أريد أن أعيش في سلام. أمّا الفيلسوف حسين فلا يرضى بذلك، وهو الذي يعيش كالشيطان بين الهمج. وهل منعه أحد من العيش كما يحبّ؟ ولكنّ ما إن تقول له شيئاً حتّى يلقي عليك المواعظ وآيات القرآن. يقول لنا المولى عزّ وجلّ! ألم تسمعه؟!»

تفكّر حامد في ما قاله، وهو ينفخُ في امتعاض، ثم تتمم قائلاً: «استغفرُ الله، وقد سرّت فيه رجفة حين خطر له أنّه ربّما أساء الأدب في حديثه عن القرآن. «لا أقول إنّ هناك مشكلة في أن يقول المرء شيئاً من القرآن، لكنّ الرجل يفعل ذلك بدافع الغلّ لا التقوى. لا أبداً، لا أقول مُطلقاً إنّ هناك مشكلة في كلام الله. وذلك المعتوه كالاسنغا يتحدّث عن ترجمة القرآن! إنّما هي الخمر المصنوعة في البيت. لعلّ الله يعرف أنّه وثنيّ مجنون، فيرحمه». وقهقه حامد حين تذكّر ذلك.

ثمّ قال وهو ينظر إلى الأعلى كأنّما ينتظر أن يرى شيئاً هناك: «القرآن ديننا، ويشتمل على كلّ الحكمة التي نحتاج إليها كي نعيش حياة جيّدة قويمة». نظر يوسف إلى الأعلى كذلك، لكنّ حامداً شدّ انتباهه بهسيس منفعّل. «لكنّ هذا لا يعني أن نستخدم القرآن للتقصّص من الآخرين. ينبغي أن يكون مصدراً لهدايتنا وتعليمنا. وعليك أن تقرأ القرآن كلّما استطعت، لا سيّما الآن وقد بدأ شهر رمضان. ففي هذا الشهر الفضيل يُضاعف لك الأجر على كلّ عمل من أعمال الخير. هكذا قال الله سبحانه وتعالى للنبيّ في المعراج. في تلك الليلة التي أُسريَ فيها بنبيّنا من مكّة إلى القدس على حصان البراق المجنّح، ثمّ عرّج من هناك إلى حضرة الله عزّ وجلّ، فأمر بفروض الإسلام. تقرّر أن يكون رمضان شهرَ الصيام والصلاة، شهرَ التوبة وإنكار الذات. كيف إذن نعبر عن خضوعنا لله إن لم نحرم أنفسنا من أكثر الملذّات

ضرورة في الحياة، كالطعام والشراب واللذة الحسية؟ هذا ما يفرق بيننا وبين الهمج والوثنيين، الذين لا يحرمون أنفسهم من شيء. وحين تقرأ القرآن في هذا الشهر يصعد الكلام مباشرة إلى خالكك، فيجزيك من بركاته العظيمة. ينبغي لك أن تخصص ساعة كل يوم في شهر رمضان تقرأ فيها القرآن».

فقال يوسف وهو يتراجع: «نعم». ففي نهاية الموعظة التي كان يلقيها حامد، بدا كأنه يفضي إليه، ويطالب يوسف بأن يشاركه اندفاعه التقوى المفاجئة التي حلت به. خطر ليوسف أن يهرب قبل أن تشتد عزيمة الواعظ، لكنه تأخر.

ثم قال حامد بارتياح وعبوس: «بالمناسبة، لم أرك تقرأ كثيراً. هذا ليس مجال اللعب والعبث، أتريد أن تدخل النار أم ماذا؟ سنقرأ اليوم معاً، بعد أن تصلي العصر».

بحلول العصر كان الجوع والتعب قد أخذوا من يوسف كل مأخذ. كانت الأيام الثلاثة الأولى من الصيام أشدها إرهاقاً، ولو كان الأمر بيده لاستلقى في صمت تحت الظل لأطول وقت ممكن من النهار. لكن جسده تكيّف مع الأمر بعد بضعة أيام، واعتاد أن تمضي ساعات طويلة دون طعام أو شراب، فأصبحت حرارة النهار مُحتملة على الأقل. كان يعتقد أنّ الهواء البارد في الجبال سوف يهوّن تلك الحرارة، لكنّ هذا لم يحدث. ففي الساحل كان يستطيع أن يفصل عن جسده المخدّر ويتركه لذاته المنهكة، فيصل إلى حالة من التخلي المدهش. أمّا الهواء البارد فكان يشبّه، ولا يجعل له مجالاً للانزلاق إلى ذلك الخدر الساحر. وكان يعلم أنّ في انتظاره إذلاًّ حين يلتقي حامداً في العصر.

سأله حامد: «ماذا تقول؟ أنت لا تقرأ؟»

فأجاب يوسف: «لم أقل ذلك». قال إنه سافر للعمل عند العمّ عزيز قبل أن ينته من قراءة القرآن. كانت والدته قد علّمته الأبجدية، وعلّمته السُّور الثلاث البسيطة الأولى. فحين أتمّ السابعة بعثوه إلى معلّم في البلدة التي انتقلوا إليها، كي يعلّمه الدين. كان التعليم بطيئًا، ولم يكن المعلم يستعجل الأطفال كي يكملوا دراستهم. فما إن ينتهي طفل من قراءة القرآن حتى ينقص عدد الأطفال الذين يحصل على أجر من أهلهم. لذلك كان من المتوقع أن يقضي الطفل خمس سنوات يتعلّم القرآن. كان هذا عدلًا للمعلّم والتلاميذ. يُنجز الأطفال كثيرًا من المهام المنزلية لمعلّمهم، فينظفون البيت، ويحتطبون، وغير ذلك. وكان الصبية يتغيّبون عن الدرس متى ما أمكنهم ذلك، فيُجلّدون. أمّا البنات فيضربهنّ على أياديهنّ ويعلمهنّ الأدب. يقول للطفلة: احترمي نفسك وسوف يحترمك الآخرون. ينطبق هذا علينا جميعًا طبعًا، لكنّه في حالة النساء أصدق. وهذا معنى الشرف. هكذا كانت الأمور تسير دائمًا، وكان الأولاد والبنات يحتشدون على الحصر في فناء المعلم، يردّدون الدرس وراءه على مضض وصبر. كان من المتوقع أن ينتهي يوسف من دراسته في حينه، ويفخر بين أقرانه وكبار البلدة، لكنّه أرسل مع العمّ عزيز.

كان خليل قد علّمه الأعداد، لكنّه لم يتحدّث مرّة عن قراءة القرآن. وحين يذهبان إلى المسجد ضمن رحلاتهما إلى البلدة، كان يوسف يُحسن الصلاة. صحيح أنّه يفقد تركيزه في الصلوات الطويلة، ويضطرّ إلى أن يهتمهم بكلام لا معنى له مع الآخرين في السور التي لا يعرفها، لكنّه لم يقع في موقف محرج قطّ. كما أنّه لم يسئ الأدب بالتنصّت

على من بجانبه للتأكد مما إذا كانوا في مثل حاله. وحين جلس عند حامد في عصر ذلك اليوم، أدرك أنه ما من طريقة للهمهمة والهروب من تلك الزاوية التي حشره فيها حامد. اقترح هذا أن يبدأ بسورة «يس»، يتلوونها بالتناوب. فتح يوسف الكتاب وقلب الصفحات تحت أنظار حامد المتشككة.

سأله: «ألا تعرف أين سورة يس؟»

فقال يوسف: «سيكوهيتيمو. لم أختتم القرآن. لا أعتقد أنني أستطيع قراءتها».

فقال حامد مصدوماً: «ماذا تقصد؟ لا تستطيع القراءة؟». نهض على قدميه، وتراجع عن يوسف، لا خوفاً، بل كمن يبتعد عن شيء كارثي خسيس. مسكين. يا لك من فتى مسكين! لا يجوز ذلك. ألم يعلموك القراءة في ذلك البيت؟ أي بشر هؤلاء؟»

تنهد يوسف بقوة، خجلاً من فشله وعاره. نهض هو الآخر على قدميه، بعد أن كان يشعر بالضعف وهو مقرفص على الأرض. كان جائعاً ومرهقاً، ولم يكن يريد أن يخوض في تلك الفواجع الكلامية التي يعلم أنها قادمة، لكنّ خوفه من الشعور بالعار كان أقلّ مما توقع.

صاح حامد ينادي زوجته وكأنه يتألم: «ميمونة!». كان يوسف يعتقد أنّ حامداً وقع تحت تأثير الصيام أيضاً، وسوف يجلس ويتحدث في هدوء عن الدروس والفروض الدينية، لكنّه فجأة أخذ يصرخ في هوس: «ميمونة! تعاليّ إلى هنا! يلاً، تعاليّ بسرعة».

جاءت ميمونة وقد لقت قطعة قماش عليها، وعيناها تستجيبان للتوتر في صوت حامد، رغم أنّهما ما تزالان في غبش النوم.

فالتفت حامد إليها وقال مضطرباً: «كموانا، الصبي لا يعرف كيف يقرأ القرآن! لا أب له ولا أم، ولا يعرف حتى كلام الله!».

استجوباه مَلِيًّا، وكأنهما كانا ينتظران هذه الفرصة منذ فترة طويلة. لم يحاول أن يخفي شيئاً عنهما. ماذا قالت السيِّدة عن هذا الأمر؟ كيف شكَّلهما؟ لم يكن يوسف قد رآها قطّ ولا يعرف شكلها. ألا يُقال إنّها سيِّدة ورعة؟ لم يكن قد سمع بذلك. ألم يكن التاجر يأمره بالصلاة في المسجد؟ لا، لم يكن للتاجر علاقة به، بل تركه يعمل في الدكان. ألم يخطر ليوسف أنّه إذا لم يصلّ فسوف يلاقي ربّه عاريّاً؟ لا، لم يخطر له ذلك، ولم يفكر كثيراً في خالقه. وكيف له أن يصلّي دون أن يعرف كلام الله؟ لم يكن يصلّي، إلّا صلاة الجمعة حين يذهب إلى البلدة. يا له من أمر حقير! فلمّا ارتفعت أصواتهما من أثر الحسرة، جاء أطفالهما أيضاً لينظروا إلى ذلك المشهد: عاشة، الكبيرة التي تبلغ من العمر حوالي اثني عشر عاماً، ممتلئة الجسم مرحة مثل والدها، وعليّ الذي ورث عن أمّه شعرها المجعد وبشرتها الصقيلة، والصغيرة سُدى التي لا تنفك تبكي ولا تبتعد عن أختها. جاؤوا كلّهم ينضمّون إلى تلك الجوقة المتفجّعة التي تتحسّر على عاره. رفعت ميمونة يداً إلى جبينها وكأنّها تريد أن توقف خفقانه. أمّا حامد فأخذ يهزّ رأسه في إشفاق. «أيها الفتى المسكين! أيها الفتى المسكين! أيُّ مصيبة جئت بها إلى بيتنا؟ من كان يتوقّع ذلك؟»

فقالت ميمونة وهي تثنّ بين الكلمة والأخرى: «لا تلم نفسك. فكيف كان لنا أن نعرف؟»

ثمّ قال حامد ليوسف بعد أن انحسر فزعهم: «لا تبتئس. هذا ليس ذنبك. الله سيحاسبنا نحن لأننا لم نتأكّد من أنك قد تعلّمت. وأنت تعيش بيننا منذ شهور...».

فقالَت ميمونة كي تخفّف الذنب عنهما: «ولكن كيف تركك عمّك هكذا طوال تلك السنوات؟»

قال يوسف في نفسه وهو يتذكّر خليلاً ويحاول أن يكبت ابتسامته: أولاً، هذا ليس عمّي. كان يودّ أن يغادر ويتركهم لحسراتهم، لكنّه أدرك أنّه تصرف غير مقبول. شعر بالقرف من طريقتهما في إبداء الصدمة والفزع، وبداله أنّه أداء مُفتعل وسخيف.

قال حامد: «هل تعلم أنّنا أهل الساحل نسَمّي أنفسنا وا أونغوانا؟ هل تعرف معناها؟ معناها أهل الشرف. هذا ما نتسمّى به، لا سيّما هنا بين الشياطين والهمج. ولماذا نتسمّى بذلك؟ لأنّ الله أعطانا هذا الحقّ. نحن أشرف لأنّنا نسلم أنفسنا للخالق، ونفهم واجباتنا تجاهه ونلتزم بها. وإنّ لم تعرف كيف تقرأ كلام الله أو تتبّع شريعته، فأنت وعبّدة الأشجار والصخور سواء. لا يرفعك عن منزلة الحيوان إلّا القليل».

فقال يوسف وقد تضاءل خجلاً حين سمع الأطفال يضحكون: «نعم».

سأله حامد بصوت رقيق: «هل بلغت الخامسة عشرة؟»

فقال يوسف: «بلغت السادسة عشرة في شهر رجب، قبل أن نذهب إلى الجبل».

قال حامد وهو يتخذ دور المخلّص: «إذن ليس لدينا وقت نضيّعه. فأنت أمام الله رجل كامل مكلف بشريعته». هكذا أغمض عينيه وتمتم بدعاء طويل. ثمّ قال أخيراً وهو يشير بذراعه إلى يوسف: «يا أطفال، انظروا إليه. وتعلّموا هذا الدرس». لا تقرب الحشيش، أتوسّل إليك. تعلّم من تجربتي المريعة.

فقالت ميمونة بحدّة، وهي تنظر إلى حامد في عينيه: «أرسله إلى مدرسة القرآن مع الأطفال. ولا داعي لأن تثقل عليه هكذا وكأنّه قتل أحداً».

2

تلك هي المذلة التي فرضوها عليه، فكان يوسف يذهب كل عصر في رمضان إلى معلّم القرآن مع الأطفال. كان أكبر التلاميذ سنّاً، فظّل الأطفال يتحرّشون به في إصرار مسعور، وكأنّ الأمر مطلوب منهم، ولا خيار لهم سوى أن يفعلوا ذلك. أمّا المعلّم الذي كان إمام المسجد الوحيد في البلدة، فقد كان يعامله برحمة ولطف. تعلّم يوسف سريعاً، وكان يخصّص وقتاً إضافياً للدراسة في البيت. في بادئ الأمر كان شعوره بالخزي هو الذي يدفعه إلى ذلك، لكنّه بعد ذلك بدأ يستمتع بمهارته المتنامية. وكان المعلّم يشجّعه كثيراً، وكأنّه لم يكن يتوقّع منه أقلّ من ذلك. يذهب يوسف كلّ يوم إلى المسجد، فيسلّم نفسه ويخشع للإله الذي غفل عنه طويلاً. يرسله الإمام في مهمّات صغيرة هنا وهناك أمام المصلّين، إشارة إلى ثقته بيوسف واستحسانه. فيرسله لإحضار كتاب ينوي قراءته أمام المصلّين، أو مسبحة أو بخور. وفي بعض الأحيان يوجّه أسئلة ليوسف تشجيعاً له لاستظهار ما تعلّمه، وذات مرّة طلب من يوسف أن يصعد إلى سطح المسجد ليؤدّن في الناس. أمّا حامد فكان مسروراً في بادئ الأمر، يتحدّث إلى الآخرين عن هذا التحوّل المعجز في حال يوسف، واثقاً من أنّ الله أدرك من دون شكّ دوره ودور ميمونة في إنقاذ هذا الصبيّ.

لم يخمد حماس يوسف حتى بعد انقضاء رمضان، فختم قراءة القرآن في شهرين، وبدا مستعداً للبدء من جديد. ودعاه الإمام لخدمته في مراسم جنازة، واحتفال بمولود جديد. هكذا أهمل يوسف واجباته في البيت والمحلّ كي يذهب إلى المدرسة والمسجد، ثمّ يدرس مساءً في تلك الكتب التي يعطيه إياها الإمام. غير أنّ القلق بدأ يساور حامداً من هذه التقوى الجديدة، فقد رأى فيها هوساً وتذلاًّ، إذ لا حاجة للتمادي في مثل هذه الأمور.

أمّا كالاسنغا الذي أفضى إليه بهذه المخاوف حين التقيا للحديث، فكان له رأي مختلف. قال: «دع الفتى يكسب من الفضائل قدر ما يستطيع. فهذه المشاعر لا تدوم فينا طويلاً، ولا تلبث الدنيا أن تغوينا إلى الخطيئة والقذارة. الدين شيء جميل، نقيّ وحقيقيّ. لا أظنّك تعرف شيئاً عن هذا النوع من الروحانيّات. نحن الشرقيّين خبراء. لست سوى تاجر أحرق تقبّل الأرض خمس مرّات في اليوم وتجوّع حدّ الهلاك في رمضان. لا تفهم شيئاً في التأمل أو التعالي الروحاني وما إلى ذلك. جيّد أنّ الفتى يرى أشياء تستحقّ العناية في حياته أكثر من أكياس الأرز وسلال الفاكهة، ولكنّ من المؤسف أنّه لا سبيل لديه إلّا اللجوء إلى تعاليم الله».

تجاهل حامد استفزاز كالاسنغا وقال: «لكنّ هذا كثير على الصبيّ، أليس كذلك؟»

قال كالاسنغا: «لم يعد صبيّاً. إنّهُ شابٌ تقريباً. لكأنّك تريد أن تفسده. وبوسامته هذه قد تجعل منه شخصاً هسّاً تالفاً».

أقرّه حامد بعد لحظة فقال: «إنّهُ فتى جذّاب. لكنّه رجل بحقّ. ولعلمك، فهو لا يأبه بوسامته أبداً. فإنّ أشار شخص إلى وسامته،

ابتعد أو غير الموضوع. يا له من بريء! على أي حال، ما هذا الذي كنت تقوله عن الدين والفضيلة؟ إن كنت أنا لا أعرف هذه الأشياء، فهل تظن أن قرد زيوت مثلك يعرفها؟ أنت تعبد الغوريلات والأبقار، وتصدق قصصاً سخيفة عن خلق العالم. أنت وهؤلاء الوثنيون سواء. أحياناً أشفق عليك يا كالاسنغا وأنا أتخيل مؤخرتك المشعرة تحترق في نار الجحيم بعد يوم القيامة».

فرد كالاسنغا بمرح: «سأكون في الجنة وأمتطي كل ما أراه أمامي من متاع الله، بينما يعذبكم إلهكم إله الصحراء على كل خطاياكم. كل شيء بالنسبة إلى ربكم خطيئة. على أي حال، لعل الشاب يريد أن يتعلم لا أكثر. لقد سئم من حبسه في بيتك العفن. فلو كان له عقل لصار الآن عجينة. فكل ما تطلبه منه هو أن يجلس وينصت إلى أكاذيبك، أو يجمع ثمار الخبز التي لا فائدة منها. حتى القرد سيتدين تحت تأثير هذا التعذيب. ابعثه إليّ، وسوف أعلمه الأبجدية الإنجليزية، وأعلمه أشغال الميكانيكا. سيكتسب مهارة مفيدة على الأقل بدلاً من أعمال البقالة هذه».

بذل حامد وسعه في إلهاء يوسف، بل إنه استعاد فكرة بناء الحديقة في الفناء الخلفي، وذكر أيضاً العرض الذي قدّمه كالاسنغا. وهكذا أصبح يوسف يقضي فترة العصر في ورشة كالاسنغا عدّة أيام في الأسبوع، يجلس على الإطارات القديمة ممسكاً بلوح يتعلم عليه القراءة والكتابة بالرومية⁽¹⁰⁾. كان ينجز أعماله في البيت صباحاً، ثم يذهب عصراً إلى كالاسنغا، وفي أوّل المساء يتوجّه إلى المسجد حتى صلاة العشاء. في بادئ الأمر كان مسروراً بهذه الحياة الجديدة

(10) تُسمى الأبجدية اللاتينية رومية أيضاً أو رومانية. (المترجم)

المحمومة، لكنّه بعد أسابيع قليلة بدأ يتعذّر كذبًا عن الذهاب إلى المسجد ويبقى فترة أطول عند كالاسنغا. بحلول ذلك الوقت كان قد تمكّن من الكتابة على اللوح ببطء، والقراءة من الكتاب الذي أعطاه إياه كالاسنغا، رغم أنّه لم يفهم كلمة منه. وقد تعلّم أشياء كثيرة غيرها أيضًا، فعرف كيف يغيّر الإطارات وينظّف السيّارات ويشحن البطاريات، ويفرك الصدأ. كان كالاسنغا يشرح له أسرار المحركات، فيفهم يوسف شيئًا من ذلك، لكنّه كان يسعد بمشاهدة كالاسنغا وهو يعالج بيديه السحريّتين تلك الأنابيب والبراغي فيبعث فيها الحياة. حدّثه كالاسنغا عن الهند التي لم يزرها منذ سنوات عديدة، لكنّه يحلم بالعودة إليها، وعن جنوب إفريقيا التي عاش فيها في طفولته. الجنوب عبارة عن بيت مجانيّ. هناك تحقّقَتْ كلّ الخيالات الوحشيّة. ودعني أخبرك شيئًا عن أولئك الإفريقانيين الأوغاد. إنهم مجانيّين. لا أقصد أنّهم قساة وطائشون، بل مجانيّين في كلّ شؤونهم. لقد صهرت الشمس الحارقة أدمغتهم الهولنديّة. كان يوسف يساعده في دفع السيّارات، وتعلّم تحضير الشاي في علبة صفيح قديمة على وابور. يبعثه كالاسنغا إلى متجر لشراء قطع الغيار، وحين يعود يكتشف أنّ كالاسنغا استغلّ الفرصة لتناول مشروب سريع. حين يكون في مزاج مناسب، يحكي قصصًا عن القديسين والمعارك والآلهة المولعة بالحبّ، وأبطال أشبه بالتماثيل، وأشرار ذوي شوارب، فيما يجلس يوسف على صندوق يستمع ويصفّق. كان كالاسنغا يؤدّي الأدوار بنفسه، وأحيانًا يطلب من يوسف أن يقف أمامه أميرًا صامتًا أو مجرمًا مرتعدًا. في كثير من الأحيان تغيب عنه بعض التفاصيل المهمّة، فيرتجل ويحرقها ليضفي تأثيرًا مضحكًا.

وفي المساء يجلس يوسف في الشرفة مع حامد وأي من أصدقائه أو ضيوفه. كان من واجبه أن يبقى هناك، يقدم القهوة والماء، ويكون في بعض الأحيان موضوع تندرهم ونكاتهم. يجلسون على الحصير في حلقة حول مصباح. وحين تمطر السماء أو يشتدّ البرد في ليل الجبل، يُحضر بعض الشالات للضيوف. وبسبب سنّ يوسف ووضعه، لم يكن يجلس معهم، بل يتراجع قليلاً، ويستمع إلى حكاياتهم عن «مريما» و«باغاماويو» و«جزيرة مافيا» و«لامو» و«عجمي» و«شمس» ومئات البقاع السحرية الأخرى. في بعض الأحيان كانوا يخفضون أصواتهم ويميلون بعضهم إلى بعض، ويهشّون يوسف إن حاول الاقتراب. بعد ذلك يرى عيون المستمعين تتسع من فرط الإثارة والدهشة، ووجوههم تكاد تنفجر من الضحك في آخر الأمر.

ذات ليلة جاءهم رجل من ممباسا يبيت معهم، فروى لهم قصّة عمّه الذي عاد مؤخراً بعد خمسة عشر عاماً قضاها في بلاد الروسي، وهم قوم لم يسمع بهم أحد من قبل. كان قد ذهب إلى هناك تحت إمرة ضابط ألمانيّ في «ويتو»، إلى أن طرد الإنجليزُ الألمان من هناك. بعد ذلك عاد الضابط الألماني إلى أوروبا دبلوماسياً في سفارة بلده في مدينة تسمى بطرسبرغ، في بلاد أولئك الروسي. والقصص التي حكاها هذا التاجر عن عمّه لم تكن تُصدّق. قال إنّ الشمس في مدينة بطرسبرغ تظلّ مشرقة حتّى منتصف الليل. وحين يأتي البرد تستحيل كلّ المياه إلى جليد، فيكون الجليد على الأنهار والبحيرات سميكاً بحيث يمكن للمرء أن يقود فوقه عربة ثقيلة. تهبّ الرياح في كلّ الأوقات، وفي بعض الأحيان ترسل عواصف مباغطة من جليد وحجر. وفي الليل تنهاى إليك مع الريح أصوات الجنّ والشياطين.

يحولون أصواتهم إلى أصوات نساء أو أطفال متوجّعين. ومن يجرو
على الخروج لمساعدتهم، لا يعود أبداً. وفي أشدّ أسابيع الشتاء يتجمّد
البحر، وتعيث الكلاب البريّة والذئاب في شوارع المدينة، تلتهم كلّ
شيء حيّ تجده في طريقها، من بشر وخيول وأيّ كائنات أخرى. وقال
عمّه إنّ شعب الروسيّ غير متحضّرين، ليسوا كالألمان. وذات يوم
في رحلاتهم في تلك البلاد دخلوا بلدة صغيرة فوجدوا كلّ إنسان
فيها (من رجال ونساء وأطفال) مخموراً حتّى الثمالة. سيكوفانييني
مسخرًا. في سبات عميق. ولفرط همجيّتهم ظنّ عمّه أنّه في بلد يأجوج
ومأجوج، تلك التي تحدّ أرض الإسلام. غير أنّه كانت هناك مفاجأة
في انتظاره، ولعلّها أكبر المفاجآت. فكثير من الذين يعيشون في بلاد
الروسي مسلمون! في كلّ بلدة! تتريّون وقيرغيز وأوزبكّيون! من سمع
بهذه الأسماء من قبل؟ وهؤلاء أيضًا فوجئوا به؛ إذ لم يسمعوا قطّ عن
رجل أسود مسلم في إفريقيا.

ما شاء الله! أبدى الحاضرون تعجّبهم، وطلبوا منه مزيدًا من
التفاصيل. قال إنّ عمّه زار مدينة «بخارى» و«طشقند» و«هرات»، وهي
مدن قديمة شيّد فيها أهلها مساجد تسلب الألباب، وحدائق غناء كأنّها
قطعة من الفردوس. كان ينام في أحلى الحدائق في هرات، فيسمع في
الليل موسيقى مذهلة تكاد تُذهب عقله. كان ذلك في موسم الخريف،
إذ تتناثر أزهار الأقحوان في كلّ مكان، وتتدلّى من الكروم عناقيد من
عنب حلو لا يمكن أن تتصوّر أنّه ينبت من الأرض. كانت الأرض
هناك نقيّة مشرقة، فلا يمرض الناس فيها ولا يشيخون.

فقالوا: إنّما هي حكايات، ولا يمكن أن توجد في الواقع.

فقال لهم: بل حقيقة.

سألوه وهم يتلهفون على تصديقه: هل يمكن أن تكون حقيقة؟
إنما أنت تحكي لنا طرفاً من الوهم، كي تختلط علينا حواسنا بهذه
الحكايات الخيالية.

فقال لهم: هكذا قلت لعمي أيضاً، ولكن في تأدب. كيف يمكن أن
تكون هذه القصص حقيقية؟

فسألوه: وبم أجابك؟

قال: أقسم لك.

فنتهّدوا وقالوا: إذن لا بدّ من أنّ هناك أماكن كهذه فعلاً.

قال التاجر: في وقت لاحق من رحلتهم، عبروا بحرًا هائجًا بأمواج
عاتية يُسمى بحر قزوين. وعلى الجانب الآخر رأى نفثات من الزيت
الأسود تندفع من الأرض، وأبراج معدنية تنتصب في الماء وكأنّها
حرّاس مملكة الشيطان. أعمدة النار تملأ السماء، كبوابات من
لهب. ومن هناك ارتحل عبر الجبال والأودية إلى أجمل بلد رآه في
أسفاره كلّها، أجمل حتّى من هرات. كانت مغطاة بالبساتين والحدائق
والجداول، يسكنها أناس ذوو علم وحضارة دفعتهم طبيعتهم إلى الولع
بالحرب والمكيدة. ولذلك لم تقم للسلام قائمة في بلادهم قطّ.

سألوه: وما اسم تلك الأرض؟

سكت التاجر طويلاً، ثمّ قال في تردّد: خشخاش. ثمّ قال بسرعة
قبل أن يسأله أحد عن الأسماء إنّ عمّه بعد ذلك عرّج على أرض
شمس، وعاد إلى ممباسا.

كان يوسف في المساء يحكي للأطفال تلك القصص التي يسمعونها من الرجال. يأوي الأطفال إلى غرفته حين يتعبون من اللعب والتطفل هنا وهناك. وبما أنه أُجبر على الذهاب معهم إلى مدرسة الإمام، لم تعد هناك حواجز بينهم وبينه. كان في بادئ الأمر يستمتع بخصوصيته في غرفته، لكنّ شعوره بالوحدة ازداد حتّى صارت الغرفة سجنًا، فتذكّر خليلاً وأيامه معه. كان الطفلان الصغيران يتشاجران أحيانًا فوق حصيرته، يصيحان في حماس، أو يرتميان فوق يوسف في معارك وهميّة. أمّا عاشة فكانت هي التي تدفعه إلى سرد القصص، تنظر إلى وجهه في اهتمام وهو يحكيها. كان الآخران يستندان عليه، أو يمسكان بيده، فيما تجلس عاشة في مكان يمكنها من النظر إليه. فإنّ استدعاها أحد، أصرت عليه أن يتوقّف عن الحكي إلى أن تعود. ذات عصر جاءت بمفردها تستمع إلى ما تبقى من حكاية اضطرّ إلى التوقّف عن قصّها في اليوم السابق. هكذا جلست أمامه على الحصيرة، تنصت في اهتمام.

فلما انتهى صاحبت وقد ترقّرت عينها: «أنتَ تكذب».

اضطرب، فلم يردّ، وانحنّت عليه فجأة وضربته على كتفه. مدّ يده يمسكها، متوقّعًا أن تتملّص منه وتعاركه كما يفعل شقيقاها، لكنّها دخلت عن طيب خاطر بين ذراعيه. تكوّرت على جسده بتهيدة طويلة، فأحسّ بحرارة أنفاسها على صدره. وحين انحسر اضطرابه، أحسّ بها هي الأخرى وهي ترخي جسدها الممتلئ، فظلّ هكذا في صمت بضع دقائق. ثمّ أحسّ بنفسه يُستثار، فحجل من أن تلاحظ ذلك.

قال في النهاية: «قد يأتي أحد».

عندها قفزت بعيداً عنه، ثم ضحكت. قال في نفسه إنها مجرد طفلة، ولم يخطر شيء من ذلك في بالها. من يمكن أن يسيء الظن بما حدث؟ كانوا يتوقعون منه أن يعتني بالأطفال، وهي واحدة منهم. هكذا فتح ذراعيه مرة أخرى، وجاءت تستلقي بينهما بصيحة من سرور.

قالت: «حدثني مرة أخرى عن حداثك تلك المدينة».

سألها وهو يخشى أن يتحرك: «أي مدينة؟»

قالت ضاحكة، رغم أنّ عينيها ظلّتا معلقتين به: «المدينة التي ترتفع فيها الموسيقى ليلاً». تلوّت إلى جانبه، فاستُثير مرة أخرى.

قال: «هرات. في تلك الحديقة في الليل سمع الرحّالة صوت امرأة تغني، فسلبت لَبّه».

سألته: «لماذا؟»

«لا أدري. ربّما لأنّ صوتها كان رائعاً. أو ربّما لأنه لم يكن معتاداً أن يسمع صوت امرأة تغني».

«ما اسمه؟»

فقال: «تاجر».

قالت وهي تفرك نفسها في جسده، بينما هو يداعب كتفها الناعم الممتلئ: «هذا ليس اسماً. قل لي اسمه».

«اسمه عبد الرزاق. فالعمّ ليس هو الذي قال تلك الكلمات. كان العمّ يقتبس كلام شاعر عاش في هرات قبل قرون، وكتب أشعاراً في جمالها».

«وكيف عرفت؟»

«لأنّ ابن أخيه قال ذلك».

سألته: «لماذا لدينا أعمام كثيرون؟»

فقال ضاحكاً وهو يحتضنها بقوة أكبر: «هؤلاء ليسوا أعمامنا».

قالت: «هل ستصبح تاجراً؟»، وصوتها يرتفع على نحو خطير قبل أن تنفجر في قهقهات صاخبة.

كانت كلّما جاءته وحدّها تستلقي بين ذراعيه هكذا، فيحتضنها في صمت أوّل الأمر، مخافة أن يتحرك فجأة أو يلمسها على نحو يُقزعها. كان لجسمها رائحة زُبد واضحة تُشعره بشيء من الغثيان، لكنّه لم يستطع أن يقاوم دفء جسدها وهي مستلقية إلى جانبه، كما أنّها في بعض الأحيان كانت تمصّ أطراف أصابعه. يحرك ساقه قليلاً كي لا تتفطّن إلى قدر استشارته، لكنّه لم يكن يعرف ما إذا رأّت شيئاً أو ما إذا كانت تستوعب أصلاً ما كانا يفعلانه. وفي ساعات الصمت الطويلة التي يقضيها وحيداً كان يكره نفسه، ويخشى ممّا قد يحدث لو اكتُشف أمرهما. كان يتدرّب على ما سيقوله لها كي تكفّ عن زيارته، لكنّه لم يستطع أن ينطق بشيء.

ميمونة هي أوّل من شكّ في الأمر. فقد كانت عاشة مصرّة جدّاً على إخراج شقيقها من غرفة يوسف، فيشتكيان عند أمّهما. هكذا حطّت عليهما فجأة وطردت عاشة من الغرفة. لم تقل شيئاً ليوسف، لكنّها حدّقت فيه بغضب طويلاً وهي واقفة لدى الباب. بعد ذلك هدأت في تعاملها معه، وصارت أكثر تيقظاً حين يكون يوسف مع الأطفال. أمّا عاشة فلم تكن ترفع عينيها في حضوره، وامتنعت عن الذهاب

إلى غرفته. يستدعيه حامد كثيراً لمساعدته، لكنه لم يبد مصدوماً منه كما كانت ميمونة. لم يعرف يوسف ما قيل لحامد عما حدث، لكن تعليقاته التي كان يغيظه بها دفعته إلى التوجس من أن حامداً قد بدأ يفكر تفكيراً جاداً في موضوع الزواج.

4

وما لبث أن وصل العمّ عزيز، في وقته المحدد، بعد عام على رحلته السابقة، كي يخوض رحلة أخرى جديدة. كانت هذه رحلة ضخمة إن قورنت بالسابقة، فقد بلغ عدد الحمّالين والحراس خمسة وأربعين شخصاً، رغم أن هذا ليس عدداً كبيراً حين يُقاس بالقوافل الهائلة التي كانت تنطلق في القرن السابق، تلك التي كانت أشبه بالقرى المتنقلة مع أمرائها، لكنها مع ذلك تبقى حملاً ثقيلاً على التاجر. ولكي يستطيع العمّ عزيز جلب هذا العدد الكبير من الحمّالين، اضطرّ إلى رهن جزء من أرباحه لتجار آخرين. كان الحمّالون يحملون مقداراً ضخماً من المشتريات التي اضطرّ العمّ عزيز (على غير عادته) إلى اقتراض ثمنها من مقرضين هنود على الساحل. كانوا يحملون أدوات حديدية، من معاول وفؤوس هندية، وسكاكين أميركية، وأقفال ألمانية، وأقمشة من أنواع كثيرة، كالكاليكو، والكانيكبي، والقطن الأبيض، والبفتة، والشاش، والكيكوي. علاوة على الأزرار والخرز والمرايا والحليّ الأخرى التي تُستخدم هدايا. فلما رأى حامد الموكب وعرف بأمر المقرضين، أصيب بنزلة برد شديدة. كانت عيناه تدمعان وجيوبه الأنفية تحتقن في وقت واحد تقريباً. وثمة قرع قويّ في رأسه يفرّغه من كلّ

ما فيه إلا صدهاء. كان ما يزال شريكاً في ذلك المشروع، فإن خسراً، ستؤول كل ممتلكاته وبضائعه إلى الدائنين.

كان محمد عبد الله ما يزال قائد البعثة. لم يلتئم كتفه الأيمن بعد، رغم أن مغانغا معروفاً عدّله على نحو شديد الإيلام. منعه ذلك الألم من التلويح بعصاه كما كان يفعل، ولذلك فقدت مشيته شيئاً من الخيلاء والوعيد. بدا ميلان رأسه الحادّ وتراجع كتفيه ضرباً من المبالغة والتصنع، فصار مبعث سخرية عليه. كانت عدوانيته فيما مضى تشبه الشرّ الذي لا يميّز بين شخص وآخر، أما الآن فقد بدت أقرب إلى مزاج رجل أجوف. بل إنّ حتى كلامه صار مختلفاً، إذ يبدو مُثَقَلًا ومنشغلاً في بعض الأحيان. كان العمّ عزيز يتلطّف معه في الحديث، بينما كان في السابق يتجاهله ويتركه ينجز عمله.

من آثار الزيادة في عدد الحمّالين أن اضطرّ محمد عبد الله إلى توظيف مشرف يساعده. كان هذا رجلاً طويل القامة قويّ المظهر من «موروغورو» ويُدعى مويني، نادراً ما يتحدّث في الأيام القليلة الأولى من انضمامه إلى القافلة. كان لفرط شراسته يُسمّى سيمبا مويني أو الأسد مويني، فكان يمشي متوهّجاً بين الرجال كأنما يريد أن يثبت استحقاقه لذلك اللقب. وقد تقرّر أن يرافقهم يوسف هذه المرة. تحدّث معه العمّ عزيز مبتسماً في سعادة، وقال له إنّه في حاجة إلى شخص يثق به. قال له: «لقد كبرتُ على البقاء هنا. ولن تجني من بقائك هنا إلا التلف والصحبة الفاسدة. أحتاج إلى شخص متوقّد الذهن كي يشرف على أعمالِي». أربكته هذه المجاملة، لكنّه استنتج أنّ حامداً هو الذي أراد ليوسف أن يرافق القافلة. كان قد سمعهما يتحدّثان عنه. ورغم أنّه لم يفهم كلّ ما قالاه بسبب انتقالهما أحياناً إلى

التحدّث بالعربيّة، إلّا أنّه سمع حامداً يقول للعمّ عزيز في الشرفه إنّّه صبيّ متوتّر وصعب المراس، يحتاج إلى أن يرى شيئاً من الحياة.

كرّر يقول: «صبيّ متوتّر وصعب المراس. إمّا أن تأخذه في الرحلة أو تزوّجه. لقد بلغ سنّ الزواج، إذ أتمّ السابعة عشرة قبل شهر. انظر إليه كيف كبر. لم يعد له شيء هنا يفعله».

هبتْ عاصفة عشية اليوم الذي يغادرون فيه. بدأتْ بريح قويّة في الصباح، أثارت سحب الغبار والغابات الجافة والأراضي المفتوحة. ومع منتصف النهار زاد الغبار حتّى غطّى على ضوء الشمس وغطّى كلّ شيء بطبقة من حبيبات الرمل. غير أنّ الريح خمدت في العصر فجأة، وحلّ صمت عظيم، وانكتمت أعلى الأصوات بذاك الغبار الكثيف. فحين يهّمون بالحديث تمتلئ أفواههم بالرمل. ثمّ هبتْ الريح ثانية، لكنّها هذه المرّة جلبت معها المطر في عواصف تدكّ المنازل والأشجار، وتنفضّ على أيّ شخص ما يزال باقياً في العراء.

وما هي إلّا دقائق حتّى استقرّ المطر في نوبات ثابتة، يقطعها تصدّع شجرة أو هزيم الرعد البعيد. تناثر الحمّالون والبضائع، وبدا من الصيحات والصرخات أنّ بعضهم قد أصيب. فلمّا حلّ الظلام في ساعات النهار، ناجى الحمّالون ربّهم وانتحبوا طالبين رحمته، فغضب محمد عبد الله.

صاح فيهم رغم أنّ صوته لم يصل إلّا لمن وقفوا بالقرب منه: «ولماذا يرحم الله حيوانات جاهلة مثلكم؟ ما هي إلّا عاصفة. فما بالكم؟». وراح يهزّ فخذه في تقليد ساخر للتأثّث، ويقول: «أوه، ثعبان أكل الشمس! أوه، هذا نذير شؤم! هذه علامة كارثة! أوه، ستمتلى

شوارعنا بالشياطين! لمَ لا تنشدون أغنية لإبطال السحر، أو تأكلون مسحوقًا مقرّفًا من أعمال ساحر؟ ألا تعرفون أيّ تعويذات؟ لمَ لا تذبحون عنزة وتقرؤون بطنها؟ كم أنتم مهووسون بالشياطين والطارق! وتسمّون أنفسكم رجالاً أصحاب شرف وإباء، وتتصرفون على هذا الأساس! هيّا، غنوا لنا أغنية تبطل السحر».

فصاح سيمبا مويني: «أمّا أنا فأتوكّل على الله. ليس الجميع هنا خائفين».

رمقه محمد عبد الله بنظرة طويلة، وهو واقف يتصبّب مطرًا. كأنما كان يحاول استيعاب ما قاله سيمبا مويني، والطريقة التي تحدّث بها. ثمّ تبسّم في خبث حريص، وأومأ برأسه. كان محمد عبد الله أثناء العاصفة يبدو كما كان في سابق عهده، ينطلق مغاضبًا بين الفوضى في تلذّذ. قال صائحًا في الحمّالين: «هيّا، هيّا. من الأفضل لكم أن تهدؤوا، وإلاّ جلدت مؤخراتكم بعصاي. انظروا إلى السيّد. فما يُمكن أن يخسره أكثر من أيّ واحد منكم. لا تملكون سوى حياة بائسة لا فائدة منها. أمّا هو فله ثروته، والأموال التي عهد بها الآخرون إليه. وعليه أن يتدبّر مصالحكم ومصالحه أيضًا. لقد حباه الله بعقل تاجر. ولديه بيت جميل يعود إليه. قد يخسر هذه الأشياء، ولكن هل ترونه يصيح كالدجاجة الحبلى؟ شياطين! لئن لم تكفّوا عن هذه الجعجعة وترتّبوا كلّ اللوازم والأكياس لأنزلنّ عليكم مئة شيطان وألف عفريت. هيّا!».

لم يهدأ المطر إلّا في وقت متأخّر من الليل، وعندها كانت المنازل قد انهارت، والحيوانات جُرّفت وغرقت في بركٍ تزدُّ بغضب العاصفة. انفجرت أسطح المنازل الخارجيّة، وتحطّمت إحدى أشجار الخبز في

الساحة. وقال حامد إنّ معجزة حدثت فلم يتضرّر أيّ بيت من بيوت الحمام. ظلّت المصاييح المغطّاة مضاعة في الفناء حتّى ما بعد منتصف الليل، بينما أخذ الحمالون والحراس ينقذون ما يمكن إنقاذه. كانوا يتحدثون بمرح، يتبادلون صيحات السخرية أو السباب. يصيحون في دهشة من أثر الدمار الذي حدث، لكنّه لم يكسر عزيمتهم.

في الصباح، وحين أصبح كلّ شيء جاهزاً، أعطى العمّ عزيز إشارته. «هيا. انطلقوا بنا إلى الريف». تقدّم المنيابارا، مسوياً قامته رغم الألم الذي يعاني منه في كتفه، رافعاً رأسه بشموخ أصحاب الأصول الكريمة. كان يعلم أنّه من الصعب أن يتصرّف بكبريائه القديمة، لكنّه كان يرجو أن يُظهر ما يكفي من المهابة أمام الحثالة المأجورين والهمج المغبرّين الذين سيلاقونهم في الطريق. وعلامة على تميّز هذه الرحلة، فقد رافق الطبل والسيوة عازفاً بوق، فشكّلوا جميعاً أوركسترا صغيرة. كانت السيوة هي التي تعلو أولاً، فتحرّك نغماتها الطويلة الجلييلة شيئاً من الحنين الخفيّ في كلّ من يسمعها، ثم يبدأ العازفون الآخرون، فيحركون قلوب المسافرين وهم ينطلقون في رحلتهم.

وقف حامد على الشرفة ينظر إليهم وهم يغادرون، في خوف وقلق. وتذكّر يوسف ما قاله حسين عن حامد، بأنّه متورّط في شيء أكبر من قدرته، وتساءل في نفسه ما إذا كان حامد يفكر في الأمر نفسه. تخيل يوسف ذلك الناسك فوق الجبل، ينظر من عليّ ويهزّ رأسه أسفاً على حماقتهم. كان ابنا حامد يقفان إلى جانبه، أمّا زوجته وعاشة فلم تكونا هناك. ولا حتّى كالاسنغا الذي كان يوسف يرجو أن يحضر لرؤيتهم وهم يغادرون. كان قد ذهب إليه ليخبره عن الرحلة، فتغنّى كالاسنغا بفوائد السفر وحملّه نصائح غريبة. لا تنسَ أن تضع قطرة

زيت في أذنك مرة في الأسبوع لمنع الحشرات من وضع البيوض فيها. تخيله يوسف، حتى اللحظة الأخيرة، يثرّ بشاحنته صوبهم على الطريق الموحد، ثم يقفز منها كي يحييهم وهم ماضون. كان كالاسنغا دائماً ما يلقي التحية في الأوقات المهمة. قال يوسف في نفسه بعد أن تذكر ضحك الحمّالين على عمامته ولحيته المجدولة: لعلّ من الحكمة أن يبقى بعيداً.

لم يقطعوا مسافة طويلة في يومهم الأول، فكانوا قانعين بمجرد الوصول إلى منطقة بعيدة عن البلدة. تدمّر الحمّالون ممّا أصابهم من تعب في تلك الليلة العاصفة، لكنّ محمد عبد الله أجبرهم على المسير بصيحاته ووعيده. وفي وقت مبكر من العصر نصبوا مخيمهم كي يتدبّروا في أوضاعهم ويستعدّوا لما هو قادم. كانت العاصفة قد بلّت الأرض وسوتها، فبدت ممتلئة مكتنزة بالماء. التمعت الأشجار والشجيرات في ذلك الضوء الصافي، وتناهدت من أماكن خفية أصوات تصدّع خافت وعدّو متعجّل، وكأنّ الأرض نفسها تهتّز فتولد فيها الحياة. خيموا عند بحيرة صغيرة، تمخّضت أطرافها بآثار أقدام الحيوانات.

حاول يوسف في أوّل الأمر أن يخفي نفسه بين الحمّالين، وأن يجعل بينه وبين العمّ عزيز مسافة لأسباب لم يتفكّر فيها. لكنّ محمد عبد الله رآه في وقت مبكر فأعاده إلى الخلف حيث ربّت العمّ عزيز على قفاه وتبسّم له. وسرعان ما استوعب يوسف من المهام التي كان يكلفه بها العمّ عزيز أنّ هذا مكانه. فبعد أن توقّفوا في عصر ذلك اليوم، كان يوسف في خدمة التاجر، يفرش له الحصير، ويجلب الماء، ثم ينتظر الطعام على مقربة. أمّا العمّ عزيز فبدأ غافلاً عن تلك الروح

الصاخبة، إذ تحدّق عيناه في هدوء في منظر الريف، كأنما كلّ معلّم من معالم المشهد الذي أمامه قد هيأ نفسه لاهتمامه وتمحيصه.

وما إن استقرّ المخيم حتّى جاء المنيابارا ينضمّ إلى العمّ عزيز، فجلس قبالة على الحصير. قال العمّ عزيز وهو يشيح ببصره على مضض: «حين تنظر إلى هذه الأرض يملؤك الشوق. شوق خالص برّاق. قد يخطر لك أنّ سكّانها لا يمرضون ولا يشيخون، وأنّ أيّامهم مليئة بالرضا والسعي إلى الحكمة».

قهقه محمد عبد الله وغنى ساخرًا: «لو أنّ هناك فردوسًا على الأرض، فهي هنا، هنا، هنا». فتبسّم له العمّ عزيز.

سرعان ما انتقل الحديث بينهما إلى العربيّة، وهما يلوحّان بالأذرع في جدال حول الطرق التي ينبغي للقافلة أن تسير فيها. تجوّل يوسف في المخيم، ومرّ من أمام أكوام البضائع ومجاميع الرجال الذين تحلّقوا حول أغراضهم ونيرانهم الصغيرة. لقد تحوّل المخيم إلى قرية صغيرة في تلك الساعات القليلة التي قضوها هناك. ناداه بعض الرجال، داعينه إلى شرب الشاي، أو إلى شيء أقلّ تأدّبًا. أمّا المجموعة الأكبر فكانت تلك التي فيها سيمبا مويني، إذ اتكأ إلى الأكياس فيما مال الآخرون إلى الأمام كي يستمعوا إلى حكاياته عن الألمان. تحدّث بإعجاب عن صرامتهم وتصلّب رأيهم. وقال إنهم لا يتهاونون في معاقبة كلّ تقصير، مهما توسّلت لهم أو وعدت بتقويم نفسك.

«عندنا، إذا تاب المذنب استنكرنا أن نعاقبه، لا سيّما إن كانت العقوبة شديدة. فسوف يأتي الناس يتوسّلون من أجله ويشفعون له، وكلّنا لدينا أحباب يحزنون علينا. أمّا الألمانى فهو عكس ذلك. فكلّما

اشتدّت العقوبة، ازداد إصراره وقلّ غفرانه. وعقابه دائماً شديد. أعتقد أنهم يحبّون العقاب. فإن قرّر الألمانى عقابك، لن يشفع لك شيء حتّى وإن تورّم لسانك من التوسّل، وسوف تجده واقفاً أمامك بوجه لا يخجل ولا يلين. وحين يضجر منك، تعرف أنّه ما من سبيل أمامك سوى أن تتلقّى عقوبتك. هذا سرّ نجاحهم في إنجاز ما يفعلونه؛ إذ لا يسمحون لشيء بصرف انتباههم».

فلما حلّ الظلام امتلأ المكان بخوار الحيوانات التي جاءت إلى الماء كي تشرب وتأكّل. ولم يجد يوسف إلى النوم سبيلاً، من أثر الخوف والقلق. كان من المدهش أن يقيموا هناك على سفح تلّ بارد في جوف الليل، فيما تجارّ الحيوانات الجائعة وتشخر على مقربة منهم. غير أنّ الجميع بدوا نائمين، ما عدا الحراس الذين تحصّنوا خلف أكوام البضائع. وخطر ليوسف أنّهم ربّما لم يكونوا نائمين، بل مستقلّين في صمت مضطرب.

5

كانت الأرض تتغيّر كلّ يوم حولهم وهم يهبطون من أعالي الجبل، فيجدون المستوطنات وقد قلّت كثافتها كلّما ازداد الجفاف. وخلال أيام قليلة وصلوا إلى الهضبة، فأثاروا سُحباً من غبار ورمل مع كلّ خطوة يخطونها. هناك كانت الأجمات المتناثرة متغصّنة ملتوية، كأنّما وجودها نفسه كان عذاباً. نصبتُ كذلك أغاني الحمّالين ومعنوياتهم، وهم يفكّرون في الريف القاسي الذي يدخلون إليه. ثمّ دبّت فيهم الحياة حين رأوا قطعاناً كبيرة من بعيد، إذ أخذوا يتجادلون بينهم عن

نوعها. في تلك الأيام الأولى شعر يوسف بما يشبه الغثيان، وتآلم من أثر الإرهاق والحمى. مزق الشوك كاحليه وذراعيه، وامتلاً جسمه بلدغات الحشرات. تساءل في نفسه كيف يمكن لأيّ كائن أن يعيش على أرض كهذه شديدة القسوة. كانت صيحات الحيوانات ليلاً تفرّعه من نومه وتلقي به في كابوس، وكثيراً ما اختلط عليه الأمر صباحاً ما إذا نام طوال الليل أم كان يرتعد من الخوف. لكنهم مرّوا بأناس ومستوطنات على ذلك السهل، يبدون ذاوين كالأجمات، وكلّ شيء في أجسادهم مهزول إلى حدّ الحاجة الأساسيّة لا أكثر. أوصاهم العمّ عزيز بتقديم هديّة بسيطة لكلّ مستوطنة يمرّون بها، لإبداء حسن النوايا وجمع المعلومات.

بدأ يوسف يفهم سبب تسميتهم للعمّ عزيز بالسيّد. فعلى الرغم من كلّ شيء، كان يحافظ على هدوئه، ويصليّ الصلوات الخمس في وقتها، ودائماً ما يبدو مستمتعاً بانفصاله عمّا حوله. أقصى ما يبدّر منه عبوس حين يحدث تأخير ما، أو وقفة صارمة بنفاد صبر حين تحدث مشكلة. لم يكن يتحدّث كثيراً، إلّا مع محمد عبد الله الذي يتداول معه أحاديث طويلة في نهاية اليوم. لكنّ يوسف شعر بأنّه كان مطلّعاً على كلّ شيء مهمّ يحدث. فكان يوسف يراه بين الفينة والأخرى يضحك ضحكة مكتومة وهو ينظر إلى تهريج الحمّالين، وذات مرّة دعاه إلى حصيرته بعد أن فرغ من صلاته ووضع يده على كتفه. سأله: «هل تفكّر في والدك؟». لم يحر يوسف جواباً. انتظر العمّ عزيز لحظات ثمّ تبسّم لصمت يوسف.

اهتمّ المنيا بارا بيوسف اهتماماً خاصّاً؛ فكان يستدعيه كلّما وجد شيئاً يريد ليوسف أن يراه، فيشرح له سحر الأرض التي يمرّون بها

وأسرارها. وقال الحمّالون ليوسف إنّ المنيا بارا سيركبه عمّا قريب.
«إنّه يحبّك، ومن لا يحبّ غلامًا وسيماً مثلك؟ لا بدّ من أنّ ملاكًا قد
زار والدتك».

وقال سيمبا مويني ضاحكًا وهو يرسم على وجهه تعبير المتيمّ
بالحب كي يضحك الآخرون: «ها قد وجدتَ لنفسك زوجًا جميلًا!
ماذا عنا نحن؟ لا يستحقّ ذلك الوحش القبيح وسامتك. تعال دلّكني
في الليل وسوف أريك معنى الحب». كانت هذه أوّل مرّة يتحدّث فيها
سيمبا مويني إليه على هذا النحو، فقطب يوسف جبينه في دهشة.

كان سيمبا مويني قد أصبح محبوبًا بين الحمّالين والحراس، إذ
كانت دائمًا ما تتحلّق حوله مجموعة صغيرة وكأثهم مجلس في بلاط.
أمّا رئيس ذلك المجلس فكان رجلًا قصيرًا مكور الهيئة يُدعى نيوندو.
كان هو الذي يقود الضحك والمديح، ويتبع سيمبا مويني بإخلاص
قدر ما يستطيع. حين يقف محمد عبد الله وسيمبا مويني معًا، يتخفّى
نيوندو عن عين المنيا بارا ويقلّد حركاته، فيُضحك الحمّالين الآخرين
ويحدّق في أولئك الذين لا يستملحون طرائفه. وكان يوسف يعلم أنّ
محمد عبد الله يراقب سيمبا مويني، ويتحدّث عنه عند العمّ عزيز. فقد
كان يوسف يُستدعى للجلوس معهما على الحصر في اجتماعهما
المسائي، رغم أنّه كان ينسلّ خارجًا كلّما سنحت له فرصة، كي يستمع
إلى الحكايات التي يرويها الحمّالون. يستشيط محمد عبد الله غضبًا
لأنّ يوسف لا يعرف العربيّة، لكنّه يترجم له خلاصة ما يجده لافتًا في
الحديث.

قال له ذات مساء وهو ينظر إلى مجموعة صاخبة تتحلّق حول
سيمبا مويني: «انظر جيّدًا إلى ذلك الثرثار. لديّ شوكةٌ كبيرة في حلقة،

وسأجعله يتلوّى ألمًا لو كان يدبّر أمرًا. لقد قتل رجلًا، ولهذا السبب هو هنا في الرحلة، كي يجني ما يكفي من المال ليدفع دية القتل، أو ليهلك إن أراد الله. أنا الذي أوصيت بمنحه هذه الفرصة كي يخلص نفسه، وإلا لكان أهل القتل قد سلموه للألمان من أجل القصاص. والألمان كانوا سيشفقونه قبل حتّى أن يبصقوا في وجهه. يحبّون هذه الأشياء. فما إن تجلب لهم قاتلاً حتّى تشعّ أعينهم سرورًا وهم يجهّزون المشنقة. هو الذي جاءني وأفضى إليّ بقصّته، فوافقت على أخذه معنا. انظر إليه الآن. لست مرتاحًا لهذا السيمبا مويني. ثمة عنف في عينيه. جنون. يسعى وراء المشكلات. يبدو وكأنّه جوع أو شغف، لكنني أظنّ أنّه يحنّ إلى الألم. ستُخرج الرحلة ما في داخله. فلا شيء يكشف ضعف الرجال مثل قضاء أشهر بين الهمج».

كما علّمه محمد عبد الله عن طبيعة عملهم. قال: «هذا ما خلّقنا لنفعله. التجارة. نذهب إلى أجفّ الصحارى وأحلك الغابات، ولا يضيرنا أن نتاجر مع ملك أم واحد من الهمج، ولا يهّمنا متنا أم حيننا. الأمر سواء عندنا. سترى بنفسك مناطق لم تضخّ التجارة فيها الحياة بعد، ولذلك يحيا أهلها كالحشرات المشلولة. لا يوجد أذكى من التجّار، ولا حرفة أنبل من التجارة. فهي التي تمنحنا الحياة».

أخبره أيضًا أنّهم يتاجرون غالبًا في القماش والحديد. الكانيكي والماريكاني والبفتة، وكلّ أنواع القماش. وكلّها أفضل من جلد الماعز التتن الذي يرتديه الهمج إنّ تركوا لحياتهم، هذا إنّ ارتدوا شيئًا من الأساس، فالله قد نزع الحياء من الوثنيين كي يمكن للمؤمنين أن يعرفوهم ويعرفوا كيف يتعاملون معهم. على هذا الجانب من البحيرة يمتلئ السوق بالقماش، رغم أنّ الطلب على الحديد مستمرّ أيضًا،

لا سيّما بين الفلاحين. أما وجهتهم الحقيقية فهي الجانب الآخر من البحيرة، في بلد يُسمى «مانيمما»، في أعماق البلد الجبليّ المظلم والأخضر. فهناك ما يزال القماش أكثر السلع تداولاً. ذلك أنّ الهمج لا يتاجرون من أجل المال، فما الذي قد يفعلونه بالنقود؟ أخبره أيضاً أنّهم يحملون معهم بعض الملابس، وإبر الخياطة، وأنصال المعاول والسكاكين، والتبغ، ومخزون مخبوء من البارود والطلقات يقدّمونها هدية خاصة للسلّاطين ذوي المراسم الصعب. قال المنيابارا: «قد يفشل كلّ شيء في إقناعهم، إلّا البارود والطلقات».

كانوا يتوجّهون إلى جنوب الغرب حتّى البحيرة، وهو ريف يعرفه التجّار جيّداً، لكنّه كان واقعاً تحت النفوذ الأوروبيّ. كان عدد أولئك الكلاب قليلاً هناك، لذلك ظلّ الناس يعيشون على طريقتهم، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ الأوروبيّين قد يأتون في أيّ لحظة. قال محمد عبد الله وهو ينظر إلى العمّ عزيز في انتظار تأكّيده: «لا شكّ في أنّهم مذهلون، هؤلاء الأوروبيّون».

فقال التاجر بعينين وضّاءتين، مستطيلاً حماس المنيابارا: «وكّل أمرك لله».

«يا لتلك الحكايات التي نسمعها عنهم! عن قتالهم في الجنوب، والسيوف الجميلة والبنادق الرائعة الدقيقة التي يصنعونها. يُقال إنّهم يأكلون المعادن ولهم سلطان على الأرض، لكنّي لا أصدّق ذلك. إنّ كانوا يستطيعون أكل المعادن، فهم قادرون على أكلنا وكلّ ما في الأرض. لقد أبحرت سفنهم في كلّ بحار الدنيا، وقد تبلغ السفينة أحياناً حجم بلدة صغيرة. هل رأيت واحدة من سفنهم قطّ يا سيّد؟ أنا رأيت واحدة في ممباسا قبل بضع سنين. من علّمهم ذلك؟ سمعت

أَنَّ بيوتهم مصنوعة من أرضيات رخام تلتمع بشدة حتى أَنَّ المرء ليرفع إزاره خشية أن يبتل. لكنهم مع ذلك يبدون كالزواحف المسلوخة، ولهم شعر ذهبي، كالنساء أو كدعابة سخيفة. حين رأيت واحداً منهم أوّل مرّة، كان جالساً على كرسيّ تحت شجرة في وسط الغابة. ذكرت اسم الله، خشية أن يكون شيطاناً. وبعد لحظة أدركت أَنَّ هذا الكائن الشبحيّ واحد من أشهر الذين يهلكون الأمم».

سأله يوسف: «وهل تحدّث معك؟»

فقال محمد عبد الله: «كلام لا يعرفه البشر. لعلّه دمدم بشيء. رأيت سحب الدخان تخرج من فمه. قد تكون من الجنّ، فالله خلقهم من نار».

أدرك يوسف أَنَّ المنيابارا كان يهزأ به، ورأى ابتسامة على فم العمّ عزيز. فقال هذا: «إنّ كان الجنّ هم الذين سيّدوا الأهرام، فهم قادرون على بناء سفينة كبيرة في حجم بلدة، أليس كذلك؟».

فقال محمد عبد الله: «ولكنّ ما الذي دعاهم إلى قطع هذه المسافات إلينا؟ وكأنّ الأرض انشقت وقذفت بهم. لعلّهم حين يتتهون من أمرنا، تنشق الأرض مرّة أخرى فتبتلعهم وتلقي بهم في أراضيهم، في الجانب الآخر من العالم».

قال التاجر وهو يتمدّد على الحصير مستعدّاً لقيلولته: «بدأت تتحدّث كالعجائز. لقد جاء بهم ما جاء بنا إلى هنا».

6

كانوا كلّما استطاعوا خيّموا قرب مستوطنة، كي يقايضوا أهلها، فيحصلون على الطعام ولا يستنفدون مؤونتهم. وكلّما ابتعدوا في

الريف اضطُروا إلى دفع المزيد مقابل الدقيق أو اللحوم. وفي اليوم الثامن من رحلتهم خيموا قرب مجموعة صغيرة من الأشجار، وأمروا لأول مرة ببناء حاجز خوفًا من الحيوانات. تدمر الحمّالون، كعادتهم حين يُطلب منهم أيّ عمل في نهاية اليوم، وقالوا إنّ الأجمة مليئة بالأفاعي. عندها، رفع سيمبا مويني سيفه المقوّس وشقّ طريقًا بين الأشجار، فأشعر الآخرين بالخزي لأنّهم لم يفعلوا مثله. هكذا راحوا يقطعون الشجيرات ويُبعدون الأغصان الميّتة كي يصنعوا حاجزًا يبلغ ارتفاعه قرابة أربع أقدام. كانوا في ذلك الوقت يقتربون من قرية «مكاتا»، حيث يوجد معبر النهر أمامهم. وقد سمع التاجر شائعات عن قافلة هاجمها أهل القرية قرب النهر، فخشي المجازفة. أرسل في الصباح رجلين يتقدّمان القافلة، يحملان هدايا لسلطان مكاتا. كان التاجر يخاطب كبير القرية المتواضع بلقب السلطان، ويتحدّث إليه باحترام.

غير أنّ هديّته (المكوّنة من ستّ قطع من القماش ومعوّلين) رُدّت، برسالة مفادها أنّ سلطان مكاتا يريد جميع البضائع تحت تصرّفه، فيختار منها ما يشاء، لا سيّما إنّ كانت الهدية جزية من أجل المرور عبر أراضيهم. فضحك العمّ عزيز من طلب السلطان، وضاعف له العطاء. بحلول هذا الوقت كانت القافلة قد توقّفت على بعد أقلّ من كيلومتر من القرية، فاستبدّ الفضول بالأطفال وأخذوا ينظرون إليها من بعيد. عاد الرسول برسالة مفادها أنّ سلطان مكاتا لم يقبل الهدية، وأوصاه بالقول إنّ رجل فقير ولا يريد أن يُضطَرّ إلى فعل شيء قد يندم عليه. فضاعف له التاجر العطاء مرةً أخرى وقال: «قل للسلطان إنّنا جميعًا فقراء. وليتذكّر أنّ معظم أهل الجنة من الفقراء، ومعظم أهل النار من أصحاب الجشع».

وانقضت بقية اليوم مع هذه الرسائل المتبادلة إلى أن ارتوت الكرامة والجشع. وصلوا إلى النهر عصر ذلك اليوم، وبينما هم واقفون إلى جانب الضفة رأوا امرأة تخوض النهر فانقضّ عليها تمساح. هرع أهل القرية والقافلة إلى موضع الصراع حيث يزبد الماء، لكنهم لم يتمكنوا من إنقاذها. انغمس أهل القرية في البكاء عليها، في المياه الضحلة وفوق الضفة، يشيرون بغضب إلى الضفة الأخرى التي عاد إليها التمساح. أما أقاربها فقد ألقوا بأنفسهم في الماء حزناً عليها، فأخرجهم الآخرون الذين ظلّ بعضهم يراقب في حذر من تماسيح أخرى.

كان نهراً كبيراً، لكنّه ضحل المياه عند مكاتا. وكانت ضفتاه الموحلتان العريضتان تجتذبان قطعان الحيوانات وأسراب الطيور. هكذا كان المسافرون يسمعون في الليل أصواتاً في الماء وفي الأشجار، بل إنّ بعض الحمّالين كانوا يخيفون بعضهم بعضاً بالصراخ وكأنّ حيواناً هاجمهم. ذبح سلطان مكاتا معزاتين ودعا التاجر إلى اصطحاب شخص معه ليتناولوا الطعام. لكنّه كان متجهماً طوال الوقت، لا يصرّ على ضيوفه ليأكلوا، بل يأكل ما يريد ويترك ضيوفه ليأكلوا إن شاؤوا. كان السلطان رجلاً نحيفاً ذا شعر قصير أبيض، وعينين محمرّتين تنتشر العروق فيهما. يتحدّث السواحلية بصعوبة، وبلكنة مربكة، لكنّ يوسف كان يفهم كثيراً مما يقوله. قال: «لقد أتيتم بالمصائب معكم. المرأة التي أكلها التمساح اليوم كانت محمية من الماء والتماسيح. لم يحدث في سنواتي الطويلة كلّها أن أكلت التماسيح أحداً. ولم أسمع بحدوث ذلك في الأزمان التي سبقتنا». ظلّ يتحدّث عن المرأة بلا انقطاع، وعيناه تجولان فوقهما تحت ضوء النار المتقافز. ولم يتحدّث إليهم أحد من أهل القرية، رغم أنّ

أصواتهم كانت تعلو وتعلو عند أطراف الضوء. ورأى يوسف أن العمّ عزيز يميل إلى الأمام في تأدّب أثناء حديث السلطان، ويومئ برأسه بين الحين والآخر في تعاطف أو موافقة. وتابع السلطان قائلاً: «كثير من الناس مروا من هنا من أجل المعبر، لكنكم أنتم فقط من جاء بالشرّ معه. فإن لم تأخذوه معكم حين ترحلون، ذهبت أرواحنا في مهبّ الريح دونما سبب».

قال التاجر في هدوء: «وكّل أمرك لله».

فقال السلطان وهو يصرفهم: «سنرى غداً ما يمكننا أن نفعله لإصلاح ما أفسدتموه».

قال محمد عبد الله: «الهمجيّ القذر ابن الحرام!». اقترب اثنان من حملة المشاعل، وبدا الجميع في حالة من التحفّز. «احذروا، وإلاّ وجدتم أنفسكم من دون أزبابكم قبل انقضاء الليل. مُضيفنا الطيّب يريد أن يقدّم قرباناً لأرواحه القذرة، وربّما يفكر في حفنة من رجولتكم يلقي بها إلى التماسيح في منتصف الليل. فليحمنّا الربّ من الشرّ».

فقال العمّ عزيز ليوسف لاحقاً وهو يبتسم كي يرى ردّ فعله على ذلك التجديف: «وما أدراك، لعلّه لا يقلّ نفعاً عن بقيّة الأدوية!».

في تلك الليلة رأى يوسف في منامه أن كلب كوابيسه قد زاره مرّة أخرى. حدّثه الكلب بوضوح، فاتحاً فمه الطويل مكشّراً عن أسنانه الصفراء. ثمّ فرشخ بطنه المفتوحة بحثاً عن أسراره الدفينة.

فلما حلّ الفجر اندلع صراخ وعويل مستميت في المخيم، واكتشفوا أنّ ضباغاً هاجمت أحد الحمّالين والتهمت معظم وجهه، فسال الدم وسوائل لرجة ممّا تبقى منه. تخبّط الرجل على الأرض في جنون، وألم

لا يمكن تصوّره. هرع الناس من كلّ مكان كي يشاهدوا ما حدث، ومن بينهم أطفال كانوا يتملّصون هنا وهناك كي ينظروا من قريب. وجاء السلطان أيضًا، ثمّ وقف بعيدًا بضع دقائق قبل أن يعود ويفصح عن رضاه بإصلاح ما أُفسد في الأمس. لقد أرسلت تلك الحيوانات لطرد الشرّ الذي جلبته القافلة على قريتهم، ويمكن للمسافرين الآن أن يرحلوا، شريطة ألا يمرّوا بقريتهم مرّة أخرى. نظر السلطان إلى يوسف وقال إنّه كان يظنّ أنّ ذلك الشاب هو الذي سيُقدّم لهم. فذلك هو المقابل المناسب للمرأة التي راحت، إذ كانت محبوبة جدًا.

جلس رجلان مع الحمّال الجريح، يكيان وهو بين أيديهما، فيما كان أهل القرية يجبرون القافلة على عبور النهر. وحين جاء الوقت لنقل الجريح، رفض السلطان أن يسمح له بالرحيل. عرض التاجر الهدايا واحدة تلو الأخرى، لكنّ السلطان لم يقبل. لقد أصبح الجريح ملكًا لهم. الأرض هي التي منحتهم إياها.

مات الرجل فجأة عصر ذلك اليوم، بين آهاته التي تنقطع، وجرحه مغطى بما تسرّب من دماغه. دفنوه فورًا على مبعده من القرية، في المكان الذي كانوا يدفنون فيه الأشرار أو المنبوذين، أولئك الذين لم يريدوا أن تحوم أرواحهم المضطربة في حيواتهم. وبينما كان آخر المسافرين يعبرون النهر عند الغسق، تجمّع السلطان وأهل القرية تحت الأشجار عند ضفّة النهر، يستعجلون رحيلهم. أعين التماسيح وأفراس النهر متيقّظة فوق صفحة الماء، فيما تتهادى صيحات الطيور من الضفّة الأخرى التي غرقت في الظلام.

عُين المزيد من الحرّاس في تلك الليلة، وأشعلت نيران كثيرة لبتّ الشجاعة في الرجال. وجلس التاجر على حصيرته في صمت، يدعو

للرجل الذي فقدوه. أخرج من صندوقه مصحفًا صغيرًا قرأ منه سورة يس على روح الفقيـد، على ضوء مصباح معلق في غصن شجرة. ودار المنيابارا وسيمبا مويني بين الرجال، يتحدثان معهم في غلظة حينًا، ويحاولان إخراجهم من ذعرهم. أمّا يوسف فقد آوى إلى النوم فورًا، لكنّ الكوابيس جاءت تقضّ مضجعه. استيقظ مرّتين بصيحة على شفّتيه، فنظر حوله ليرى ما إذا تنبّه أحد على ذلك. كانت القافلة جاهزة للمسير مع طلوع النهار، والمنيابارا يصرخ في الجميع بأن يكونوا على أهبة الاستعداد. ثمّ قال ليوسف بهدوء: «هل لدغتك أفعى البارحة؟ أم احتلمت؟ يَقيظ أيّها الشاب. لم تعد صبيّا».

وبينما كان يوسف يساعد العمّ عزيز في استعداده للرحيل، أوقفه هذا بسعلة خفيفة. ثمّ قال: «عاد إليك القلق البارحة. هل أقلقك كلام السلطان؟»

فوجئ يوسف فلم ينبس ببنت شفة. عاد! عاد القلق! شعر وكأنّه ضُبط متلبّسًا في ضعف لا يمكن علاجه. أتراهم كلّهم علموا بالكلاب والوحوش والفراغ عديم الشكل التي كانت تأتي لتتزع روحه ليلاً؟ لعلّه كان يصرخ كثيرًا، فيضحك الرجال عليه.

قال له التاجر: «وكّل أمرك لله. لقد وهبك الله نعمة».

كانت الأرض خصبة والبشر فيها أكثر على الجانب الآخر من النهر. ارتفعت معنوياتهم في البدء لرؤية الأراضي الخضراء. كانت الأجسام تهتزّ بالطيور، إذ تنتشر ألحانها الصاخبة في ساعات النهار الباردة. أشجار قديمة ترتفع فوقها، يتخلّلها ضوء خفيف إلى الشجيرات الصغيرة في التعريشات. غير أنّ الشجيرات اللامعة كانت تخفي

متسلّقات شائكة، تشتبك مع الكروم السامّة، أمّا الظلال الجذّابة فكانت مترعة بالأفاعي. كانت الحشرات تلدغهم ليل نهار، فيما تقطّع ملابسهم وجلودهم من أثر الأشواك، ناهيك عن الأمراض الغريبة التي أصيبوا بها. واضطّروا في كلّ يوم تقريبًا إلى دفع جزية أعلى فأعلى للسلّاطين كي يسمحوا لهم بالمرور. حاول التاجر أن ينأى بنفسه عن المفاوضات قدر الإمكان، ينتظر وحيدًا في صمت كثيب بينما يساوم محمد عبد الله وسimba مويني على المرور. وبدأ في بعض الأحيان كأنّما السلّاطين يفضلون استغزاز المنيا بارا ومشرفه للوصول إلى اتفاق. أمّا يوسف فكان يرى أنّ الناس كانوا أحرص على إبداء كرههم للزوّار.

كانت بلدة «تياري» (وجهتهم الأولى) على بعد بضعة أيّام لا أكثر، وكان أهلها يدركون حجم الفوضى التي يمكن أن يسببها للقافلة، فانتظروا أن يحصلوا على مقابل مجز لإبداء حسن النوايا. كان الطعام وفيرًا ويمكن الحصول عليه بمقابل باهظ. هكذا كان التاجر يشتري الدجاج والفاكهة كلّ يومين، إذ كان يعلم أنّ الحمّالين سوف يسرقون من أهل القرية إن حُرّموا من الطعام، ما يفضي إلى الشجار والحرب.

كان شعب المحاربين في الجانب الآخر من الجبل يغيرون على هذا المكان، يروون رماحهم وسِماهم بالدم⁽¹¹⁾، ويسلبون الماشية والنساء. وصلوا في اليوم السابع من انطلاقهم من النهر إلى قرية تعرّضت لغزو قبل يومين. كانوا قد رأوا وشعروا بالخراب الذي حلّ بالقرية من قبل الوصول إليها، عبر سحب الدخان المتصاعدة في

(11) السِمة: ترجمة مقترحة لكلمة «simi» بالسواحلية، والتي تعني السيف القصير. (المترجم)

وسط النهار، والطيور السود التي تنعق في السماء. فلمّا وصلوا إلى القرية المنكوبة لم يروا إلّا بضعة ناجين مصابين ومشوّمين تحت ظل الشجر. أحرقت أسقف البيوت كلّها. وتفجّع الناجون على فقدان من قُتلوا، وكثيرين ممن سباهم الغزاة. كان بعض شبابهم قد فرّوا أثناء الغارة، وأخذوا بضعة أطفال معهم. ومن يدري إنّ كانوا سيستطيعون العودة مرة أخرى. لم يحتمل يوسف النظر إلى تلك الجروح المفزعة وقد انتفخت من أثر الأمراض. حين رأى تلك المشاهد تمنّى لو تنتهي الحياة فوراً، فلم يسبق له أن رأى أو تصوّر شيئاً كهذا. كانت الجثث في كلّ مكان، في الأكواخ المحروقة، وعند الأجمات، وتحت الأشجار.

أراد محمد عبد الله أن يغادروا بأسرع وقت ممكن، خشية إصابتهم بالأمراض أو عودة الغزاة. وذهب سيمبا مويني إلى التاجر يطلب منه الإذن بدفن الموتى، واقترب منه كثيراً حتّى أنّ التاجر تراجع للوراء. قال سيمبا مويني: «من تبقى منهم لا يستطيعون إنجاز المهمة وهم على هذه الحال».

فقال محمد عبد الله وقد فقد أعصابه: «اتركهم إذن للحيوانات. لا شأن لنا بهذا. معظم الجثث متعفّنة ونصف مأكولة أصلاً...».

وقال سيمبا مويني بصوت خفيض: «لا ينبغي لنا أن نتركهم هكذا».

فقال محمد عبد الله وهو ينظر إلى التاجر: «سنصاب بالأمراض. فليأت إخوتهم وينجزون هذا العمل المقرّف. هم مختبثون في الأدغال. حين يعودون سينقلبون علينا بخرافاتهم ويقولون إنّنا انتهكنا حرمة موتاهم. ما لنا وهذا؟»

قال سيمبا مويني: «نحن إخوتهم، من دم أبينا آدم»، فتجهّم محمد عبد الله في دهشة، لكنّه لم يقل شيئاً.

سأله العمّ عزيز: «ما الذي يهّمك في الأمر؟»

فقال سيمبا مويني في غضب: «إكرام الموتى».

ضحك التاجر وقال: «حسنٌ. ادفنوهم».

فقال المنيا بارا: «فليملأ الله عينيّ ببراز الضباع، ويقطّعي إرباً إن لم يكن هذا رأياً سيّئاً وخطراً. ما دامت هذه رغبتك يا سيّد... لكنّي لا أفهم الداعي إليها». فسأله العمّ عزيز بلطف: «ومتى كنتَ تخاف من الخرافات يا محمد؟»

ألقي المنيا بارا نظرة سريعة جريئة إلى التاجر، وقال لسيمبا مويني: «حسنٌ. عجّل إذن، دون مخاطرة أو بطولة. إنّما هم همج يفعل بعضهم هذا ببعض طوال الوقت، ولسنا هنا لنؤدّي دور القديسين».

قال العمّ عزيز: «اذهب معهم يا يوسف وانظر إلى خِسة البشر وحماقتهم».

هكذا حفروا حفرة غير عميقة عند حافة القرية، يلعنون الأقدار التي أتت بهم إلى هذا الحدث الشنيع. أمّا أهل القرية فكانوا يراقبونهم وهم يعملون، يبصقون في اتجاههم بين الحين والآخر، كيفما اتفق، وكأنّهم لا يقصدون الإساءة. ثمّ جاءت اللحظة التي خشيها الرجال، حين كانوا يرفعون الجثث المشوّهة ويلقون بها إلى الحفرة. وانطلق العويل الفادح بين أهالي القرية حين امتلأت الحفرة. فلمّا انتهى الأمر، وقف سيمبا مويني إلى جانب القبر، يحدّق في أهل القرية باشمئزاز.

بَوَابَاتِ الْاَلْهَبِ

وصلت القافلة بعد ثلاثة أيّام إلى النهر، على مشارف «تياري». وقد أدرك يوسف حتّى من المسافة البعيدة أنّها بلدة كبيرة. ألقى الرجال بحمولتهم، واندفعوا إلى النهر في صيحات الحماس. كانوا يتراشقون بالماء، ويتعاركون كالأطفال. قلة منهم سيُنهون رحلتهم هنا، وسوف تنتقل عدوى هذا الترقّب للخلاص إلى البقية أجمعين. بعد أن انتعش الحمّالون في الماء واغتسلوا، عادوا إلى حمولتهم بابتسامات طويلة. عمّا قريب! تحرّك المنيابارا وسيمبا مويني في القافلة، يتأكّدان من ضبط الحمولة وتسوية الصف. وبدأ عازفو الطبل والزمّر في إحماء أدواتهم بنفخات وضربات قصيرة مزعجة، ردّ عليها عازف السيوة بردود احتجاج طويلة. ثمّ استوى عزفهم مع استواء الصف، وبحلول الوقت الذي دخلوا فيه البلدة كان المسافرون يسرون مع الأنغام المتصاعدة. توقّف المارة والمتسكّعون على الطريق ليشاهدوا القافلة، يلوّح بعضهم ويصفّق، ويصيح بكلمات غير واضحة بين التصفيق. كانت الأرض المحيطة بالبلدة قاحلة، تنتظر المطر. لم يلق العمّ عزيز بالآ كعادته بالمارة، وكان يغطّي أنفه بين الحين والآخر بمنديل خشية الغبار، وتحدّث إلى يوسف بينما هما يمشيان خلف السحابة التي يثيرها الرجال.

قال دون أن يبتسم: «انظر إلى سعادتهم. وكأنّهم قطع بهائم يقترب من الماء. كلّنا هكذا، مخلوقات صغيرة العقل يضلّلنا جهلنا. لأيّ شيء حماسهم هذا؟ هل تعرف؟»

ظنّ يوسف أنّه يعرف، فقد شعر بشيء من الحماس أيضًا، لكنّه لم يرد. لاحقًا، حين وجدوا بيتًا يستأجرونه، وبه فناء ينام فيه الرجال

ويحرسون البضائع، قال العمّ عزيز ليوسف: «حين جئت أوّل مرّة إلى هذه البلدة كان يحكمها العرب، من أتباع سلطان زنجبار. كانوا إمّا عمانيين، أو خدماً للعمانيين. حاذقون، أولئك العمانيون، وأكفاء. جاؤوا إلى هنا كي يشيدوا ممالك صغيرة لأنفسهم. بدءاً من زنجبار وحتى هذا المكان! بل إنّ بعضهم ذهب بعيداً، إلى أعماق الغابات خلف «مارونغو» تجاه النهر الكبير. وهناك أقاموا ممالكهم أيضاً. في الواقع لم تكن تلك المسافة كبيرة عليهم. كان أميرهم قد جاء من مسقط ونصّب نفسه سيّداً على زنجبار، فلماذا لا يفعلون ذلك أيضاً؟ لقد أثنى سلطانهم سعيد من ثمار تلك الجزيرة. شيّد قصوراً مלאها بالخيول والطواويس والمقتنيات النادرة من بقاع العالم... من الهند وحتى المغرب، ومن ألبانيا حتى سُفالة [في موزمبيق]. واستجلب نساء من كلّ مكان، ودفع مهوراً باهظة. يُقال إنّه أنجب مئة طفلٍ منهم. لا أظنه يعرف عددهم الصحيح. هل تتخيّل حجم العناء في تنظيم هذه الأعداد الهائلة؟ لا بدّ من أنّه كان قلقاً من الأمراء الصغار الذين سيكبرون ذات يوم ويرغبون في قطعة لحم يغرزون أسنانهم فيها. بل إنّهُ هو نفسه تلطّخت يده بدم واحد أو اثنين من أقاربه. فإنّ استطاع سلطانهم أن يفعل كلّ هذا ولا يجني منه غير السؤدد والشرف، فما الذي يمنعهم؟

«الأمراء الذين جاؤوا إلى هنا قسّموا البلدة الصغيرة بينهم إلى مناطق. فهناك «كانيني» التي أُعطيت لعربيّ اسمه مهتّا بن سليمان العروبي، وهناك «بّهاريّني» التي أُعطيت لسعيد بن علي، وهناك «لوفيتا» لمويني مليندا، وهو رجل من «مريما» الساحلية. أمّا المنطقة الرابعة فهي «مكّواني»، لسعيد بن حبيب العفيف، والخامسة «بوماني» لسيتي بن جمعة، والسادسة «مبوغاني» لسالم بن علي،

والسابعة «تَشْمُتْشَم» لرجل هندي يُدعى جمعة بن دينا، والثامنة «نغامبو» لمحمد بن ناصر، والتاسعة «مُبيراني» لعلي بن سلطان، والعاشر «مالولو» لراشد بن سالم، والحادية عشرة «كويهارا» لعبد الله بن نصيبو، والثانية عشرة «غانغي» لثاني بن عبد الله، والثالثة عشرة «ميمبا» لعبد سابق من عبيد العرب يُدعى فرحاني بن عثمان. وهناك جزء آخر اسمه «إتورو»، لمحمد بن جمعة، وهو والد حمد بن محمد المعروف باسم «تبيوتيب». أعتقد أنك سمعت به.

«يدور الآن حديث عن أنّ الألمان سوف يمدّون خطّاً من سكّة الحديد إلى هنا. هم الآن من يشرّع القوانين ويملون الأوامر، على أنّ هذا هو الوضع حقيقة منذ عهد أمير باشا وبرينزي. ولكن قبل مجيء الألمان لم يكن أحد يسافر إلى البحيرات دون المرور بهذه البلدة».

انتظر التاجر قليلاً ليرى ما إذا كان يوسف سيقول شيئاً، وحين لزم الصمت استأنف كلامه. «قد يطرأ في بالك سؤال: كيف أصبح العرب بهذه الأعداد الكبيرة هنا في هذه المدة القصيرة؟ في البدايات كان شراء العبيد أشبه بقطف الثمار من شجرة. لم يُضطروا حتّى إلى أسر الضحايا بأنفسهم، رغم أنّ البعض منهم فعل ذلك على سبيل المتعة. كان هناك عدد لا بأس به ممّن يتلهّفون إلى بيع جيرانهم وأبناء عمومتهم وخؤولتهم من أجل الحليّ. كانت الأسواق مفتوحة في كلّ مكان، في الجنوب وفي جزر المحيط حيث يزرع الأوروبيون السكر، في الجزيرة العربية وبلاد فارس، وفي مزارع القرنفل الجديدة التي أنشأها السلطان في زنجبار. كانت هناك أرباح جيّدة. يتاجر هؤلاء العرب في العاج والعبيد بقروض يأخذونها من التجّار الهنود. أولئك الهنود المُكَيّ رجال أعمال، يقرضون المال أيّما ما كان الغرض من

التجارة، ما داموا يحصلون على ربح. وهناك أجنب آخرون فعلوا ذلك أيضًا، لكنهم كانوا يدعون المكي يتصرفون نيابة عنهم. على أيّ حال، سرق العرب الأموال واشتروا العبيد من سلطان همجيّ قرب هذه المنطقة، وشغلوا العبيد في المزارع وفي بناء منازل مريحة لهم. وهكذا كبرت البلدة».

قال محمد عبد الله وكأنّ اهتمام يوسف انصرف إلى شيء آخر: «أنصت إلى ما يقوله عمّك». كان قد انضمّ إليهما أثناء حديث العمّ عزيز، وبمقاطعته هذه انتهى كلام التاجر. قال يوسف في نفسه: ليس عمّي.

ثم سأل التاجر: «لماذا سُمّي تيوتيب؟»

فقال العمّ عزيز هازًا كتفيه بلا مبالاة: «لا أعرف. على أيّ حال، حين جاء الألماني أمير باشا إلى هذه الأنحاء ذهب لمقابلة سلطان تباري. نسيْتُ اسم السلطان. العرب هم الذين نصّبوه سلطانًا، وقد اختاروا الشخص الذي يمكنهم التأثير عليه وتحريكه كما يشاؤون. تعامل أمير باشا مع السلطان بازدراء تامّ، عن قصد، كي يستفزّه للحرب. هذه طريقتهم. طلب من السلطان أن يرفع العلم الألماني، وأن يقسم بالولاء للسلطان الألماني، وأن يسلم جميع الأسلحة والمدافع التي يملكها، لأنّ السلطان أساسًا قد نهبها من الألمان بالتأكيد. بذل سلطان تباري كلّ ما في وسعه لتجنّب الحرب. صحيح أنّه كان يحبّ القتال، وكان في حالة حرب دائمة مع جيرانه، بدعم من حلفائه العرب حين يرون ذلك، لكنّ الجميع كان قد سمع بالطريقة القاسية التي يخوض بها أولئك الأوروبيون الحرب. هكذا رفع سلطان تباري علم الألمان، وأقسم بالولاء للسلطان الألماني، وأرسل الهدايا والطعام إلى مخيم أمير باشا،

لكنّه تردّد في التخلّي عن أسلحته. وبحلول ذلك الوقت كان قد فقد دعم العرب الذين رأوا أنّه غدر بهم وتنازل للألمان أكثر ممّا يلزم. وما إن غادر أمير باشا البلدة حتّى بدأ العرب في التآمر للإطاحة به.

«لم يطل الانتظار. فبعد أمير باشا جاء القائد الألماني برينزي، وشنّ الحرب فوراً وقتل السلطان وأولاده وكلّ من وجده من أهل البلدة. وضع العرب تحت سيطرته في أوّل الأمر، ثمّ طردهم. لقد أضعف هذا الأجنبيّ قواهم، حتّى أنّهم لم يعودوا قادرين على إجبار عبيدهم على العمل في مزارعهم. كان العبيد يختبئون أو يهربون، وبقي العرب دون طعام أو وسائل راحة، فلم يعد لهم من خيار سوى الرحيل. ذهب بعضهم إلى «رومبا»، وآخرون إلى أوغندا، وعاد آخرون إلى سلطانهم في زنجبار. وما يزال هناك قلة ظلّوا هنا ولا يعرفون ما يفعلون. حلّ الهنود مكانهم، فأصبح الألمان أسيادهم، والهمج تحت رحمتهم».

فقال محمد عبد الله بغضب: «لا تثق بالهنود أبداً! الهنديّ مستعد لبيع أمّه إن كان في الأمر ربح. رغبتهم في المال لا حدود لها. إن نظرت إليه بدا ضعيفاً جباناً، لكنّه قد يفعل أيّ شيء مقابل المال».

هزّ العمّ عزيز رأسه للمنيابارا، معاتباً إيّاه على رعونته. «الهنود يحسنون التعامل مع الأوروبيّين. ولا خيار لنا سوى أن نعمل معهم».

2

لم يطل بهم المقام في تياري. كانت البلدة عبارة عن متاهة من الأزقة الضيقة التي تنفتح فجأة على أفنية وساحات صغيرة. رائحة الهواء في

الشوارع المظلمة تبدو حميمية، وفاسدة، كهواء الغرف المكتظة. جداول من مياه المجاري تجري قرب أعتاب المنازل. وفي الليل، حين ينامون في فناء المنزل المستأجر، تزحف الصراصير والجرذان فوقهم، فتقرض أصابع القدم الخشنة وتمزق أكياس المؤن. استأجر المنيا بارا حمالين جدداً ليحلوا محلّ الذين قرّروا التوقّف، فانطلقت القافلة مرّة أخرى بعد أيّام قليلة. ساروا بسرعة جيّدة بعد أن غادروا تيارى. المطر الخفيف سرّع حركتهم، وجعلهم ينشدون الأغاني حين بردت أجسادهم. حتّى أولئك الذين توعّكوا من عناء السفر استعادوا طاقتهم. ومنهم من تمكّن المرض منهم فلم تجد الأغنيات ولا النكات في تخفيف آلامهم حين يشقّون طريقهم في الأدغال، لكنّ زملاءهم أصبحوا يبتسمون عند سماع صيحاتهم، بعكس الصمت الذي كان يطبق عليهم سابقاً.

أدركوا بعد بضعة أيّام أنهم قرييون من البحيرة. فالضوء من أمامهم بدا أكثف، والطف إذ يحمل عبء الماء في الأسفل. شعر الجميع بالسعادة حين خطر لهم منظر البحيرة. كانوا حين يمرّون بالقرى والمستوطنات، يتوقّف أهلها للنظر إليهم بابتسامات حذرة، لكنّها تتسع شيئاً فشيئاً حين يرون البهجة المنتشرة بينهم. اندفع بعض الرجال في مطاردة نساء القرى، وتعرّض واحد منهم لضرب مبرح، إلى أن اضطرّ التاجر إلى تقديم هدايا لإبداء حسن النوايا. وفي المساءات حين يجهّز الرجال مخيمهم ويبنون حاجزاً من الشجيرات اتّقاء الحيوانات، كانوا يجلسون في مجموعات يروون الحكايات. حذر المنيا بارا يوسف من الجلوس مع الرجال، وقال له إنّ عمّه لا يرضى بذلك. قال له سيعلّمونك سوء، لكنّ يوسف لم يأبه بذلك. كان يشعر

بأنه يزداد قوّة يومًا بعد يوم. صحيح أنّ الرجال ما يزالون يغايطونه، ولكنّ بودّ أكبر. وحين يجلس معهم في المساء يفسحون له بينهم، ويُشركونه في الحديث. يحدث أن تداعب يدُ فخذَه، فيتجنّب الجلوس إلى جانب ذلك الشخص مرّة أخرى. وإنّ لم يكن العازفون منهكين من التعب، يعزفون بكلّ حماس مع تصفيق الرجال وغنائهم.

وذاّت أمسية من الأمسيات، لم يقاوم المنيابارا البهجة التي سيطرت على الجميع، فدخل إلى الحلقة المضاءة بالنار، ورقص. خطوتان إلى الأمام، وانحناءة رشيقة، ثمّ خطوتان إلى الوراء بينما تهيم عصاه فوق رأسه. وأضاف الزمار جملة موسيقيّة على نغمة صاعدة كصيحة فرح، فضحك سيمبا مويني وأدار وجهه نحو السماء. أمّا المنيابارا فقد دار مع الجملة الجديدة، ثمّ توقّف على نحو مسرحيّ، فابتهج الجميع.

رأى يوسف المنيابارا وهو يجفل حين انتهت رقصته، وعرف أنّه لم يكن الوحيد الذي لاحظ ذلك. لكنّ الابتسامة لم تفارق وجه المنيابارا الذي كان يتفصّد عرقًا. صاح وهو يلهث قليلًا بينما يلوح بعصاه: «آه لو رأيتموني سابقًا. كنّا نرقص بالنصال العارية، لا العصي. أربعون أو خمسون رجلًا يرقصون في الوقت نفسه».

ربّت على نفسه قليلًا قبل أن يخرج من الحلقة وسط صيحات الرجال وصفيرهم. وما كاد يخطو خطوتين حتى قفز نيوندو على قدميه ممسكًا بعصا، وراح يقلّد رقصة المنيابارا. عزف الموسيقيّون في ابتهاج مرّة أخرى، فيما مضى نيوندو في رقصته على ضوء النار، بخطوتين إلى الإمام، وخطوتين مترنّحتين إلى الوراء، وانحناءة عميقة حدّ البذاءة. وبعد بضع دورات وتلويحات بعصاه، توقّف فجأة، مباعدًا بين ساقيه، وداعب نفسه ببطء تحت الحزام. «من يريد أن يرى شيئًا؟ لم يعد

كما كان في السابق، لكنّه ما يزال يعمل». ضحك الجميع على ذلك العرض الساخر، بينما وقف المنيا بارا عند حافة الضوء ينظر إليهم.

3

ظهرت البلدة الواقعة على ضفاف البحيرة في ضوء لطيف متمنّع، بنفسجيّ مع أطراف قرمزيّة تنعكس من المنحدرات والتلال العالية التي تشكّل الضفاف. القوارب موضوعة إلى حافة الماء، فيما تصطفّ منازل صغيرة بنية اللون على الضفة. كانت البحيرة تمتدّ في كلّ الاتجاهات، ما حدا بالرجال إلى خفض أصواتهم من سحر ذلك المنظر. انتظر المسافرون خارج البلدة كعادتهم، إلى أن يؤذن لهم بالدخول. كان هناك ضريح على مقربة، تحيط به الأفاعي الصغيرة والكبيرة، والحيوانات المتوحّشة. فلا يمكن للمرء أن يصل إلى الضريح ويخرج منه سالمًا إلّا إن أذنت الروح. محمد عبد الله هو الذي أخبرهم بذلك وهم ينتظرون، مشيرًا إلى بستان غير بعيد عن مكان استراحتهم. «هناك يعيش إلههم. يصدّق الهمج أيّ شيء ما دام ينضح بالجنون. لا يضيرهم أن تقول لهم إنّ هذا الأمر يبدو سخيفًا، ولا يمكنك أن تجادلهم، فسوف يروون لك قصصًا لا تعدّ ولا تحصى عن خرافاتهم». قال إنهم مرّوا بهذه البلدة في رحلتهم السابقة، وعبروا منها إلى الجانب الآخر. وهنا أيضًا تركوا رجلين مصابين في رحلة العودة. حين توقّفوا هنا كان ذلك في أسوأ وقت من موسم الجفاف، فقرّروا أنّه من الأسلم ترك المصابين هنا بدلًا من حملهم في رحلة يغشاها الذباب إلى تيارى. وراح يوسف يفكر في وقع تلك الكلمات

حين قيلت هناك في شرفة حامد، وكيف نمت عن اهتمام وتحضر. تذكر يوسف أن العم عزيز قال إن الرجلين تركا في بلدة بجوار البحيرة، مع أشخاص لم يتعامل معهم من قبل لكنه ائتمنهم على العناية بالمصابين. غير أن هذا التفسير يوحى بمعنى آخر إن نظر المرء إلى الصف المتهالك من البيوت على ضفاف البحيرة، وتناهد إليه رائحة الأسماك المتعفنة التي تصل إلى أطراف البلدة. وحين ألقى يوسف نظرة إلى المنيا بارا، ورأى في عينيه المكر والحذر، أدرك في خزي أنهم تخلوا عن الرجلين.

بعث نيوندو إلى البلدة رسولا، لأنه قال إنه يتحدث لغتهم. ورغم أن العم عزيز قال إنه يتذكر أن السلطان يتحدث السواحلية، إلا أنه وافق على فكرة التحدث مع السلطان بلغته من باب اللباقة. عاد نيوندو من عند السلطان يحمل رسالة ترحيب، وقال إن السلطان ابتهج بالهدايا، لكنه يتوق إلى رؤية أصدقائه القدامى مرة أخرى أكثر من أي شيء آخر. غير أن نيوندو أراد قبل دخولهم أن يطلعهم على مصاب جلد حل بأهل البلدة، فقد توفيت زوجة السلطان قبل أربع ليال.

أعرب التاجر عن حزنه، وطلب نقل تعازيه وتعازي القافلة بأكملها إلى السلطان. كما بعث مزيدا من الهدايا، طالبا السماح لهم بدخول البلدة لتقديم العزاء بأنفسهم. وبينما كان الرجال ينتظرون، تحدثوا عن تقاليد احترام الموتى، لا سيما إن كان الميت زوجة سلطان. نال أحد الرجال إنهم لا يدفنون موتاهم دائما. ففي بعض الأحيان يلقون بهم إلى الأجمة أحياء، حتى تفرسهم وحوش الغاب. يأخذونهم إلى الأجمة ويتركونهم هناك كي تأخذهم الضباع والفهود. كما أنهم يتطيرون من لمس الجثث، حتى إن كانت جثث أمهاتهم. وفي بعض

المناطق يقتلون جميع الغرباء في مثل هذه الحالات. وماذا لو كان السلطان لفرط حزنه لا يريد إتمام أي صفقات تجارية؟ وما أدراك عن عاداتهم في السحر والطقوس والقرايين؟ بعضهم لا يدفنون موتاهم أساييع. يضعون الجثث في أوعية أو تحت الشجر. نظر الرجال إلى البستان القريب، وقال أحدهم: «لعلهم تركوا الجثة المتعفنة هناك».

وأخيراً عاد نيوندو يحمل الإذن بدخولهم. أمر التاجر رجاله بالسير في صمت، دون موسيقى أو ضوضاء، احتراماً لمشاعر السلطان. كانت بلدة صغيرة، فيها أربعة وعشرون أو ستة وثلاثون كوخاً، تنتشر في مجموعات من ثلاثة أكواخ إلى أربعة. الهواء مشحون برائحة السمك المتعفن. وعلى حافة الماء منصّات خشبية موضوعة على ركائز متينة مغطاة بمظلات من القش. قطع ممدودة بين المنصّات من قماش وحصير، وثمة زوارق كبيرة رفعت من الماء إلى ظل المنصّات. أطفال يلعبون في الظل ركضوا لمشاهدة القافلة وهي تسير في صمت.

تجمّع الرجال في المكان الذي قيل لهم، وانتظروا التاجر كي يكمل مفاوضاته. وما هي إلا لحظات حتى بدأ بعض الرجال في التسلّل بعيداً، بحثاً عن سكّان البلدة الذين كانوا يتخفّون عن الأنظار. وفي ذلك الصمت، تناهت صيحات ترحيبهم إلى الآخرين، ما حدا بالمزيد من الرجال إلى التسلّل أيضاً. أرسل السلطان رسالة أخرى مفادها أنّه جاهز لاستقبال التاجر ورجاله، لكنّ الرجل الهرم الغاضب الذي حمل هذه الرسالة أبلغهم بأنّ السلطان سوف يستقبل أربعة أشخاص لا أكثر. لم يكن السلطان في حالته النفسية تلك قادراً على احتمال الحشود. هكذا سار المنيابارا ونيوندو مع العمّ عزيز إلى بيت السلطان، ومعهم يوسف. قال العمّ عزيز: أحضروا هذا التلميذ كي يتعلّم كيف يحيي

أصحاب الأرض. اقتربوا من مجموعة من الأكواخ قرب الماء، وكانت أعدادها أكبر من أي مجموعة أخرى في البلدة، ثم أخذوا إلى مبنى كبير ذي رواق مسقوف. كان الجوّ في داخله قاتمًا، ودخينًا من أثر النار التي كانت تشتعل قرب الباب. أمّا الضوء الوحيد فكان يأتي من المدخل، وما إن دخلوا في جانب واحد حتّى أضاءت الغرفة قليلًا. كان السلطان رجلًا ضخّم الجثّة، يرتدي إزارًا بنيًا مربوطًا في وسطه بشريط من القشّ المنسوج. التمعت التموجات المفتولة في نصفه الأعلى تحت ذلك الضوء الشحيح. جلس على مقعد لا ظهر له، ووضع مرفقيه على فخذيّه، ويدها تقبضان على عصا سميكة منحوتة بين ساقيه. بدا في ذلك المظهر متحمّسًا متبهاً. إلى جانبيه شابتان عاريتان حتى الخصر، وكلّ منهما تحمل قرعة للشراب. ومن خلفه امرأة أخرى، نصف عارية أيضًا، تهفّ بمروحة منسوجة. ومن وراء هذه المرأة شاب واقف بعيدًا في الظلّ. وعلى الحصر المفروش على الأرض يجلس ستّة شيوخ على جانبي السلطان، بعضهم عاري الصدر. تناقلت أنفاس يوسف من أثر الدخان، وسالت عيناه، فاستغرب كيف يمكن للسلطان ومرافقيه أن يحتملوا ذلك الدخان بأريحية تامّة.

تحدّث السلطان ببضع كلمات مبتسمًا، فقال نيوندو يترجم كلامه: «يقول مرحبًا بكم. ويقول إنكم وصلتم في وقت سيّئ، لكنّ الأصدقاء دائمًا على الرحب والسعة». وبإشارة منه، وضعت المرأة التي على يمينه القرعة عند شفتيه، فرشف منها عدّة رشفات طويلة. ثمّ اقتربت المرأة من التاجر، فرأى يوسف أنّ في ثديها ندوبًا صغيرة. راثحتها تفوح بالدخان والعرق، وهي رائحة مألوفة، مثيرة. وقال نيوندو للتاجر وهو يبتسم رغما عنه: «يقول فلتشرب قليلاً من البيرة».

قال التاجر: «ممتنّ لكرمك، لكن أرجو أن تعذرني».

فقال نيوندو مبتسماً: «يسألك لماذا؟ إنها بيرة جيّدة. أتظنّ أنّ بها سمّاً؟ لقد تذوّق منها من أجلك. ألا تثق به؟». ثمّ قال السلطان شيئاً، وتعلّلت الضحكات من الشيوخ وقهقهوها حتّى برزت أنيابهم. نظر التاجر إلى نيوندو، فهزّ رأسه. لم يفهم التاجر ما إذا كان يقصد أنّه لم يفهم كلام السلطان أم إنّ ارتأى عدم ترجمته.

فقال العمّ عزيز ناظرًا إلى السلطان: «أنا تاجر، وغريب في بلدتك. وإن شربت البيرة قد يعلو صوتي وأتساجر، ولا ينبغي لغريب جاءكم من أجل التجارة أن يتصرّف على هذا النحو».

قال نيوندو بينما كان السلطان يضحك مرّة أخرى مع أعوانه: «يقول بل ترفض لأنّ إلهك لا يسمح لك بذلك. يعرف هذا». وتردّد نيوندو طويلاً قبل أن يترجم عبارته التالية. تلاشت ابتسامته، وتحدّث بحرص كي يبدو أنّه يحاول ترجمة المعنى الدقيق قدر استطاعته: «يقول ما هذا الإله القاسي الذي لا يسمح للناس بشرب البيرة؟»

فقال التاجر بسرعة: «قل له إنّ إله يمتحن عباده، لكنّه عادل».

قال نيوندو بينما كان السلطان يشير إلى ضيوفه بالجلوس على الحصير: «يقول: حسنٌ حسنٌ. لعلّك تشرب البيرة سرّاً. والآن حدّثني عن أخبارك. هل سارت تجارتك على ما يرام؟ وماذا أحضرت معك هذه المرّة؟ يقول بالتأكيد لاحظت أنّه لا يطلب جزية. فقد سمع أنّ الرجل الكبير لم يعد يسمح بأخذ الجزية. لذلك لا يريد أن يرتكب خطأ، خشية أن يسمع الرجل الكبير بذلك فيعاقبه. يقول هل تعرف الرجل الكبير الذي يقصده؟». ارتعد جسد السلطان بضحكات قصيرة

وهو يقول ذلك. «الألماني. هو الرجل الكبير. حسب علمه فإنه هو الملك الجديد. لقد جاء قريبًا من هنا قبل مدة، وأخبر الجميع من يكون. سمعوا أنّ للألماني رأسًا من حديد. هل هذا صحيح؟ ولديه أسلحة يمكنها أن تدمر بلدة بأكملها بضربة واحدة. يقول: يريد شعبي أن يتاجروا ويعيشوا في سلام، دون أن يتسببوا في مشكلات للألماني». ثمّ أضاف السلطان شيئًا آخر أضحك معاونيه مرّة أخرى.

فلما سنحت الفرصة سألّه التاجر: «هل تتكرّم علينا بمساعدتنا في العبور؟»

قال نيوندو: «يسأل من ستقابلون في الجهة الأخرى؟». ومال السلطان إلى الأمام على نحو متحفّز، وكأنّه يتوقّع جوابًا يدلّ على حماقة التاجر أو تهوّه.

فقال العمّ عزيز: «تشاتو، سلطان في مارونغو».

فعاد السلطان إلى الخلف، ونخر نخرة ضعيفة. قال نيوندو: «يقول إنّه يعرف تشاتو». ظلّوا يرقبونه وهو يشير طالبًا مزيدًا من البيرة. «يقول إنّه أخبركم بوفاة زوجته مؤخرًا. ويقول إنّه ما يزال عاجزًا عن دفنها، وإنّ قلبه مضطرب جدًّا».

تابع السلطان بعد لحظة، وقال إنّه لم يكن بمقدوره أن يدفن زوجته من دون كفن. لقد انطفأت النار فيه منذ وفاتها، ولا يعرف من أين يأتي بكفن. ثمّ قال نيوندو للتاجر: «يقول أعطه كفنًا».

فقال الشاب الذي كان يقف في الظلّ خلف السلطان: «هل تحرم رجالًا من كفن يدفن به زوجته؟». تقدّم إلى الأمام مواجهًا التاجر، وخطبه مباشرة دون حاجة إلى نيوندو. كانت ساقه اليسرى متورّمة

من أثر مرض، فكان يجبرها جرًّا حين يمشي. لا توجد علامات مميزة في وجهه، فيما تلتصع عيناه بالحماس والفهم. وهنا استطاع يوسف أن يفصل الرائحة الغريبة للحم المتعفن عن رائحة الدخان اللاذعة. وتحدث عدد من الشيوخ أيضًا بعد الشاب، وتعابيرهم تُبدي دهشة واستغرابًا. ومصمصة النساء شفاههنّ، وغمغمن بشيء من اشمئزاز.

قال العمّ عزيز: «بالطبع لن أحرم أحدًا من كفن»، وأمر يوسف بجلب خمس لفات من قطن البفتة البيضاء.

قال الشاب، متوليًا زمام التفاوض: «خمس!». ونهض أحد الشيوخ على قدميه في ارتياح وبصق في اتجاه التاجر، وتلطّخت ذراع يوسف العارية بشيء من ذلك الرذاذ. «خمس لفات لسلطان في مثل شأنه. لن تعبر النهر بهذه الطريقة. هل كنت لتقدّم خمس قطع لسلطانك كي يدفن زوجته؟ كفى عبثًا! أتهين سلطانًا محبوبًا بين شعبه هكذا؟».

فضحك السلطان وشيوخه حين تُرجم الكلام لهم، واهتزّ جسد السلطان من أثر السرور. همس نيوندو للتاجر: «إنّه ولده. سمعته يقول ذلك».

وسأل الشاب: «أيها التاجر، ألا تضحك؟ أم إنّ إلهك لا يسمح بذلك أيضًا؟ من الأفضل أن تضحك قدر ما تستطيع، فلا أعتقد أنك ستسمع دعابات كثيرة من تشاتو».

واستقرّ الأمر على مئة وعشرين لفّة من القماش. كما طلب السلطان أسلحة وذهبًا، لكنّ التاجر ابتسم وقال إنّهم لا يتاجرون بهذه البضاعة. قال الشاب: لم تعودوا تتاجرون بها. وفي النهاية أذن السلطان للتاجر

بالتحدّث إلى أصحاب المراكب والتفاوض على السعر معهم. وهمس محمد عبد الله في غضب: «لقد نصبوا علينا».

فقال التاجر مبتسماً: «حين زرناكم العام الماضي تركنا اثنين من رجالنا معكم. كانوا مصابين ووافقتم على رعايتهما إلى أن يتعافيا. ما أخبارهما؟ هل هما بخير؟»

فقال الشاب بهدوء، رغم أنّ وجهه كان يوحى بالتحدّي والازدراء: «لقد رحلا».

فسأله العمّ عزيز بلطف: «إلى أين؟»

قال بغضب: «وهل أنا عمّهما؟ لقد رحلا. اذهب وابحث عنهما. أتظنّ أنّي لا أعرفكم؟»

فقال العمّ عزيز: «لقد تركتهما في رعاية السلطان». وخطر ليوسف أنّ صوت العمّ عزيز يوحى بأنّه قد تخلّى عن الرجلين.

فسأله الشاب: «أتريد الذهاب إلى مارونغو أم لا؟»

وأخذوا إلى مراكبيّ يُدعى كاكانياغا، ضئيل الحجم لكنّه شديد، وكان يشيخ ببصره بعيداً نحو الماء وهو يستمع إلى مطالبهم، ويسألهم عن الأعداد والأوزان. رافقهم إلى المكان الذين كان ينتظر فيه الحمّالون مع البضائع كي يحكم بنفسه. قال إنّهم سوف يعبرون في أربعة من المراكب الكبيرة، وحدّد سعراً له ولبقية الرجال، ثمّ مضى كي يتركهم يفكّرون في السعر. لكنّ السعر كان معقولاً جدّاً، وكان محمد عبد الله متلهّفاً على الرحيل، فاستدعى الرجل بعد أن مشى بضع خطوات.

قال لهم المراكبيّ إنهم سيغادرون صباحًا، وإنّ عليهم تسليم البضائع المتّفق عليها قبل المغادرة.

فسأله محمد عبد الله: «ولمَ لا نغادر فوراً؟». كان قلقًا من كمّية البيرة التي رأى السلطان يشربها. فمن يدري ما قد يفعله همجيّ مخمور؟

قال المراكبيّ: «لا بدّ من أن يستعدّ رجالي. هل أنتم مستعجلون على الذهاب إلى تشاتو؟ إنّ رحلنا الآن فسوف تكون رحلتنا في الظلام. والبحيرة غير مأمونة في بعض الأوقات».

فقال المنيابارا: «نعم، توجد أرواح شرّيرة في الليل، أليس كذلك». تفتنّ المراكبيّ إلى سخريته، لكنّه لم يرد. وقال إنهم سيغادرون صباحًا.

قال العمّ عزيز مبتسمًا في سرور: «تحدّث لغتنا جيّدًا. وكذلك ابن سلطانكم».

فقال المراكبيّ على مضض: «عمل كثيرون متّا عند تاجر سواحليّ اسمه حميدي ماتانغا، كان يسافر في هذه الأنحاء وفي الجانب الآخر أيضًا». ثمّ رفض قول المزيد رغم محاولة العمّ عزيز.

قال التاجر وهو ما يزال مبتسمًا: «أذكرُ أنّ سلطانكم كان يتحدّث شيئًا من السواحلية في آخر مرّة كنّا فيها هنا، ولكن يبدو أنّه نسي. هذا ما يفعله بنا الزمن. أخبرني، الرجلان المصابان اللذان تركناهما حين زرناكم العام الماضي... ماذا حلّ بهما؟ هل تحسّنت حالهما؟». مرّر للرجل علبة تبغ صغيرة وهو يتحدّث، مع كيس مسامير طلب من يوسف إحضاره.

انتظر الرجل لحظات قبل أن يجيب، مقلّباً بصره بين التاجر والمنيابارا وسيمبا مويني، وأخيراً يوسف. التمعت عيناه قليلاً قبل أن يتحدث، علامة خُبث. «رحلا. لا أظنّ أنّ حالهما تحسّنت. كانا هناك في ذلك الكوخ، تنبعث منهما رائحة كريهة. جلبا لنا الأمراض، فماتت الحيوانات وهربت الأسماك. ثمّ مات شابّ من دون سبب». وأشار إلى يوسف: «في عمره. في مثل عمره. هنا طفع الكيل، وقال أهل القرية لا بدّ من أن يرحلا».

وبعد أن ذهب الرجل، قال سيمبا مويني: «إنّهم يتعاملون بالسحر هنا».

فقال محمد عبد الله بحدّة: «لا تكفر. ما هم إلّا همج جهلة يصدّقون كوايسهم السخيفة».

قال العمّ عزيز: «ما كان ينبغي لنا أن نتركهما هنا. أنا المسؤول عن هذا، فهو خطئي. لكنّ هذا لا يفيدهما أو يفيد أقاربهما في شيء الآن».

فقال المنيابارا: «وكيف لك أن تعرف أنّ هؤلاء الوحوش يضحّون بأيّ شيء من أجل جاهليّتهم؟ لو كنت في مكانك لفعلت فعلك». ثمّ التفت إلى سيمبا مويني وقال بازدراء: «لمّ لا تطلب منهم أن يصنعوا سحراً يعيدون به الرجلين؟»

جفّل سيمبا مويني وقال وهو يلقي نظرة خاطفة على يوسف: «من الأفضل أن ننتبه لسلامة الشاب. هذا ما كنت أقصده. ألاّ نسمح بإصابته بمكروه. ألاّ تذكر كيف كانوا يتحدثون عنه في مكاتا، والطريقة التي نظر بها المراكبيّ إليه؟»

صاح محمد عبد الله وهو يهزّ عصاه بغضب: «وماذا عساهم يفعلون؟ يطعمونه لشياطينهم الجياع؟ لا تعطِ هؤلاء الصيادين التّنين أكبر من حجمهم. فليجربوا ما يشاؤون! ما الذي خطر في بالك؟ سوف أجلد أبناء الحرام هؤلاء وأوصلهم إلى أعتاب الجحيم. سأتقياً عليهم. سأدخل السحر في مؤخراتهم التّنة، أولئك الهمج القذرين».

فقال العم عزيز بحدّة: «محمد عبد الله».

«فليستعدّ الجميع». هكذا قال المنيابارا دون أن يبدو أنّه سمع التاجر، لكنّه أخفض صوته. «سيمبا. أخبر الرجال عن السحر والأمراض الشريرة. أنت تعرف ذلك. ويبدو أنّه أمر مهمّ بالنسبة إليك. وقل لهم ألاّ يذهبوا بعيداً في الأدغال ليلبّوا نداء الطبيعة، وإلاّ فقد تقررص الأرواح أو ثعابين السحر مؤخراتهم. وقل لهم أن يبتعدوا عن النساء. وأنت أيها الشاب، لازم السيّد طوال الوقت ولا تقلق من شيء».

فقال العمّ عزيز: «محمد عبد الله. ستصاب بعسر هضم من صراخك هذا».

فقال المنيابارا: «هذا موطن شرّ أيّها السيد. فلنرحل من هنا».

4

اندلع شجار بين اثنين من الحمّالين قبل رحيلهم في اليوم التالي. كان أحدهما قد سرق معولاً من البضائع ودفعه ثمناً لامرأة، فأبلغ عنه الحمّال الآخر المنيابارا الذي قال أمام الجميع إنّّه سيخضع ثمن

معوّلين اثنين من أجره. تلفّظ المنيابارا بألفاظ نابية كثيرة مع هذه الجملة. لم تكن تلك أوّل مرّة يسرق فيها الحمّال شيئًا يدفعه ثمنًا لامرأة، وتظاهر المنيابارا بالاضطرار إلى منع نفسه من جلد الحمّال بالعصا. أمّا الحمّالون الآخرون فقد زادوا من إذلال الحمّال بسخريتهم واستهزائهم به. وما إن انتهت حفلة الإذلال حتّى اندفع الحمّال الجريح إلى من أبلغ عنه، وأفسح المجال لهما للشجار تحت صيحات التشجيع. وهكذا تجمّع حشد كبير يتفرّجون، يتدفّقون على الأراضى المفتوحة عند الماء إذ يلاحقون النزال، وهم في صراخ وهتاف. وفي نهاية الأمر بعث التاجر سيمبا مويني لإيقاف الشجار. قال: «علينا الاهتمام بعملنا».

كان الوقت قد تأخّر في صباح اليوم التالي حين أصبحوا جاهزين للرحيل. ومع اقتراب الصعود إلى القوارب، شاب معنوياتهم العالية شيء من قلق. رتب المراكبيّ (كاكانياغا) البضائع بنفسه، وطلب من العمّ عزيز ويوسف أن يصعدا إلى المركب. قال: «سيجلب لنا هذا الشاب الحظّ». جدّف البحّارة تحت الحرارة المتصاعدة، تلتمع ظهورهم وأذرعهم العارية. حافظوا على تجمّع القوارب قرب بعضها البعض كي يتنادّوا بالأغاني ويضحكوا على الردود. أمّا المسافرون فقد جلسوا في صمت أغلب الوقت، قلقين من هول الماء والرجال الأشداء الذين ائتمنوهم على حياتهم. فمعظمهم لا يعرفون السباحة، رغم أنّهم كانوا يسكنون بجانب البحر. يقضي الواحد منهم حياته يعبر الجبال والسهول، لكنّه يتراجع مسرعًا ما إنّ يرى مدّ الماء الذي يغسل الشاطئ.

وبعد أن ساروا في الماء ساعتين تقريبًا، أظلمت السماء بسرعة، واشتدّت الرياح على حين فجأة. سمع يوسف التاجر يقول بهدوء: «يا

الله!». أمّا كاكانياغا فخطب الريح باسمها، وعلم من معه والرجال الآخرين في المراكب الأخرى. وأدرك الجميع من صرخات المراكبية وشدة تجديفهم أنهم في خطر. ارتفعت الأمواج عاليًا واجتاحت المركب المهلهل، فغمرت الرجال والبضائع وأطلقت سيل استياء مضطرب، وكأن أكثر ما يهتمهم في ذلك الوقت أن لا يبتلوا. بدأ بعض الحمّالين في الصراخ والدعاء، راجين الله أن يمنحهم فرصة كي يتغيروا. غير كاكانياغا اتّجاه القارب الرئيس وتبعه الآخرون، وأخذ المراكبية يجذّفون بقوة، يشجّع بعضهم بعضًا بصراخ يشبه الذعر. واشتدت قوة الأمواج بما يكفي لرفع المراكب وإسقاطها مرة أخرى. وبدا واضحًا ليوسف أنّ المراكب واهية، يمكن أن تتدحرج في الماء كغُصين صغير في مزارب. ارتفع الدعاء والعيول، يكتمه الهواء الصاخب بين الحين والآخر. وبعض الرجال تقيّؤوا على أنفسهم من شدة الرعب. في أثناء ذلك كلّ حافظ كاكانياغا على صمته، إلّا من همهمات جهد عميقة تسرّبت منه وهو يجذّف فوق ركبة واحدة، فيما يتدقّق العرق وماء البحيرة من ظهره. وفي نهاية المطاف رأوا جزيرة على مبعده.

وصاح للتاجر: «الضريح. يمكننا أن نقدّم قربانًا هناك».

منظر الجزيرة دفع الرجال لأن يجذّفوا بشراسة، وسط صيحات تشجيع هستيرية من الركّاب. فلمّا أدرك المراكبية أنهم في أمان، انطلقوا في صيحات نصر وشكر. أمّا الركّاب فلم يبتسموا إلّا بعد أن أخرجت المراكب من الماء وفُرّغت جميع البضائع. بعد ذلك تجمّعوا خلف الصخور والشجيرات اتّقاء الريح ورشات الماء، وهم يتنهدون بعمق ويغمغمون عن حظهم.

طلب كاكانياغا من التاجر قطعة قماش سوداء، وقطعة بيضاء، وبعض الخرز الأحمر وكيسَ دقيق صغير. ويمكن للتاجر أن يقدم أيّ شيء آخر، شريطة ألا يكون من المعدن. قال كاكانياغا إنّ المعدن يحرق يد الروح التي تسكن هذا الضريح. ثمّ أضاف قائلاً: «عليك أن تأتي معي. فهذه الصلاة من أجلك، ومن أجل رحلتك. أحضر الشاب أيضاً. الروح التي تسكن هذا الضريح اسمها پمبي، وهي تحبّ الفتوة والشباب. ردّد اسمه سرّاً حين ندخل إلى الضريح، ولكن لا تجهر به إلا إنّ رأيتني أفعل ذلك».

ساروا مسافة قصيرة عبر الشجيرات والأعشاب ذات الأوراق الحادّة، رفقة المنيابارا وبعض المراكبيّة. وفي مكان مفتوح تحدّه شجيرات داكنة وأشجار طويلة رأوا مركباً صغيراً مسنوداً بالحجارة. في داخل المركب هدايا من مسافرين آخرين قدّموا قرايبنهم هنا. طلب منهم كاكانياغا أن يردّدوا وراءه كلمات ترجمها لهم: «ها نحن نقدّم الهدايا بين يديك. ونتوسّل إليك أن تمنحنا السلام في رحلتنا، كي نذهب ونعود سالمين».

وضع الهدايا في القارب، ودار حول القارب مرّة، ثمّ مرّة أخرى في الاتجاه المعاكس. ناول التاجر كاكانياغا كيس التبغ الذي أحضره، فوضعه هذا في الضريح. فلمّا عادوا إلى قواربهم كانت الريح قد انحسرت.

فقال سيمبا مويني ضاحكاً على المنيابارا: «مثل السحر».

رمقه المنيابارا بنظرة حقد وهزّ رأسه غير مصدّق. «كان يمكن أن يصبح الوضع أسوأ من ذلك. كأن يطلبوا منا أن نأكل شيئاً مقزّزاً أو نجامع الحيوانات. هيّا، لنحمّل البضائع».

ظهر الساحل الآخر أمامهم عند غروب الشمس، وأضاءت الأشعة المائلة المنحدرات الحُمر فأصبحت كأنها جدار من لهب. وصلوا إلى اليابسة قرب منتصف الليل، وكانت السماء مغطاة بالغيوم. سحبوا القوارب من الماء، لكنّ كاكانياغا لم يسمح لأحد بالنوم على الأرض. قال: وما يدريكُم ما يدبّ على هذه الأرض في الظلام؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

5

في الصباح غادر كاكانياغا ورجاله فور أن فُرغت المراكب من حمولتها مع أول خيط من الفجر، تاركين المسافرين وأغراضهم على الساحل. وما لبث أن جاء الناس يتساءلون. من أتى بهم إلى هنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ وماذا يريدون؟ أرسل يوسف وسيمبا مويني للبحث عن كبراء البلدة التي بدت أكبر من تلك التي قدموا منها. أرشدهما الناس إلى منزل رجل يُدعى ماريمبو، فوجداه قد استيقظ لتوّه من النوم. كان شيخًا نحيفًا، ذا وجه ممتلئ بالتجاعيد والترهلات. لم يكن منزله يختلف عن منازل الآخرين، والمرأة التي قادتهما إليه سارت إلى الباب وطرقته دون تردّد، دون احتفاء أو تبجيل. سرّ ماريمبو بلبائهما، وأبدى حُسن ضيافته وفضوله. ورأى يوسف أنّه كان رجلًا متيقّظ الذهن رغم دعابته، وخمّن أنّه قد خبر أشياء كثيرة في هذه الدنيا. كان نيونديو قد جاء معهما مترجمًا، لكنّهما لم يحتاجا إليه.

«تشاتو!». قالها ماريمبو ونذّت عنه ابتسامة العارف قبل أن يكتبها بحرص. «تشاتو رجل صعب المراس. أرجو أن تكونوا جادّين في أمركم، فهو ليس من النوع الذي يمكن العبث معه. لا تبعد بلدته سوى

بضعة أيام من هنا، لكننا لا نذهب إلا إذا استدعانا. بيدي شراسة إن شعر بالإساءة، لكنه بالنسبة إلى شعبه أب ساهر على مصالحهم. لا يروقني أن أعيش هناك. يا أصدقاء، اسمعوا مني. هؤلاء قوم لا يحبون الغرباء».

قال سيمبا مويني: «يبدو لي أنه مهرج».

فضحك ماريমبو مع النكتة في حذر.

سأله سيمبا مويني: «هل يتاجر؟»

هزّ ماريمبو كتفيه وقال: «لديه عاج. يمكنه أن يتاجر به إن أراد».

وافق على تزويدهم بدليل، وتخزين بضائعهم إلى أن يعودوا. «لقد تعاملت من قبل كثيراً مع التجّار. لا تعطوني شيئاً من أقمشكم. فكيف ستمضي تجارتكم من دونها؟ هي التي جلبتكم إلى هذه الأرض. ولكن أعطوني بندقيتين، كي أرسل ولديّ يصطادان للحصول على العاج. وهل لديكم حرير؟ أعطوني حريراً. الدليل الذي سأزودكم به يعرف المنطقة جيّداً. الوقت غير مناسب الآن بعد المطر، ولكن إن أجزلتكم له الأجر يمكنكم الوثوق به ثقة تامة».

الأشجار كثيفة على هذه الضفة، وعالية جداً. ورغم أن عدد الناس في بلدة ماريمبو أكبر، إلا أن أغلبهم يبدو سقيماً. في الليل تحطّ أسراب البعوض على الرجال، تلسعهم بعنف شديد حتّى إنّ البعض منهم يصرخ من شدّة الألم والسخط. لم يعد هناك شيء يستدعي بقاءهم بمجرد أن أبرموا اتفاقهم مع ماريمبو. أخذ سكاكين ومعاول وعلبة قماش قطنيّ أبيض مقابل تخزين بضائعهم، لكنهم سيسدّدون بقية الاتفاق عند عودتهم. كان الجميع سعداء بالرحيل، بعيداً عن هجمة

البعوض. والعمّ عزيز أيضًا كان متلهفًا على الرحيل، فقد استهلكوا كثيرًا من بضائعهم في الجزية التي كانوا يدفعونها طوال الطريق، ولم يتاجروا بشيء حتى الآن. لكنّ العمّ عزيز قال إنّ ما تبقى عندهم يكفي لجعل الرحلة مجزية. هذا ما سافروا من أجله، إلى أرض مارونغو هذه خلف المنحدرات الحمراء.

انطلقوا باكراً في اليوم التالي إلى بلدة تشاتو. والدليل الذي وجدّه ماريمبو لهم كان رجلاً هادئاً طويل القامة، لم يتحدّث إليهم أو يتّسم، بل ظلّ واقفاً في جانب بينما هم يجهّزون أغراضهم. هكذا سافروا في مسارات ريفيّة ضيّقة، وصعدوا عبر مناطق كثيفة الخضرة. كانت هناك نباتات غريبة تضربهم، وتمزّق وجوههم وأقدامهم. غيوم من الحشرات تحلّق فوق رؤوسهم. وحين توقّفوا كي يستريحوا، حطّت عليهم الحشرات بحثاً عن أيّ فتحات أو بشرة طرية. وما إن انتهى يومهم الأوّل في مارونغو حتّى أصيب العديد منهم بالأمراض. كان البعوض يعيث فيهم بأعداد هائلة، فلا يطلع الصبح عليهم إلّا وقد تلطّخت وجوههم بالدماء وآثار اللسعات. واصلوا المسير في اليوم التالي، متلهّفين للخروج من تلك الغابة. كانوا قد سمعوا طوال الليل ارتطامات ورغاء في الغابة، فتجمّعوا بعضهم إلى بعض خشية الجاموس والشعابين. قال لهم سيمبا مويني يغيظهم: لا تبتعدوا كثيراً للتبول. وحثّهم المنيابارا على مواصلة المسير، متوعّداً بعصاه التي كان يشقّ بها طريقه في الغابة. كانت الأرض المرتفعة تصعب مسيرهم، وسار سيمبا مويني ونيونندو مع الدليل، يصيحان بتحذيرات كلّما لاح لهم خطر جديد. نيونندو كان الوحيد الذي يفهم كلام الدليل، فاستغلّ الأمر في اللهو والعبث، ما أثار حنق المنيابارا وضحك الآخرين. أمّا

الدليل فلم يكن يتحدث كثيرًا، وفي نهاية اليوم يجلس إلى جانب نيوندو.

بحلول اليوم الثالث اشتدّ المرض على المصابين، فيما بدأت تظهر أمارات التدهور على الآخرين. والأسوأ وضعًا من بينهم لم يستطيعوا أن يأكلوا ولا أن يمتنعوا أنفسهم من إفراغ بطونهم. وهكذا كان زملاؤهم يحملون أجسادهم التنتة بالتناوب، يتجاهلون تأوّهاتهم وهذيانهم قدر الإمكان، ويحاولون تجنّب الدم الأسود الذي كان ينضح منهم. وعلى المنحدرات السحيقة لم يستطع الرجال أن يتحركوا في المرة الواحدة سوى بضعة أقدام على أياديهم وركبهم، وهم يجزّون أحمالهم. مات اثنان في اليوم الرابع، فأسرعوا في دفنهم وانتظروا ساعة بينما كان التاجر يقرأ في سرّه سورة من القرآن. كان جميعهم قد أصيب بقروح متقيحة حفرتها الحشرات لوضع بيوضها وامتصاص الدم. استبدّ بهم الرعب، وكانوا واثقين من أنّ الدليل إنّما يقودهم إلى حتفهم، فأخذوا يراقبونه قدر استطاعتهم. كان المنيابارا يوبّخ الدليل كثيرًا، ويحدّق في نيوندو باشمئزاز ظاهر أثناء الترجمة. لم يكن الوضع هكذا في العام الماضي، فلمّا أين يأخذهم؟ كُفّ عن التهريج وأسأله هذه الأسئلة كما ينبغي.

قال نيوندو مترجمًا كلام الدليل إنّ الطريق الآخر غير آمن بسبب الأمطار.

وحين مات اثنان آخران في صباح اليوم الخامس، توجّهت الأنظار إلى الدليل الذي كان ينتظر مع نيوندو لبدء رحلة اليوم. سار محمد عبد الله إلى الدليل وشده إلى قدميه، ثمّ أخذ يجلده بالعصا دون توقّف وسط هتافات الحمّالين والحراس وتشجيعهم، فيما تكوّر الدليل

تحت الضربات يتوسّل الرحمة. حاول نيوندو أن يتدخل، لكنّ محمد عبد الله ضربه ضربتين سريعتين بالعصا على وجهه، فتراجع مذعوراً. عيناى. عاد المنيابارا إلى الدليل الذي صار يتلوّى على الأرض، يعوي ويبكي فيما تنزل الضربات على جلده العاري. وظلّ المنيابارا يجلده فيما كان الآخرون يقتربون منهما وهم يحملون العصيّ والسيور.

فهرع سيمبا مويني إلى المنيابارا وأمسك ذراعه، ثمّ وقف بينه وبين الدليل الذي كان يصرخ من الألم. «يكفيه هذا!». كان محمد عبد الله يلهث، وقد سال العرق من وجهه وذراعيه، يحاول أن يوجّه ضربات أخرى من وراء سيمبا مويني.

صاح: «دعني أضرب هذا الكلب. يريد أن يقتلنا في هذه الغابة». فقال سيمبا مويني وهو يُبعد المنيابارا: «قال بقي يوم واحد. سنخرج من هذا الجحيم غدًا...».

قال محمد عبد الله: «ما هو إلّا همجيّ كذاب. وذاك المهرج نيوندو بدلاً من أن يراقبه... هذا الرجل يخدعنا منذ البداية. لم نأت من هذا الطريق العام الماضي». وفجأة تملّص من سيمبا مويني واندفع إلى الرجل المطروح على الأرض ليكيّل إليه مزيداً من الضربات. فلمّا هرع إليه سيمبا مويني مرّة أخرى، استدار إليه المنيابارا بعينين غاضبتين.

فقال سيمبا مويني وهو يتراجع: «ما تفعله ليس عدلاً».

حدّق المنيابارا فيه دون كلام، ووجهه يتصبّب عرقاً. وأبعد التاجر نفسه عن ذلك الحشد، وانتحى بمحمد عبد الله جانباً يحدثه بهدوء وإيجاز. ثمّ أشار إلى يوسف وأمره بترتيب دفن الرجلين اللذين تُوفّيَا

في ذلك الصباح. قال: واقرأ عليهما سورة يس. ظلّوا طوال اليوم يسمعون تأوهات الدليل أمامهم، وهم يشقّون طريقهم في الغابة المنحسرة. جاهد نيوندو للحاق بالدليل في صمت، ووجهه يغلي في غضب من الضربتين. أمّا الرجال فكانوا يضحكون ويهزّون رؤوسهم، خجلين من نزقهم لكنّهم لم يستطيعوا أن يقاوموا الضحك على آلام الدليل. يقولون: هل رأيت كيف ضربه! يا إلهي، ذلك المحمّد عبد الله حيوان حقيقي، مجرم! وأمّا نيوندو فكان من المفترض أن يدرك بأنّ المنيابارا سينتقم منه ذات يوم.

في منتصف نهار اليوم السادس وصلوا إلى فسحة. استراحوا إلى العصر، ثمّ انطلقوا إلى بلدة تشاتو. فلمّا اقتربت قافلتهم وهم يمضون من أمام الحقول المزروعة والحظائر الصغيرة رأوا الناس يركضون ابتعاداً عنهم. ورغم التعب الذي أصاب العازفين إلّا أنّهم عزفوا أنغامهم إعلاناً عن قدوم القافلة، وسار كلّ رجل منتصب القامة قدر استطاعته. اختال محمّد عبد الله خلف العازفين، واستعرض كعاداته، علّ أحداً من رعاي البلدة يتفرّج من وراء الأدغال.

التقاهم كبراء أوفدهم السلطان، رفقة حشد ضاحك كبير من أهل البلدة. قادهم هؤلاء الشيوخ إلى منطقة كبيرة محاطة بمنازل طويلة خفيضة ذات أسقف من القش. وقال الشيوخ إنّ المنزل الكبير الواقع خلف الجدران الطينية السمكة هو منزل تشاتو. استريحوا هنا وسوف يأتي الناس ليبيعوا الطعام لكم.

فقال التاجر لنيوندو: «اطلب منهم الإذن بتحيّة السلطان».

تحدّث هذا مع رئيس الشيوخ ثمّ قال: «يسأل: ما السبب؟». كان رجلاً قصيراً أشيب الشعر، تجول عيناه في وجه نيوندو المجروح أثناء

الحديث. كان يتحدث بأنفة غاضبة عدوانية، ونبرة كراهية لا لبس فيها. وقال نيوندو للتاجر إن اسمه مفيو.

قال العمّ عزيز: «مررنا قرب بلدتكم في المرة الماضية التي جئنا فيها إلى هنا، وسمعنا الكثير عن سلطانكم. وما نحن عدنا بالهدايا، ونودّ أن نتاجر معه ومع شعبه».

لم يعرف نيوندو كيف يترجم ذلك، فطلب مساعدة الدليل. واقترب الناس منهم كي يسمعوا الحديث، لكنهم تراجعوا حين رمقهم مفيو. قال نيوندو بعد عدّة أسئلة وأجوبة: «مفيو يسألك ماذا أحضرت له؟ لا بدّ من أن تكون هدايا ثمينة، فتشأتو حاكم رفيع الشأن. ويقول إنّه لا يريد أيّاً من حليّكم». وابتسم نيوندو بعد أن قال هذا، في إشارة إلى أنّ مفيو قال أكثر من ذلك.

فقال التاجر بعد نظرة طويلة صامتة: «نودّ أن نقدّم له هدايانا. سوف يسعدنا ذلك جدّاً».

نظر مفيو إلى التاجر بازدراء، ثم ضحك ضحكة قصيرة. وتحدّث ببطء، كي يستطيع نيوندو أن يترجم كلامه: «يقول إنكم في حاجة إلى الراحة والدواء، لا التجارة. وقال إنّه سيرسل المداوي لنا. دع الشاب يأخذ الهدايا لتشأتو. يقصد يوسف. يريده أن يذهب إلى تشأتو. وإن سرّ تشأتو فقد يستدعيك أيضًا. أعتقد أنّ هذا ما قاله».

فقال التاجر مبتسمًا: «الكلّ يريد يوسف».

تجاهل مفيو محاولات أخرى لمخاطبته، وانصرف. وبعد أن سار بضع خطوات، استدار وأومأ للدليل. وتبادل التاجر والمنيابارا نظرات قصيرة. أحضر أهل البلدة طعامًا يبيعونه للمسافرين، وتعاملوا

معهم بأريحية، يطرحون عليهم الأسئلة ويمازحونهم. لم يكن كلامهم مفهوماً، إلا إن كان نيوندا حاضراً ومستعداً للمساعدة، لكنهم فهموا ما يكفي. كانوا يتحدثون عن حجم بلدتهم وقوة حاكمهم. قالوا: إن جئتم هنا تقصدون الشر، فسوف تندمون. فقال الرجال: أي شر؟ نحن تجار. أهل سلم. لا شغف لدينا إلا في التجارة. أما المتاعب فتركها للكسالى والمخبولين. اشترى محمد عبد الله أخشاباً وقشاً لبناء مأوى مؤقت للمرضى ولتخزين البضائع. كان يشرف على البناء تحت الضوء الخافت، فيثير ضحك الرجال بصيحاته وتصرفاته الغريبة. بعد ذلك أمرهم بمراكمة الأكياس كلها في منتصف المأوى، وحراستها على الدوام.

فلما توضأ التاجر وصلى، أرسل في طلب يوسف وأخبره بالهدايا التي ينبغي له أن يأخذها إلى تشاتو. إن تاجرنا جيداً هنا، سنكون قد وفّقنا في رحلتنا هذه. أما محمد عبد الله فقد ارتأى الانتظار حتى الصباح، وفرض حراسة قوية في الليل، والتزام الرجال في أماكنهم. لديهم بندقيتان فقط معبأتان بالذخيرة، وربما ينبغي لهم تعبئة بندقيتين آخرين. هزّ التاجر رأسه. كان حريصاً على إرسال الهدايا قبل حلول الظلام، تحسباً لانزعاج السلطان من قلّة كياستهم. لاحظ يوسف أنّ العمّ عزيز كان قلقاً، أو ربما متحمساً بعض الشيء. قال: دعونا نرى ما إذا كان مفيدو هذا ينبج من تلقاء نفسه أم نيابة عن سيّده. أسرع سيمبا مويني (الذي كان سيرافق يوسف) في ترتيب الهدايا، واختار خمسة حمّالين يحملونها إلى مسكن تشاتو. ولا بدّ من ذهاب نيوندو كذلك، مترجماً. كان يزداد دعاية مع ارتفاع أهميته، لكنّ الرجال كانوا يغيظونه ويقولون له إنّه يحرق في ترجمته ويخلق. كان يتحمّس الآثار على وجهه طوال الوقت، يتلمّس جروحه بذهن شارد.

دخلوا فناء مسورًا في مسكن تشاتو، دون أن يتعرض لهم أحد. توقفوا هناك في انتظار شخص يأتيهم ويدخلهم، وما لبث أن جاء شابان إليهم وقالوا إنهما ولدا تشاتو. كان الناس جالسين خارج بيوتهم، بعضهم ينظر إلى الرجال دون اهتمام كبير. وثمة أطفال يركضون هنا وهناك، منهمكين في ألعابهم.

قال يوسف: «لقد أحضرنا هدايا للسلطان».

فأضاف سيمبا مويني بحزم: «وتحيات السيّد أيضًا. أخبرهم بذلك أيضًا»، وكأنه يخطئ يوسف.

قادهما الشابان إلى واحد من المنازل، يتميز عن الأخرى بشرفة واسعة في جزئه الأمامي. كان هناك عدّة رجال يجلسون على مقاعد خفيضة في الشرفة، من بينهم مفيو والكبراء الآخرون. فلما ظهروا، نهض رجل نحيف من مقعده، ووقف ينتظرهم مبتسمًا. وحين اقتربوا، خرج الرجل من الشرفة وسار نحوهم بيد ممدودة وعبارات ترحيب، وكأنه كان سعيدًا برؤيتهم. كان يوسف قد سمع الكثير عن تشاتو، فلم يتوقّع أن يكون شخصًا ودودًا لطيف المعشر هكذا. قادهم إلى الشرفة، وأنصت في انزعاج واضح إلى تملّق التاجر الذي نقله سيمبا مويني من خلال نيوندو. بل إنّه في بعض اللحظات بدا مندهشًا، أو متشككًا.

قال نيوندو: «يقول إنك تبالغ في تبجيله. أمّا بالنسبة إلى الهدايا، فهو يشكرني على كرمي. يقول لك اجلس من فضلك ولا تصدر أيّ إزعاج. يريد منّي أن أحدثه عن أخباري».

فهدر سيمبا مويني في وجهه: «لا تتحامق. لم نأتِ هنا للعب. أخبرنا بما يقوله فقط وكفّ عن الدعابة».

فقال نيوندو في تحدّ: «يقول لك اجلس، ولا تصرخ في وجهي، وإلا تحدّث معه بنفسك. على أيّ حال، يريد أن يعرف سبب مجيئنا إلى بلدتهم».

فقال سيمبا مويني: «للتجارة»، ونظر إلى يوسف حائثاً إيّاه على التوضيح أكثر.

حوّل تشاتو تحديقته المبتسمة إلى يوسف، متكئاً على مقعده كي يراه جيّداً. مرّت لحظة لم يستطع فيها يوسف أن يتكلّم، من أثر نظرات تشاتو. حاول أن يردّ ابتسامته، لكنّ وجهه لم يسعفه، وأدرك أنّ ملامحه أصبحت بالتأكيد ملامح خائف أحرق. ضحك تشاتو ضحكة خفيفة، وأسنانه تلتمع تحت الضوء الخافت. ثمّ قال يوسف أخيراً، وقلبه يكاد يسقط من أثر التوتر: «تاجرنا سيخبركم بكلّ شيء عن تجارته. وقد أوفدنا إليك لتقديم احترامه، وطلب الإذن بزيارتكم غداً».

ضحك تشاتو مسروراً حين تُرجم له كلام يوسف. قال نيوندو مستغلاً ذلك الجوّ من الحبور: «يقول إنك تجيد الحديث. لقد غيرتُ ألفاظك كلّها كي تبدو أكثر حكمة، ولا داعي لتشكرني. أمّا عن التاجر، فقال إنّ بإمكان أيّ أحد أن يزوره في أيّ وقت. فليس سوى خادم لشعبه كما يقول. ويريد أن يعرف ما إذا كنت خادماً للتاجر أم ابنه».

قال يوسف وهو يستطعمُ المهانة: «خادم».

فأشاح تشاتو ببصره عنه ووجّه كلامه لسيمبا مويني عدّة دقائق. جاهد نيوندو لكنّ ترجمته جاءت في بضع ثوان: «سيقابل التاجر غداً، إن سار كلّ شيء على ما يرام. لقد أخبره الدليل عن رحلتنا في الغابة،

ويقول إنه يرجو الشفاء لأصحابنا. أوه، اسمع الآن ماذا يقول. يقول اعتنوا بهذا الشاب الوسيم. هكذا قال. اعتنوا بهذا الشاب الوسيم. هل تريدني أن أسأله ما إذا كانت لديه ابنة يريد أن يخطبك لها؟ أو ربّما يريدك لنفسه. سيمبا، سنكون محظوظين لو عدنا إلى الساحل دون أن يسرقه أحد منّا».

قدّم سيمبا مويني تقريرًا متحمّسًا للتاجر، فنقل حماسه هذا إليه وإلى المنيابارا. كم كان ودودًا ومتّزنًا. فقال التاجر ستاجر جيّدًا هنا. سمعتُ أنّ لديهم كثيرًا من العاج. كان معظم الرجال ممدّدين على الأرض لفرط التعب. وما لبث أن حلّ الصمت على مخيمهم، واستند الحراس على أيّ شيء يجدونه كي يرتاحوا. نام يوسف من فوره، لكنّه استيقظ فجأة على ضجّة وأضواء ساطعة. كان يجاهد في صعود جبل سحيق، مليء بالصخور البارزة والوحوش التي تجوس هنا وهناك. فلمّا وصل إلى حافة الجرف رأى أمامه مياه هائجة، من خلفها جدار عال فيه بوابة من لهب. الضوء لون الطاعون، وغناء العصافير نبوءة الوباء. وظهر إلى جانبه طيف غامض قال بلطف: لقد أبليت بلاء حسنًا كي تنجو. قال في نفسه على الأقلّ لم يكن هناك كلب يفتّش فيه، واعيًا بارتجافات الرعب التي كانت تنحسر في داخله. كان يشعر بالخزي من الخوف الذي يتصاعد فيه في تلك الساعات الهادئة، وبينما هو ينظر إلى الرجال النائمين من حوله حاول ألاّ يتذكّر أنّهم كانوا قريبين جدًّا من حوافّ العالم المعروف.

وحين انقضى عليهم رجال تشاتو من جميع الجهات، كان قد عاد إلى نومه. ذبحوا الحراس في الحال واستولوا على أسلحتهم، ثم ضربوا النائمين كي يستيقظوا. لم تكن هناك أيّ مقاومة، فقد هجموا

عليهم بغتة. سيق المسافرون إلى منتصف الساحة، يدفعهم رجال
ساخرون مبتهجون. أشعلت المشاعل ورُفعت عاليًا فوق الأسرى،
وقيل لهم أن يجلسوا على الأرض رافعين أياديهم على رؤوسهم. أما
أكياس البضائع التي حملوها على أكتافهم فقد أخذها منهم رجال
ونساء وهم يضحكون. طوقوهم بسرور طوال الليل حتى مطلع الفجر،
يسخرون منهم ويضربون بعضهم.

أخذ المسافرون يشجعون بعضهم بعضًا، وارتفع صوت محمد
عبد الله فوق الآهات والأنات، يصرخ فيهم ويحثهم على الصمود.
كان بعضهم يبكي، إذ قُتل أربعة منهم وأصيب آخرون. وتحت الضوء
لاحظ يوسف أن المنيا بارا قد ضُرب. كان الدم يغطي وجهه وملابسه.
قال: «غطوا الأموات. حافظوا على حرمتهم، يرحمهم الله». فلما رأى
يوسف ابتسم. «على الأقل ما يزال ولدنا معنا. فلن يصيبنا من فقدانه
إلا سوء الحظ».

صاح أحدهم قائلاً: «حظّ إبليس. انظر إلى الحظّ الذي جلبه علينا
حتى الآن. انظر كيف انقلب حالنا. لقد خسرنا كل شيء».
وصاح آخر: «سوف يقتلوننا».

فقال التاجر: «وكلوا أمركم لله». تحرّك يوسف في مكانه دون أن
ينهض، كي يقترب من العمّ عزيز. تبسّم التاجر وربّت على كتفه. «لا
تخف».

وحين طلع النهار جاء أهل البلدة ينظرون إلى الأسرى، يضحكون
ويرمونهم بالحجارة. ظلّوا يحرسونهم طوال الصباح، فتركوا أشغالهم
وراقبوا أولئك الأسرى المتجمّعين وكأنّهم يتوقعون أن يفعلوا شيئًا

غريبًا. وأجبر الأسرى على قضاء حاجتهم في أماكنهم، فهلّل الأطفال والكلاب. وفي وقت متأخر من ذلك الصباح جاء مفيبو يستدعي التاجر للقاء تشاتو. كان صوته عاليًا وهازنًا. قال نيوندو وهو يشير إلى المنيا بارا: «يريده أيضًا. والاثنيّن اللذين ذهبا بالأمس».

كان تشاتو يجلس في شرفته مرّة أخرى، يحيط به الشيوخ. الفناء ممتلئ بالناس، مبتسمين مسرورين. نهض تشاتو من مقعده لكنّه لم يقترب من الأسرى. كانت ملامحه جادة رصينة. أوّماً إلى نيوندو، فأتاه هذا على مضض. وقال نيوندو للبقية: «يقول إنّهُ سيتحدّث ببطء كي أفهم كلّ ما يقوله. سأبذل قصارى جهدي يا إخوتي، ولكنّ سامحوني إن أخطأت».

فقال التاجر بلطف: «وكّل أمرك لله».

نظر إليه تشاتو في مقت، ثمّ بدأ يتحدّث. قال نيوندو وهو يتوقّف بين جملة وأخرى كي يتابع تشاتو حديثه: «هذا ما يقوله. لم نطلب منكم المعجىء إلى هنا، ولا نرحّب بكم. نواياكم غير كريمة، ومجيئكم بيننا لا يحمل لنا إلّا الشرّ والبلاء. جئتم لأذيتنا. لقد عانينا من آخرين من أمثالكم سبقوكم، ولسنا مستعدّين للمعاناة مرّة أخرى. لقد جاؤوا إلى جيراننا وأسروهم وأخذوهم معهم. وبعد أوّل معجىء لهم إلى أرضنا حلّت علينا البلايا. وما جئتم إلّا لتضيفوا بلاء على بلاء. محاصيلنا لا تنمو، وأطفالنا يولدون عُرجانًا ومرضى، وبهائمتنا تموت من أمراض لم نسمع بها من قبل. أحداث رهيبة وقعت منذ أن حللتهم بيننا. أتيتم بالشرّ معكم. هذا ما يقوله».

فقال التاجر: «إنّما جئنا للتجارة فحسب»، لكنّ تشاتو لم يرغب في سماع الترجمة.

قال نيوندو على عجل كي يسمع بقيّة ما يقوله تشاتو: «لا يريد أن يسمع كلامك، بوانا تاجري. يقول لن نتنظر إلى أن تستعبدونا وتستولوا على أرضنا. حين جاء قومك أوّل مرّة إلى هنا كنتم جوعى وعرايا، ونحن أطعمناكم. كان بعضهم مرضى ونحن رعيّناهم إلى أن استردّوا عافيتهم. بعد ذلك كذبتم علينا وخدعتمونا. هذا كلامه. اسمعوا ما يقوله! من الذي يكذب الآن؟ يقول هل تظنّوننا بهائم ينبغي لنا أن نستمرّ في قبول هذه المعاملة؟ هذه البضائع التي أتيتم بها كلّها ملكنا، فكلّ ما تنتجه الأرض ملك لنا. ولذلك سنأخذها. هذا ما قاله».

فقال التاجر: «إذن تسرقوننا. قل له ذلك قبل أن يتحدّث مرّة أخرى. كلّ ما أحضرناه معنا ملك مستحقّ لنا، وقد جئنا كي نتاجر به ونأخذ بدلاً منه العاج والذهب وأي شيء آخر ذا قيمة—»

قاطعه تشاتو مطالباً بترجمة كلامه، فلمّا تُرجم ارتفع زعيق ساخر بين الحضور. ثمّ تحدّث تشاتو مرّة أخرى، بوجه ملؤه الغضب والازدراء. قال نيوندو: «يقول إنّنا لا نملك الآن إلّا حيواتنا».

فقال التاجر مبتسماً: «كرم بالغ منه». لم يقل نيوندو هذا، وأشار تشاتو إلى حزام التاجر الذي يحفظ فيه نقوده، وأمر واحداً من رجاله بتمزيقه. مكتبة سرّ من قرأ

وندّت تنهيدة بين الحضور بينما كان تشاتو ينظر في غضب إلى التاجر. بعد لحظة، تحدّث مرّة أخرى في بطء ووعيد، ما جعل فمه يمتلئ غضباً وحقداً. «يقول إنّهم عانوا من المصائب ما يكفيهم، ولا يريدون أن يلطّخوا أرضهم بدمائنا، وإلّا لفعل ما يلزم كي لا نزعج أحداً آخر في هذا العالم بعد الآن. لكنّه يقول إنّّه يريد تأديب واحد

من خدمك قبل السماح لنا بالرحيل. هذا ما قاله». وبإشارة من تشاتو، خرج الدليل الذي جاء معهم من بين الحاضرين ولمس صدر محمد عبد الله، فجفل هذا باشمئزاز لا إرادي. وبإشارة أخرى، أمسك رجلان بالمنيابارا فيما شرع آخرون في ضربه بالعصي. اندفع الدم من منخريه بينما كان جسده يهتز تحت ضرباتهم. وارتفع تهليل الحاضرين حتى أغرق صرخاته، وبدت حركاته كأنها مسرحية صامتة. لم يتوقفوا عن ضربه حتى بعد أن سقط على الأرض لا يحرك ساكناً. فلما توقفوا اهتز جسد المنيابارا اهتزازات متقطعة.

رأى يوسف الدموع تنهمر على وجه العم عزيز.

وتحدث تشاتو مرة أخرى، فتأوه الحاضرون في خيبة أمل، وهز بعض الشيوخ رؤوسهم معترضين. وتحدث من جديد، رافعاً صوته ضد اعتراضهم، ناظراً إلى نيوندو، لكنه يشير إلى التاجر. «يقول الآن خذ قافلة الشر التي أتيت بها وابتعد من هنا. شعبه غير موافق، لكنه يقول إنه لا يريد مزيداً من المصائب على أرضه. يقول إنه حين ينظر إلى الشباب مثله، يخطر له أنه لا يمكن أن نكون كلنا خاطفين أشراراً وصيادي بشر... وهذا ما يجعله يبدي رحمته. يقول اذهبوا الآن قبل أن يغيّر رأيه ويعدل عن طبيته. ها هو الشاب قد جلب لنا الحظّ أخيراً».

فقال التاجر: «إنما الرحمة من عند الله. أخبره بهذا. وكن دقيقاً. الرحمة بيد الله، وليس له هو أن يمنحها أو يمنعها. قل له ذلك بعناية».

نظر تشاتو إلى التاجر غير مصدق، فيما أخذ الشيوخ الواقفون قرب نيوندو يضحكون ويسخرون. «يقول إنّ لك لساناً شجاعاً. ويقول لك

مرة أخرى، في حال أنك لم تفهم مغزى كلامه، خذ رجالك وارحل. هذا ما يقوله يا بوانا. وأظنّه بدأ يغضب مرة أخرى».

قال التاجر: «لن نرحل من دون بضائعنا. قل له إن كان يريد أن يسلبنا حيواتنا، فله ذلك. لا قيمة لها. أمّا إذا كان لنا أن نعيش، فنحن نطالب ببضائعنا أيضًا. إلى أين يمكننا الوصول من دون بضاعة نتاجر بها؟ أخبره أننا لن نرحل من دون بضائعنا».

6

وصف التاجر للرجال ما حدث في قصر السلطان. أخبرهم عن الألفاظ القبيحة التي وصفهم بها، وضرب محمد عبد الله، ومصادرة بضائعهم، وطردهم من البلدة، ورفضه أن يرحل. ثم أعطاهم حرية القرار لمن يريد الرحيل. فصاح الرجال وأقسموا بالولاء للتاجر، وتعهدوا بقبول ما قدره الله عليهم. وحدثهم سيمبا مويني بأنّ شباب يوسف هو الذي أنقذهم من مصير أسوأ، فارتفعت الهتافات والتعليقات النابية. ثمّ لزموا الهدوء، وفقًا لأوامر أسريهم، فاضطّروا إلى التفكير في بطونهم الفارغة ورفاقهم المرضى. لم يكن هناك ظلّ يختبئون فيه من الشمس، وبمرور النهار ازداد تذمرهم. صنعوا مظلات للجرحى بملابسهم، إذ رفعوها بالعصي والخيوط.

كان المنيابارا قد استعاد وعيه، رغم أنّه كان ضعيفًا يرتجف من بدايات حمّى. كان مستلقيًا يثنّ على الأرض، يتمتم بكلمات لم يعبا أحد بمحاولة فهمها. تنفتح عيناه كلّ بضع دقائق، فينظر حوله وكأنّه لا يعي أين هو. وانتظر الرجال قرار التاجر فيما كانوا يتجادلون حول

الحلّ الأنسب. أولاً يجدر بهم الرحيل ما داموا في مأمن؟ فمن يضمن ما يفعله تشاتو بعد ذلك؟ وما الذي يمكنهم أن يفعلوه الآن؟ سوف يتضوّرون جوعاً إن ظلّوا في البلدة أو غادروها من دون بضائعهم. وربما يأسرهم شخص ما.

قال العمّ عزيز ليوسف، بابتسامته الثابتة التي بدأت تحوم مرّة أخرى حول أطراف فمه: «أرأيت حماقة الجسد؟ انظر إلى بن عبد الله الشجاع وكيف أصبح جسده واهناً لا يُعوّل عليه. لو كان رجلاً أضعف منه لما تعافى أبداً من هذا الضرب، لكنّه سيتعافى. غير أنّ الوضع أسوأ من ذلك، فطبيعتنا خسيصة غدارة. لو كنتُ غراً لصدقتُ ما قاله السلطان الغاضب. فهو يرى فينا شيئاً يريد تدميره، ويحكّي لنا حكايات كي نوافق على إرضائه. ليت به بإمكاننا أن نترك أجسادنا ونطمئنّ إلى أنّها ستعرف كيف تضمن سلامتها ومتعتها. يوسف، ها أنت تسمع شكوى الرجال. فماذا نفعل برأيك؟». وابتسم قائلاً: «لعلّك رأيت رؤيا في المنام ويمكنك أن تفسّرها لنا وتنقذنا، كما فعل يوسف الآخر».

هزّ يوسف رأسه، غير قادر على القول إنّه لا يرى أيّ أمل لهم. فقال التاجر: «في هذه الحالة إذن، من الأفضل أن نبقي هنا ونتضوّر جوعاً. فهل سيشعر هذا السلطان بالخزي من ذلك؟». وهنا جفّل يوسف في إشفاق.

ثمّ قال التاجر وهو يومئ لسيمبا مويني أن يقترب: «سيمبا. ما رأيك؟ نغادر من دون بضائعنا أم نبقي هنا إلى أن نستردّها؟»

فقال سيمبا مويني دون لحظة من تردّد: «علينا أن نرحل، ثمّ نعود لقتالهم».

سأله التاجر: «من دون أسلحة أو بضاعة نشترها بها؟ وكيف ستنتهي حرب كهذه؟»

في عصر ذلك اليوم أرسل لهم تشاتو شيئاً من الموز الناضج واليامات المسلوقة، وبعض اللحوم المجففة. وأحضر لهم بعض الأهالي ماء للشرب والاغتسال. لاحقاً، استدعى تشاتو التاجر فذهب معه نيوندو وسيمبا مويني ويوسف. لم يكن هناك حشد من الناس في فئائه هذه المرة باستثناء الشيوخ الجالسين في راحة على الشرفة من دون تكلف رسمي. خطر ليوسف أنهم ربما كانوا دائماً يجلسون هناك، مثل كبار السن الذين يجلسون عند الدكان. تحدّث تشاتو في هدوء، وكأنه قد توصّل إلى كلماته هذه بعد تفكير طويل. قال نيوندو وهو يميل إلى الأمام كي يسمع كلام السلطان: «يقول إنّ جماعة من شعبنا جاءت إلى هنا قبل عامين. بعضهم ذو بشرة فاتحة، مثلك يا بوانا تاجري، والبعض الآخر ذو بشرة داكنة. قالوا إنّهم قدموا من أجل التجارة، مثلكم. ويقول إنّهم أعطاهم ذهباً وعاجاً وبعض الجلود الرفيعة. وقال تاجرهم إنّهم لا يملك ما يكفي من البضائع للمقايضة، وسوف يذهب ويعود ليدفع ما تبقى عليه. لكنّه لم يعد حتى الآن. وذاك التاجر أخونا، كما يقول. ولذلك فسوف يأخذ الدين المستحقّ على أختينا من بضائعنا. هذا ما قاله».

همّ التاجر بالكلام، لكنّ تشاتو تابع كلامه، فأجبر نيوندو على الإصغاء: «يقول إنّهم لا يريد أن يعرف ردّك. لقد ضيّع وقتاً كثيراً معك. هل تظنّه خويخويّاً؟ الخويخوي هو الذي يسمح للغرباء بأن يسرقوه وهو يرقص تحت نور القمر. لا يريد منك سوى أن ترحل قبل أن يقع شيء سيئ. يقول إنّ كثيرين هنا غير راضين بهذا القرار، لكنّه يرغب

في إنهاء المسألة. وهذا هو قراره بعد تفكير طويل. يقول إنه سيعطيك بعض البضائع تتاجر بها كي يمكننا الخروج من أرضه. والآن يريد أن يعرف ما إذا كان لديك ردّ على كلامه».

ظلّ التاجر صامتًا فترةً طويلة، ثمّ قال: «قلّ له إنّ قراره ينمّ عن حِكْمَةٍ، لكنّ حُكْمَه ليس عادلاً».

فلمّا تُرجم كلامه ابتسم تشاتو. «ما الذي جاء بكم من بلادكم إلى هنا؟ البحث عن العدل؟ هذا سؤاله. يقول إنّ كان هذا ما تبحثون عنه فقد لقيتموه. سوف آخذ بضائعكم كي أحقّق العدل لشعبي، وأعوّضهم عن البضائع التي سرقها أخوكم. والآن اذهب وابحث عن هذا الأخ الذي سرقني وخذ حقّك بالعدل منه. أعتقد أنّ هذا هو ما قاله».

واستأنفوا الحديث في اليوم التالي، يتجادلون حول قدر البضائع التي سيُسمح للتاجر بأخذها، وقيمة البضائع المصادرة، وقيمة الدّين المستحقّ لتشاتو. جلس الشيوخ حولهم يقدّمون مشورتهم، لكنّ تشاتو تجاهلهم بلطف. كان الرجال الأصغر سنًا يريدون البنادق الثلاث التي أخذوها من الحراس كي يذهبوا للصيد، لكنّ تشاتو تجاهلهم أيضًا. لم تأتِ أيّ امرأة، رغم أنّ يوسف كان يراهنّ يتجولن في الفناء يقضين حوائجهنّ. واجتهد نيوندو في ترجمة ما يقوله الجميع، فكان الجميع ينظر إليه في ارتياب. سأل التاجر ما إذا كان بالإمكان منحهم حرّية التحرك في البلدة للقيام ببعض الأعمال في البلدة مقابل الطعام، إلى أن يتعافى الرجال ويكونوا جاهزين للسفر. وافق تشاتو على ذلك شريطة أن يُترك يوسف معهم رهينة. وفي تلك الليلة نام يوسف في شرفة أحد المنازل في فناء تشاتو، بينما هرب اثنان من المسافرين بحثًا عمّن ينقذهم.

لقي يوسف معاملة حسنة في منزل تشاتو. كان السلطان يتحدث معه بنفسه، رغم أن يوسف لم يفهم منه إلا بضع كلمات. أو لعله تصوّر أنه فهمها، فقد كانت هناك ألفاظ كثيرة تبدو له مألوفة. كان يخمن الموضوع والأسئلة من وجه تشاتو وبعض الكلمات، فيجيب عنها. كم تبلغ المسافة التي قطعوها في سفرهم؟ وكم عدد سكانهم؟ وما الذي دعاهم إلى قطع تلك المسافات؟ تحدث يوسف حول ذلك في جدية، ولكن لم يبد أن السلطان أو أيًا من شيوخه فهم شيئًا من كلامه. فلمّا جاء التاجر يجري جولة أخرى من المفاوضات، قلب نظره بحثًا عن يوسف، إلى أن رآه فابتسم.

قال يوسف: «أنا بخير».

فقال العمّ عزيز ولم تفارقه ابتسامته: «أحسنت يا يوسف. تعال واجلس معي حتّى نسمع ما يقوله السلطان عنك».

لم يكن يُسمح ليوسف بمغادرة الفناء، ولم يكن يُتوقع منه أن يقترب من الشرفة التي يقضي فيها تشاتو وشيوخه سحابة نهارهم، إلا إذا استدعوه. أولم يكن لأولئك الشيوخ عمل يقومون به، أو مزارع يعتنون بها، أو حتّى ينظرون إليها في بهجة وسرور؟ لعلّ وجود القافلة في بلدتهم تطلّب منهم أن يتركوا كلّ أشغالهم الأخرى. كان يوسف يقضي طوال النهار جالسًا ينتظر مرور الوقت، وينظر إلى النساء وهنّ ينجزن أعمالهنّ. من ينظر إليهنّ يُخيّل إليه أنّهن لا يفعلن شيئًا في أيامهن سوى الجلوس تحت الظلّ.

كانت النساء تعبث معه، بتعليقاتهنّ وابتساماتهنّ العريضة، رغم أنّها لم تبدّ له تعليقات أو ابتسامات ودودة. كُنّ يرسلن إليه الفتيات يحملن

الهدايا الصغيرة والمعاكسات. كانت تبدو له هكذا على أيّ حال، وكان يترجمها لنفسه كي ينفق الوقت. تعال قابليني عصر اليوم حين يأخذ زوجي قيلولته. هل تريد أن أحممك؟ هل أحكّ لك جسدك؟ في بعض الأحيان كانت ضحكاتها تعلو مع صيحاتهن، بل إنّ إحدى النساء المسنّات كانت تطير له القبلات وتهزّ عجيزتها كلّما مرّت أمامه. أمّا الفتاة التي تحضر له الطعام فكانت تحدّق فيه بلا خجل، تجلس على مقربة وهو يأكل. تتحدّث إليه بين الفينة والأخرى وهي متوتّرة عابسة. كان يغضّ بصره عن صدرها شبه المكشوف، وكانت تشدّ انتباهه إلى خرزاتها التي ترتديها حول عنقها، فترفعها قليلاً لإثارة إعجابه.

قال يوسف: «خرز. أعرفها. ولا أعرف لماذا يحبّها الناس كثيراً. في بعض الأماكن التي مررنا بها قد يبيع الناس خروفاً كاملاً مقابل حفنة خرز. ليست سوى حليّ، فما الذي يمكن للمرء أن يفعله بالخرز؟»

سألها مرة أخرى: «ما اسمك؟» لكنّها لم تفهم. راقته كثيراً، بوجهها الرفيع المدبّب وعينيها البسّامتين. كانت كثيراً ما تجلس إلى جانبه دون أن تتحدّث، وشعر بأنه ينبغي له أن يكون أكثر رجولة، لكنّه لم يرد أن يسيء إليها. فكلّما أشار بأنه يحتاج إلى شيء، أرسلوها إليه. حتّى تشاتو كان يغيظه بذلك حين جاء العم عزيز للتفاوض. قال نيوندو وهو يبتسم ليوسف: «يقول إنّهُ سمع بأنّ ابننا هذا قد تزوّج من إحدى بناتهم، وسيتعيّن علينا إضافة هذا إلى ديوننا. لم تضيّع وقتاً أيّها الشيطان القذر. يقول دعه يبقى معنا وينجب أبناء لباتي. فما لهذا الشاب والتجارة؟ يقول اتركه هنا وسوف تعلّمه باتي شؤون الحياة».

باتي. ذاك اسمها. لاحظ يوسف أنّه كلّما اقتربت منه باتي يبتسم الآخرون ويتبادلون النظرات. وفي ليلته الرابعة في فناء تشاتو جاءت

الفتاة إليه بعد حلول الظلام. جلست بجانب حصيرته، تدندن في هدوء بينما تحرك أصابعها على وجهه وشعره. أخذ يداعبها دون أن يتحدث، وقد أسرته تلك الراحة والمتعة التي شعر بها. ثم ما لبثت أن ذهبت فجأة، وكأنها تذكرت شيئاً. وطوال اليوم التالي لم يستطع إبعادها عن عقله، فكلما لمحها تبسم. صفقت النساء وصاحت حين رأين ذلك، في ضحك على تلك الملهاة.

زار العمّ عزيز تشاتو مرة أخرى في ذلك اليوم وتحدث إلى يوسف. قال: «استعد. سنرحل قريباً في ليلة من الليالي. سنحاول استعادة بضائعنا مرة أخرى، ثم نهرب. وهناك خطر».

في تلك الليلة جاءته الفتاة مرة أخرى وجلست إلى جانبه. ظلّ يداعبها وتداعبه، واستلقيا في آخر الأمر على الأرض. تنهّد في سرور، لكنها جلست من فورها واستعدّت للذهاب. فقال: «ابقي معي».

همست له بشيء وهي تسدّ فمه براحة يدها. ففي غمرة انتشائه رفع صوته، وراها تبسم في تلك الظلمة. سعل شخص في أحد المنازل المجاورة، فهربت باتي في جنح الظلام. ظلّ يوسف مستيقظاً فترة طويلة، يعيش مرة أخرى لحظات المتعة تلك ويتطلّع إلى الصباح كي يراها. اندهش من شوق جسده إليها، وكيف شعر بالألم حين ذهبت فجأة. فكرّ في تشاتو والتاجر، وعرف أنهما سيغضبان ممّا يحدث. ساوره القلق، فهدأ نفسه بتفريغ الرغبة التي أثارته فيه باتي. وبعدها راح يبحث عن النوم.

في الصباح رآها تغادر الفناء مع بعض النساء، في طريقهنّ إلى المزارع. استدارت ونظرت إليه، فضحكت النساء من ظنّها أنّ الأمر كان مخفياً. صحن: هذا هو الحب. متى الزفاف؟ أو على الأقلّ هذا ما ظنّه يوسف.

في منتصف النهار دخلت البلدة قافلة، يقودها أوروبيّ سار رجاله مباشرة إلى الفسحة الواقعة أمام مسكن تشاتو. نصبوا خيمة كبيرة على عجل، ورفعوا سارية علم. أما الأوروبيّ فكان رجلاً طويل القامة له صلعة ولحية كثيفة، يرتدي قميصاً وسروالاً، ويهفّ على نفسه بقبعة عريضة الحواف. جلس خلف طاولة وضعها رجاله له، وبدأ على الفور يكتب في كتاب. كانت قافلته تتألف من عشرات العسكر والحمّالين، وكلهم يرتدون سراويل قصيرة وقمصاناً فضفاضة. تجمع الناس حول المخيم، لكنّ العسكر المسلّحين أبعدوهم عنها. فلمّا سمع التاجر بوصول القافلة سارع إلى لقاء الأوروبيّ، ورغم أنّ الحراس أوقفوه في أوّل الأمر إلاّ أنّه حرص على أن يراه الأوروبيّ. وحين انتهى الأوروبيّ من الكتابة، نظر إلى الرجل الذي يرتدي ثوباً أبيض منسدلاً وأشار إليه أن يقترب. تقدّم كبير العسكر (الذي يتحدث السواحلية بطلاقة) كي يترجم. روى التاجر حكايته على عجل، ملتصقاً استرداد بضائعه المسروقة. أما الأوروبيّ فقد ثأب بعد أن استمع إلى حكايته، وقال إنّه سيرتاح قليلاً. فلمّا استيقظ، طلب استدعاء تشاتو إليه.

انتظر التاجر وتشاتو في الفسحة إلى أن يستيقظ الأوروبيّ. سخر رجال العمّ عزيز من تشاتو قائلين إنّ الرجل الكبير وصل. سيُطعمك الخراء أيّها اللص. وسأل تشاتو نيوندو ما إذا كان قد رأى أوروبيين من قبل، إذ إنّهم سمع أنّهم يأكلون المعدن. هل هذا صحيح؟ على أيّ حال، فقد حضر فوراً حين استدعي، كي لا تزداد المصائب عليه. قال نيوندو للتاجر: «يسألك هل تعرف طبيعة هؤلاء الناس؟».

قال التاجر: «أخبره بأنّه سيعرف قريباً. لكنّه سيعيد إليّ بضاعتي قبل أن ينتهي هذا اليوم».

وقف يوسف مع أصحابه الذين ظلّوا يمازحونه حول مكوثه في منزل السلطان. وأخيراً خرج الأوروبيّ من خيمته، بوجه محمّرٍ مجعّدٍ من أثر النوم. أخذ يغتسل بعناية وكأنّه بمفرده، وليس محاطاً بمئات الأشخاص. ثمّ جلس إلى طاولته وتناول الطعام الذي وضعه خادمه أمامه. فلمّا انتهى أشار للتاجر وتشاتو بالاقتراب.

قال: «هل أنت تشاتو؟»

فترجم رئيس العسكر كلام الأوروبيّ لتشاتو، فيما ترجم نيوندو كلام العسكري للتاجر. أوما السلطان للمترجم، واستدار بسرعة للنظر إلى الأوروبيّ مرّة أخرى. لم يكن قد رأى في حياته شيئاً أغرب من هذا الرجل الأحمر اللامع الذي ينبت الشعر من أذنيه كما قال لاحقاً.

وبعد أن تحدّث الأوروبيّ، قال المترجم: «أنت يا تشاتو، هل أصبحت رجلاً كبيراً؟ هل هذا ما دار في بالك؟ كيف تسلب الناس أملاكهم؟ ألا تخشى قانون الحكومة؟»

فقال تشاتو وهو يرفع صوته على المترجم: «أيّ حكومة؟ عمّ تتحدّث؟»

فقال المترجم في حدّة: «أيّ حكومة؟ تريد أن تعرف أيّ حكومة؟ ويجدر بك ألا ترفع صوتك حين تخاطبني، يا صديقي. ألم تسمع بالثرائين الآخرين من أمثالك الذين أخرستهم الحكومة وحبستهم؟». وترجم نيوندو هذا الكلام في صيحة، ما أثار تهليل الرجال من أصحاب التاجر.

فقال تشاتو بغضب: «أفهل جاء إلى هنا كي يأخذ عبيداً؟ رجلك الكبير هذا، هل أتى لأخذ العبيد؟»

فتحدّث الأوروبي بنفاد صبر وقد احمرّ وجهه. قال المترجم: «كفّوا عن هذا الكلام الفارغ. الحكومة لا تتعامل بالعبيد. هؤلاء هم الذين كانوا يشترون العبيد، وقد جاء الرجل الكبير لمنعهم. اذهب الآن وأحضر بضائع هؤلاء الناس قبل أن تحدث مشكلة».

صاح تشاتو وقد ارتفع صوته مرّة أخرى: «لم آخذ بضائعهم من دون سبب. أحد إخوتهم أخذ ذهبي وعاجي».

فقال المترجم وقد قرّر تولّي الأمر بنفسه: «لقد سمع هذا كلّ، ولا يريد أن يسمع المزيد. أحضر بضائعهم كلّها. هذا ما يقوله الرجل الكبير... وإلا فسوف تعرف عمّا قريب ما يمكن أن تفعله الحكومة».

نظر تشاتو في المخيم، لا يدري ما يجدر به أن يفعل. فجأة نهض الأوروبي وأخذ يتمطّى. فقال تشاتو: «هل بإمكانه أن يأكل المعدن؟»

قال المترجم: «بإمكانه أن يفعل أيّ شيء يريده. ولكن إن لم تنفّذ ما قاله الآن فسوف يجعلك أنت تأكل الخراء».

وانفجر رجال التاجر في صيحات ابتهاج وسخرية، وأخذوا يشتمون تشاتو ويدعون باللعنة عليه وعلى بلدته. وهكذا أُحضرت كلّ البضائع المتبقية، وأمر الأوروبي بأن يرحل التاجر ورجاله فوراً، ويعودوا إلى بلادهم، شريطة أن يتركوا بنادقهم الثلاث. لم تعد هناك حاجة إلى البنادق بعد أن استتبّ النظام في ظلّ الحكومة. فلا تفضي البنادق إلّا إلى الحرب وخطف الناس. قال المترجم: اذهبوا الآن، فهناك أمر بين الرجل الكبير وهذا الزعيم. كان التاجر يودّ أن يبحث في المنازل عن بضائعه المفقودة، لكنّه سلّم بالأمر. هكذا حزموا أغراضهم على عجل، وبدوا

مسرورين منتصرين. ونظر يوسف في الحشد من حوله وهم يهرعون لتجهيز أغراضهم، رجاء أن يرى باتي مرة أخيرة. وما إن حلّ الليل إلّا وكانوا قد خرجوا إلى الريف، فعادوا إلى تلك الرحلة المضنية إلى بلدة ماريمبو على البحيرة، يتعثّرون على المسارات المنحدرة في سرعة تشبه الذعر، معتمدين على ذاكرة سيمبا مويني لمعرفة الطريق الذي جاؤوا منه. فهو الوحيد الذي لم تكن رحلته الأولى عبر الغابة كابوساً مريعاً.

ألّف الرجال أغنية عن تشاتو الشعبان الذي ابتلعه الجنّي الأوروبيّ الذي ينبت الشعر من أذنيه، لكنّ الغابة كتمت أصواتهم ولم تردّ صداهم. وتحسّر التاجر لأنّهم لم يستطيعوا أن يسوّوا الأمر بينهم وبين السلطان. قال: «الآن وقد جاء الأوروبيّ إلى هناك، فسوف يأخذ الأرض بأكملها».

مكثوا في بلدة ماريمبو عدّة أسابيع، فاستراحوا وتاجروا قدر استطاعتهم، على أمل أن يظهر الرجال اللذان هربا من بلدة تشاتو. لم يكن لدى الرجال عمل كثير. في بادئ الأمر كانوا متكاسلين من شدة البهجة، يشترى الرقصات والاحتفالات والولائم. أمّا المساءات فكانوا يقضونها في لعب الورق وسرد القصص، وصنع أسراب البعوض التي كانت تحوم حولهم لتعذبهم. كانوا يحضرون البيرة من أهل البلدة ويشربونها سرّاً، وحين يسكرون ييكون ويصرخون في الشوارع، يلعنون القدر وأحوالهم البائسة. تعافى المنيابارا من آثار الضرب، إلّا من جرح لم يلتئم في ربة ساقه، غير أنّ الألم والإذلال أضعفه وأخرسه، فلم يقو على فعل شيء للسيطرة على الرجال. وأمّا سيمبا مويني فقد نأى بنفسه عنهم جميعاً، وعمل عاملاً في قارب صيد. وما لبثت أن اندلعت مشاحنات طويلة بين الرجال، بين تهديد

ورفع سكاكين. واشتكى ماريমبو للتاجر من سلوك أصحابه، لكنه قبل هدية أخرى مقابل أن يصبر عليهم. ولاحظ يوسف أن التعب قد نال من العمّ عزيز، إذ تدلّى كتفاه، وكان يقضي الساعات دون كلام. وبينما كان يرقبه ذات مساء، تراءى له فجأة كأّنه حيوان ناعم صغير فقد قوقعته وتقطّعت به السبل في العراء، يخشى حتّى أن يتحرك. حين تحدّث إلى يوسف كان صوته ما يزال لطيفاً مبتهجاً، غير أنّ كلامه خلا من الفطنة أو الحدة. وبدأ يوسف يخشى هجرهم في هذا المكان النائي. وحين كانت الشمس تغرب عليهم في المساء أحياناً، يشعر أنّه يحترق.

سأل يوسف المنيا بارا ذات يوم: «هل حان الوقت للرحيل؟». كانا جالسين على حصيرة، وحاول يوسف أن يتجنّب النظر إلى الجرح اللامع في ساق المنيا بارا. أخذ ينظر إلى السماء إلى أن شعر بالدوار من وفرة النجوم البراقة. كانت تبدو مثل جدار من صخور ساطعة تهوي عليهم.

قال له محمد عبد الله: «تحدّث إلى السيّد. فلم يعد يسمعي. قلتُ له ينبغي لنا أن نرحل قبل أن نتعقّن جميعاً في هذا الجحيم، لكنّه يحمل عبئاً ثقيلاً. لا يسمعي».

فقال يوسف: «وما عساي أقول له؟ لا أجرؤ على الحديث إليه»، رغم علمه بأنّه سيكلّمه.

قال محمد عبد الله: «لديك مكانة في قلبه. تحدّث معه واسمع كلامه. ولكن قل له بعد ذلك إنّنا يجب أن نغادر. لم تعد صبيّاً. أتعرف سبب طبيّته معك؟ لأنك هادئ رزين، وفي الليل تنوّ من روى لا يراها أحد منّا. ربّما يعتقد بأنك مبارك». فابتسم يوسف لهذا التلاعب بالكلمات؛ فقد كانت مبارك الكلمة المؤدّبة لمعنى المجنون. وابتسم

محمد عبد الله، مسروراً لأنه فهم مزحته. وبعد لحظة مدّ يده إلى فخذ يوسف، واعتصره برفق.

قال وهو ينظر بعيداً: «كم كبرتَ في هذه الرحلة!». ولاحظ يوسف انتصاباً من خلف ملابس المنيابارا، فنهض فوراً. سمع ضحكة مكتومة من المنيابارا، ثم نحنحة. ذهب يوسف إلى البحيرة يشاهد الصيادين وهم يحضرون آخر ما اصطادوه.

انتظر حتّى انتصف النهار، حين أصبح الهواء دافئاً، ولم تتراكم أعباء اليوم عليهم بعد. قال وهو يجلس على مقربة، ويميل إلى الأمام احتراماً: «هل حان الوقت للرحيل أيّها العمّ عزيز؟». أولاً فهو ليس عمك! كانت هذه هي المرّة الأولى التي يخاطبه فيها بهذا اللقب منذ استعباده، لكنّ الظرف كان استثنائياً.

قال التاجر مبتسماً: «نعم، كان ينبغي لنا أن نرحل قبل أيّام. هل كنت قلقاً؟ رأيتك تراقبني. ما أبقاني هنا إلّا ضرب من الثقل. كسل، أو تعب... سمعت مراراً عن سوء أخلاق كلابنا هؤلاء، ولذلك ربّما حان الوقت لكي نخرجهم من هنا. سنستدعي المنيابارا وسيمبا مويني بعد قليل، أمّا الآن فاجلس معي وأخبرني عن رأيك في كلّ هذا».

جلسا في صمت بضعة دقائق، شعر فيها يوسف بشريط حياته يمرّ في يده، فتركه ينسَلّ دون مقاومة. بعد ذلك نهض وترك العمّ عزيز. وبعد ذلك ظلّ يوسف وقتاً طويلاً بمفرده، يساوره إحساس بالذنب لأنّه لم يستطع أن يحافظ على ذكرى والدّيه حيّة في عقله. تساءل ما إذا كان والداه ما يزالان يفكران فيه، وما إذا كانا على قيد الحياة، وأدرك أنّه لا يودّ أن يعرف. لم يستطع أن يقاوم ذكريات أخرى في هذه الحال، فاجتاحته صور التخلّي عنه، غزيرة متلاحقة. وكلّها كانت تدينه بإهمال

الذات. ثمة أحداث حدّدت مسار حياته، وقد رفع رأسه فوق الانقراض وركّز عينيه على الأفق القريب، ففضّل الجهل بما سيأتي على المعرفة التي لا تفيد في شيء. لم يكن هناك من شيء يستطيع فعله فيحرّره من أغلاله ويعيده إلى حياته.

أولاً، فهو ليس عمك. تذكّر خليلاً وابتسم رغم ما شعر به من كآبة وإشفاق على الذات. هكذا سيصبح، إن حافظ على ذكائه. مثل خليل، عصبيّاً، شرساً، مطوّقاً من كلّ الجهات، خاضعاً. عالماً حيث لا يدري. تذكّر مزاحه المستمرّ مع الزبائن، ومرحه المزعج، وأدرك أنّ هذا كلّه كان مجرد قناع من ورائه جروح خفيّة. شأنه شأن كالا سнга، على بعد ألف ميل من بلاده. ومثلهم جميعاً، عالق في مكان نتن، موبوء بالشوق، لا عزاء له سوى رؤى للكمال المفقود.

8

قال التاجر إنّ الطريقة الوحيدة لتجنّب الخسارة، ناهيك عن تحقيق أيّ ربح، هي السفر في طريق مختلف عبر مناطق أكثر سكّاناً. صحيح أنّ الرحلة ستكون بطيئة بسبب المرض الذي أصاب كثيراً منهم، لكنّ مسألة السرعة ليست الأهمّ في هذه الحال. لقد فقدوا ما يقرب من ربع رجالهم، وما يقرب من نصف بضائعهم، ناهيك عن الهدايا التي قدّموها جزية، وما سرقة منهم تشاتو.

هكذا ارتحلوا جنوباً، حول الطرف الجنوبي للبحيرة. تولّى المنيابارا المسؤولية مرّة أخرى، لكنّ نشاطه القديم قد ذوى، فزاد اعتماده هو والتاجر على سيمبا مويني أكثر من ذي قبل. كانت فرص التجارة وفيرة

في المناطق التي مرّوا بها، لكنّ البضائع التي يحملونها معهم لم تكن ذات قيمة كبيرة فيها، كما أنّ منتجات تلك المناطق لم تكن ثمينة كالعاج. استطاعوا في بعض الأماكن أن يشتروا قرون الكركدن، لكنّهم في أغلب الأحيان لم يجدوا غير الصمغ والجلود. وبعد بضعة أيّام من سفرهم لاح نمط متكرّر بينما هم يدورون هنا وهناك، ويخرجون عن مسارهم بحثاً عن مستوطنات وبلدات. غابت تلك المشاهد التي ملأت قلب يوسف بالعجب والخوف في رحلة الذهاب، وحلّ محلّها كابوس من الغبار والتعب. حشرات تلسعهم، وأشواك وشجيرات تقطّع أجسادهم. وذات مساء حطّت عليهم زمرة من قرود البابون، وهربت بكلّ ما استطاعت حمله. بعد ذلك صاروا يبنون حاجزاً في كلّ محطة يقفون فيها، إذ كانوا يخشون أن تأتيهم هجمات أسوأ من الحيوانات التي تجول حولهم في الليل وهم من دون سلاح. وأينما حلّوا سمعوا حكايات عن الألمان الذين منعوا فرض الجزية، بل وشنقوا بعض الناس لأسباب لم يفهمها أحد. هكذا قادهم سيمبا مويني بعيداً عن جميع المحطّات الألمانية المعروفة.

قضوا في رحلة العودة خمسة شهور، يتحرّكون ببطء، ويضطّرون في بعض الأحيان إلى العمل في المزارع كي يتدبّروا طعامهم. وفي بلدة «مكاليكالي» شمال النهر الكبير أُجبروا على البقاء ثمانية أيّام إلى أن ينتهوا من بناء زريبة لمواشي السلطان. فقد أصرّ السلطان على ذلك مقابل أن يبيع لهم الطعام الذي يحتاجون إليه لرحلتهم.

قال سلطان مكاليكالي: «لقد ولّت تجارة القوافل. فهؤلاء المداتشي لا رحمة عندهم. قالوا لنا إنّهم لا يريدونكم في أرضنا،

لأنكم سوف تستعبدوننا. قلتُ لهم لا أحد سيستعبدنا، لا أحد. نحن
كنا نبيع العبيد لهؤلاء الناس في الساحل. نعرفهم، ولا نخشاهم».
وقال التاجر: «الآن سيأخذ الأوروبيون والهنود كلَّ شيء»، فابتسم
السلطان.

وفي «كيغونغو» طُلب إليهم العمل في مزارع الشيوخ مقابل بيع
معاولهم. وهناك أصيب التاجر بوعكة. رفض أن يُحمل، ثمّ أصرَّ على
الرحيل بعد ثلاثة أيّام من بقائهم في كيغونغو. قال إنّهُ لا يحتمل البقاء
فترة أطول بين أولئك اللصوص الذين كانوا يسرقون منهم كثيراً كلَّ
يوم، ولا يعطونهم إلّا القليل. استراح الرجال كثيراً بسبب مرضه، وكان
يوسف يسير إلى جانبه لمساعدته. فلما وصلوا إلى «مبويلي» أدركوا
أنّهم يقتربون من الساحل. استراحوا عدّة أيّام هناك، ولقي العمّ عزيز
ترحيباً كبيراً من صديق قديم له يملك دكاناً في البلدة. كان يستمع إلى
ما حدث لهم، وتدمع عيناه. قال للعمّ عزيز: «هل ربحتَ ما يكفي
لسداد دين الهندي؟»، فهزّ العمّ عزيز كتفيه.

وبعد مبويلي أسرعوا في المسير إلى الساحل، ووصلوا إلى
أطراف بلدتهم في غضون ستّة أيّام، غير أنّ غبظتهم بالوصول نال
منها ما أصابهم من تعب وفشل. ملابسهم ليست سوى خرق بالية،
وجوههم هزيلة مأساوية من أثر الجوع. خيموا عند بركة، فاغتسلوا
قدر استطاعتهم، ثمّ أمّهم التاجر في صلاة دعا الله فيها أن يغفر لهم
سيئاتهم. وفي صباح اليوم التالي ساروا إلى البلدة، يقودهم زمار أصرَّ
على العزف رغم كلّ الظروف، غير أنّ ألحانه التي جاهد كي يجعلها
مرحة بدتْ حادة، حزينة.

بستان الرغبة

لن يتذكّر يوسف لاحقًا لحظة وصولهم. فالأيّام التي تلت عودتهم كانت مكتنّظة بحشود من الناس يحومون حول المنزل والفسحة، يريدون أن يسمعوا ما حدث. كان الحمّالون والحراس هناك أيضًا، يروون الحكايات عن بطولتهم ويتذمّرون على حظّهم فيما هم ينتظرون أجورهم. هكذا نشأت قرية من الخيام والنيران في الفسحة الكبيرة عند منزل التاجر، يزورها الفضوليّون والباعة الجائلون الذين يبيعون الطعام والقهوة. وظهرت أكشاك متهالكة على جانب الطريق، تنهّادى منها روائح اللحم المشوي والسمك المقلي، فتجذب الناس إليها. أسراب من الغربان تركت أشغالها وحطّت على الأشجار القريبة، تنظر بأعينها الحادّة اللامعة في بحث لا يتوقف عن لقمة سائغة. وانتشرت أكوام القمامة على حوافّ المخيم، فنضحت منها ينابيع صغيرة قدرة بمرور الأيّام.

تلقّى التاجر سيلاً من الزوّار في شرفته أمام الدكان، وكبار السنّ الذين اعتادوا الجلوس هناك أفسحوا مكانًا للآخرين لكنّهم لم يرحلوا وظلّوا جالسين في صمت. هم أيضًا كانوا يريدون البقاء على مقربة من هذه العودة المأساوية. كان الزوّار يأتون إلى التاجر في قلق واهتمام شديد، يقضون ساعات طويلة لا يفعلون شيئًا، يستمعون إلى حكاياته ما بين دهشة أو آهة من إشفاق. هكذا كانت الحشود المضطربة تدور حولهم بينما هم يتجاذبون أطراف الحديث ويشربون القهوة. ما بين الحين والآخر يُخرج أحد الزوّار دفترًا يدوّن فيه، أو يمشي قرب المخازن الواقعة بجانب المنزل. وُضع محمد عبد الله في واحد من

المخازن، وكان ما يزال يتعافى من الإنهاك والحمى، ويعاني من آلام غريبة بدأت بعد ضربه في بلده تشاتو. علّق قماش طويل فوق المدخل المفضي إلى غرفته، يرفرف شيئًا يسيرًا مع النسيم. كان الزوّار يأتون إليه لإلقاء التحيّة، ويرجون له الشفاء العاجل ثمّ يذهبون إلى المخازن الأخرى.

قال خليل ليوسف: «إنّما جاؤوا ليتفحصوا وضع السيّد».

ظهرت شعرات بيض في شعره واستدقّ وجهه الهزيل أكثر من ذي قبل. كان في استقبالهم مبتهجًا مسرورًا، فانقضّ على يوسف بفرحته، يتقافز حوله ويعتصره ويضربه على ظهره. قال لزبائنه: «ها قد عاد. أخي الصغير عاد. ولكنّ انظروا إليه كيف كبر». وفي الأيام التي أعقبت فوضى الوصول، ظلّ يلحّ على يوسف أن يعود إلى الدكان لينجز بعض الأعمال الحقيقيّة بعد تلك الرحلة. تبسّم العمّ عزيز، ففهم يوسف أنّ هذه رغبة التاجر أيضًا. كان يحبّ أن يبقى يوسف على مقربة، وكثيرًا ما يستدعيه لاستقبال ضيوفه وتحيّتهم، فيكافئه بعلامة على رضاه. كان خليل يتحدّث في حضور يوسف بلا انقطاع، ينطلق لخدمة الزبائن، ويدعوهم للتأمّل في المسافر العائد. «انظروا إلى تلك العضلات. من كان يظنّ أنّ كيفا أوروغو الضعيف سيصبح هكذا؟ لا أعرف ما الذي أطعموه إيّاه خلف الجبال، لكنّه الآن بجسمه هذا أصبح يليق بإحدى بناتكم». أمّا في الليل، حين تتناهى من المخيمّ تمتّات وضحكات أو أغنية، فكان كلّ منهما بفرش حصيرته على زاوية الشرفة. وفي كلّ ليلة يقول خليل: «حسنّ، أخبرني الآن عن الرحلة. أريد أن أسمع كلّ شيء».

شعر يوسف وكأنّه يستيقظ من كابوس. قال لخليل إنّّه في أحيان كثيرة من الرحلة كان يشعر بأنّه حيوان لينّ اللحم تخلّى عن قوقعته

وأصبح عالقًا في العراء، كحيوان حقير بشع يشق طريقه بين الانقراض والأشواك. هكذا كان يراهم جميعًا، يتخبّطون في العراء. لكنّه قال إنّ الرعب الذي شعر به لم يكن يشبه الخوف. وكأنّه لا وجود حقيقيًا له، كأنّما يعيش في حلم، على شفا الانقراض. وكلّ ذلك جعله يتساءل عمّا يريده الناس إلى الحدّ الذي يستطيعون معه التغلّب على هذا الرعب بحثًا عن التجارة. قال إنّ الأمر لا يقتصر على الرعب، لكنّ الرعب هو الذي يجسّد الأشياء. وقد رأى أشياء لم يكن له قطّ أن يتنبأ بها.

قال: «الضوء على الجبل أخضر. لا يشبه أيّ ضوء تخيلته في حياتي. والهواء كأنّه مغسول. في الصباح حين تضرب الشمس قمّة الثلج، يبدو المنظر أبدئيًا، وكأنّها لحظة لن تتغيّر أبدًا. وفي أواخر النهار قرب الماء، يعلو صوت في أعماق السماء. ذات مساء، توقّفنا عند شلال في رحلة صعودنا إلى الجبل. كان جميلًا، وكأنّ كلّ شيء بلغ الكمال. لم أر قطّ شيئًا في جماله. يمكنك أن تسمع أنفاس الله. لكنّ رجلاً جاء وحاول أن يطردنا من هناك. كان كلّ مكان ينبض بالضوضاء ليل نهار. وذات ظهيرة بالقرب من بحيرة رأيت نسرين من نسور الأسماك يجثمان في هدوء على غصن شجرة من أشجار الصمغ. ثمّ فجأة نcq كلّ منهما بقوة كبيرة، نعقتين أو ثلاث حادّة، بعنق مثني ومنقار مفتوح إلى السماء، فيما يرفرف الجناحان ويشدّ الجسد. وما هي إلّا لحظة حتى جاء الردّ خافتًا فوق البحيرة. وبعد دقائق، فصلت ريشة بيضاء نفسها عن الطائر الذكر، وهبطت ببطء على الأرض في ذلك الصمت العظيم».

كان خليل يستمع دون أن يتكلّم، لكنّه يتنحّج بين الفينة والأخرى تشجيعًا ليوسف. ولكن حين يتوقّف يوسف عن الكلام، ظلّنا منه أنّ

خليلاً نام، يأتيه سؤال في الظلام. وفي بعض الأحيان يفقد يوسف نفسه القدرة على الكلام حين يتذكر الأرض الحمراء الضخمة التي تعجّ بالناس والحيوانات، وصورة المنحدرات التي ترتفع من البحيرة كجدران من لهب.

قال يوسف: «مثل أبواب الفردوس».

استنكر خليل ذلك بصوت خفيض وقال: «ومن يعيش في تلك الفردوس؟ الهمج واللصوص الذين يسرقون التجّار الأبرياء ويبيعون إخوتهم من أجل الحليّ؟ هؤلاء لا إله لهم ولا دين، ولا حتّى يعرفون ما هي الرحمة. شأنهم شأن الحيوانات البريّة التي تعيش معهم». كان يوسف يعرف أنّ هذه هي الطريقة التي يحقّز بها الرجال بعضهم بعضاً لسرد ما حدث مع تشاتو مرة أخرى، لكنّه لزم الصمت. فكلّما تذكر مكوّتهم في بلدة تشاتو، تذكر باتي والشعور بأنفاسها الدافئة على رقبته. وشعر بالخزي لأنّه فكّر في ضحك خليل عليه إن عرف بالأمر.

قال خليل: «وكيف كان هذا الشيطان محمد عبد الله؟ لقّنه السلطان الهمجي درساً، هاه؟ أنت حضرت الواقعة! ولكن قبل ذلك... ما الذي فعله قبل ذلك؟ بعد كلّ رحلة يعود الرجال بقصص رهيبية. أنت تعرف سمعته بين الرجال، أليس كذلك؟»

قال يوسف بعد لحظة: «كان يعاملني بطيبة». وفي ذلك الصمت رأى المنيابارا يرقص على أضواء النار، يتفجّر زهواً وغطرسة، ويحاول إخفاء الألم في كتفه.

فقال خليل بعصبيّة: «لا ينبغي لك أن تتماذى في الثقة. إنّ رجل خطير. على أيّ حال، هل رأيت أيّ مستذئبين؟ لا بدّ من أنك رأيتهم».

لم ترهم؟ لعلهم كانوا ينتظرون في أعماق الغابة. أعلم أنهم معروفون في تلك البلاد. هل رأيت أيّ حيوانات غريبة؟»

فقال يوسف: «لم أرَ أيّ مستذئبين. لعلهم كانوا يختبئون من الحيوانات البريّة الغريبة التي كانت تجول في أراضيهم».

فضحك خليل. «إذن لم تعد تخاف من المستذئبين. لقد كبرت! ينبغي لنا أن نأتيك بزوجة. ما عجوزة ما تزال في انتظارك، وقالت إنها حين تراك ستشتمّ زبّك، ولا يهتمّها ما إذا كنت قد كبرت أم لا. كم تلهّفت عليك طوال هذه السنوات».

فغرت ما عجوزة فاها بدهشة ميلودرامية حين رآته في الدكان. ظلّت متسمّرة في مكانها، تخونها الكلمات والرغبة. ثم ابتسمت ببطء وسرور. لاحظ مشيتها الثقيلة ووجهها المرهق. قالت: «أه، عاد زوجي إليّ. شكرًا لله! وكم صار وسيماً! عليّ أن أحرسه من الفتيات الأخريات». لكنّ مداعباتها الآن خلت من الحماس، وشاب صوتها شيء من الاعتذار والاحترام، وكأنّها تخشى أن يستاء منها.

فقال خليل: «أنتِ التي تبدين جميلة يا ما عجوزة، وليس هذا الشاب الضعيف الذي لا يعرف الحبّ الحقيقيّ وهو أمامه. ليتك اخترتني أنا يا زواردي، لكنّك أعطيتك الكثير من التبغ لتستنشقيه. كيف حالك؟ والأسرة؟»

قالت بصوت يرتفع في إشفاق على نفسها: «نحن على حالنا. نشكر الله على ما اختاره لنا. لا نقول سوى الحمد لله، سواء أ جعلنا فقراء أم أغنياء، ضعفاء أم أقوياء. من غيره يعرف ما هو خير لنا؟ على أيّ حال، اسكت الآن. دعني أتحدّث مع زوجي. أرجو ألا تكون قد لعبت

مع امرأة أخرى وأنت بعيد. متى تأتي لتعيش معي؟ لديّ وليمة في انتظارك».

فقال خليل: «لا تثيريه يا ما عجوزة. لقد أصبح مستذنبًا. سيأتي إلى بيتك ويأكلك».

أطلقتُ ماما عجوزة زغرودة قصيرة، فأخذ خليل يهزّ وركيه في ابتهاج ماجن. لاحظ يوسف أنّ خليلًا أكرم ما عجوزة في كميات الأغراض التي طلبتها، ورآه يضيف مخروطًا صغيرًا من السكر أيضًا. ثمّ قال: «هل سأراك الليلة في الموعد المعتاد؟ أحتاج إلى تدليك». فصاحت ما عجوزة: «أولًا تسرق منّي، ثم تريد أن تتحرّش بي. ابتعد عني، أيّها المتوتو واشيتاني».

قال خليل وهو يربّت على كتف يوسف تشجيعًا: «أرأيت؟ ما تزال حبيبها الأوحّد».

2

أُغلق الباب في جدار الحديقة نظرًا لوجود كثير من الغرباء، ولم يكن يدخل منه سوى خليل والعمّ عزيز والبستاني الشيخ مزي حمداني. رأى يوسف تيجان الأشجار الطويلة فوق الجدار، وأنصت إلى أصوات العصافير عند الفجر، فاشتاق إلى التجوال مرةً أخرى في بستان الرغبة. كان يرى في الصباح مزي حمداني يشقّ طريقه بسرعة عبر الفسحة، يدور حول الخيام وأكوام القمامة ولا يبدو أنّه ينظر إليها. لم يكن يلتفت يمينًا أو يسارًا، ويمضي مباشرة إلى باب

الجدار، وفي العصر يرحل في صمت. واستغرق الأمر يوسف بضعة أيام حتى يستجمع شجاعته ويقف في مكان لا يمكن أن يفوت على مزي حمداني. لكنّ الشيخ لم يُبد أيّ إشارة على أنّه رآه. تألّم يوسف في بادئ الأمر، لكنّه ما لبث أن ابتسم وانسحب.

بدأ الرجال يغادرون الفسحة واحدًا تلو الآخر. كان العمّ عزيز ما يزال يتفاوض مع الدائنين والتجار، لكنّ الرجال ضجروا. جاؤوا إليه بصكوك اتفاقهم معه، وحضر محمد عبد الله وسيمبا مويني شاهدين فيما يدوّن التاجر بنفسه هذه الحسابات في دفتره. أخذوا ما أعطاهم إياه، واستلموا صكًا بالمتبقي لهم. وأوضح العمّ عزيز لهم إنهم لن يحصلوا على حصّة من الأرباح كما وعدهم، فبالكاد كان يستطيع أن يدبّر المال لتسديد ديونه. لم يصدّقه الرجال، لكنّهم أبقوا هذه الملاحظة بينهم فقط. كان التجار الكبار معروفين بالاحتيال على الرجال الذين يسافرون معهم. تذرّوا وتوسّلوا إليه، وطلب نيوندو أن تؤخذ خدمات الترجمة التي قدّمها في عين الاعتبار، فأوما له التاجر وغيره له صكّه. وبعد أن وقّع الرجال في الدفتر على استلام رواتبهم، أشرّ محمد عبد الله وسيمبا مويني على صكوكهم، إذ لم يكن أيّ منهما يعرف الكتابة. وأجلّ بعض الرجال استلام صكوكهم، محاولين ترحيل النزاع على الأجر إلى وقت لاحق، لكنّهم في نهاية الأمر اضطروا إلى قبول ما عرضه التاجر عليهم. وبعث التاجر أجور الرجال الذين ماتوا إلى أسرهم. كما أرسل قطعًا أبيض يكفي لإعداد الأكفان، رغم أنّ الجثث كانت قد دُفنت على بعد مئات الكيلومترات، وأضاف شيئًا من جيبه. كان يقول للرجل الذي سيأخذ المال للأسر: «هذا لإقامة العزاء».

واستبقى العمّ عزيز مبلغ الرجلين اللذين فرّا من بلدة تشاتو ولم يعودا. فلو أنّه أرسل المال إلى أسرهما، ثمّ عاد الرجلان، فقد يستمر النزاع على هذا المال إلى ما لا نهاية. وإنّ لم يرسله، فسوف يأتي أقرباؤهم عاجلاً أم آجلاً ويطالبون بالمال، ويتّهمونه بالغدر. لكنّ هذا كان أهون الشرّين، كما قال التاجر.

ومع رحيل الرجال، غادر الباعة الجائلون وأكشاك الطعام، ولم يبق سوى الغربان تفتّش في القمامة التي تركوها. وقال الرجال لمحمد عبد الله وهم يرحلون: «لا تنسنا في رحلتك القادمة». كانوا يقولون ذلك لطفًا منهم؛ إذ كان من الواضح أنّ المنيابارا مريض متعب، هذه الضعف. «ألم نعمل جيّدًا؟ كلّ ما في الأمر أنّ الله لم يوفّقنا في الرحلة. لذلك لا تنسنا أيّها المنيابارا».

قال المنيابارا وقد قست ملامح وجهه المتغطرس حقّدًا وسخرية: «أيّ رحلة قادمة تلك التي تريدون الذهاب فيها؟ لن تكون هناك رحلة قادمة. لقد أخذ الأوروبي كلّ شيء».

وكان آخر من استلم أجره محمد عبد الله وسيمبا مويني. بالكاد نظرا إلى المبلغ المقدّم لهما، لكنّهما تقبّلاه بامتنان. بعد ذلك جلسا بأدب مع التاجر في الشرفة، لا يدریان ما إذا كان يحتاج إلى خدماتهما، لكنّهما تردّدا في الذهاب سريعًا وإهانة التاجر. فلمّا نهضوا، مدّ التاجر يده وأوقف سيمبا مويني. في تلك اللحظة توقّف محمد عبد الله لا يحرك ساكنًا، وأخفض بصره، ثمّ سار في هدوء.

لكز خليل يوسف وهما يشاهدان استبعاد المنيابارا. توهّج وجه خليل انتصارًا، وكأنّه هو الذي دبّر هذا الانقلاب. وهمس يقول: «بهذا

يكون قد تخلص من الكلب القذر. عليه الآن أن يعود إلى البادية
ويعذب حيواناته. هيّا ابتعد من هنا أيها الكلب!».

فوجئ يوسف بهذه الكراهية الشديدة، ونظر إليه في انتظار تفسير.
لكنّ خليلًا انصرف عنه وسار إلى ترتيب صناديق الأرز والفاصوليا
على المنضدة. طرّفت عيناه بسرعة، والتوى فمه عند الأطراف كأنما
كان يجاهد للسيطرة على نفسه. تورّمت عروق وجهه، فبدا ضعيفًا. ثمّ
رفع عينيه في توتر إلى يوسف وحاول أن يتسم. غير أنّ وجه يوسف
بدا مستفهمًا أيضًا، فتظاهر خليل بأنّه لم يلحظ ذلك. بعد ذلك شرع
يغني، ويصفّق وهو ينظر في الطريق بحثًا عن زبائن قادمين.

في عصر ذلك اليوم نفسه جلس محمد عبد الله على الشرفة،
يحمل صرّته، مستعدًّا للرحيل. كان ينتظر نهوض التاجر من قيلولته.
أمّا يوسف فكان وحده خلف منضدة الدكان، ولكنّ لم يكن هناك
أيّ زبائن. كان خليل قد أوى إلى الجزء الخلفي من الدكان يستلقي
هناك. فاستدعى محمد عبد الله يوسف وطلب منه الجلوس إلى جانبه
على المقعد الطويل. سأله بفضاظة: «ماذا عنك أنت؟». جلس يوسف
في صمت، ينتظر ما يريد محمد عبد الله قوله. وبعد لحظة، نخر
محمد عبد الله هازنًا وهزّ رأسه. «كوايس! وتنشج في الظلام كالطفل
المريض! ما الذي رأيته في لياليك أسوأ من الشرور التي مررنا بها؟
لقد أبليت بلاء حسنًا بالنسبة إلى غلام وسيم مثلك. تحمّلت كلّ شيء
وكنت متيقظًا، وفعلت كلّ ما يُطلب منك. ولو أنّك سافرت في رحلة
أخرى بعدها لأصبحت صلبًا كالمعدن. ولكن لا مزيد من الرحلات
بعد أن انتشرت الكلاب الأوروبية في كلّ مكان. فحين ينتهون من
أمرنا سيكونون قد ناكوا كلّ فتحة في أجسادنا. شرّ نيكة. سنصبح أسوأ

من الخراء الذي سيطعموننا إياه. كلُّ الشرور ستُنسب إلينا، إلى بني جلدتنا، إلى أن يستطيع حتى الهمج أن يحتقرونا. سترى».

ظلَّ يوسف ينظر إلى محمد عبد الله، لكنّه أحسنّ بخليل يقترب. وتابع محمد عبد الله حديثه: «السيد... تاجر بطل بصرف النظر عن هذه الرحلة. ليتك رأيته في المرة الماضية حين كنّا في «مانيمما». لا يهاب المخاطرة ولا يخشى شيئاً. أيّ شيء! وليس ذلك من حماقة، فهو يرى العالم كما هو. وأنت تعرف أنّ هذا العالم قاس شرير. تعلّم منه! عَجَل، عَجَل... ولا تسمح لهم بأن يجعلوك صاحب دكان مثل ذاك الأحمق السمين الذي كنت تعيش معه. حامد صاحب المؤخرة الكبيرة ودكانه الفارغ! يسمّي نفسه مؤونغوانا، أي صاحب الشرف، وهو ليس سوى كعكة صغيرة سميّنة، يتبختر هنا وهناك مثل حماماته البيض السميّنة. لن يبقى له كثير من الشرف حين ينتهي السيد من أمره. والمرأة التي هناك. نعم تلك. لا تسمح لهم أن يجعلوك مثله»، وأشار بعصاه إلى منضدة الدكان حيث كان خليل واقفاً يراقب. ونظر إلى خليل شزراً كأنّه يتحدّاه أن يعترض على كلامه. فلمّا انتهى من كلامه، نهض يوسف. وقال له محمد عبد الله بابتسامة: «عَجَل».

3

ذهب سيمبا مويني مع العمّ عزيز إلى البلدة، كي يتحدّث إلى دائنيه ويجري الترتيبات اللازمة للسداد. ورغم أنّه لم يُشرك في الحوار، إلّا أنّه فهم طرفاً من حديثهم كما قال. فلمّا عاد أخبر خليلًا ويوسف بما عرفه عن أعمال التاجر. كانت خسائره شديدة، واضطّرّ الدائنون إلى

تحمّل جزء منها، ومع ذلك تبقى حمل ثقيل على كاهل التاجر. «لكنّه أذكى من أن يُحشر في زاوية، والهنديّ خسر مالاً كثيراً هو الآخر، فلا خيار لديه سوى أن يتعاون. سنُضطرّ إلى السفر بالقطار في رحلة أخرى. إلى مكان يملك فيه بوانا بعض السلع القيّمة». ثمّ قال وهو يتسم ليوسف بغطرسة: «ولكنّ لا أحد سيذهب غير بوانا وأنا».

فسأله يوسف: «أين؟ وأيّ سلع قيّمة؟ في دكان حامد؟»

قال خليل: «إنّه لا يعرف شيئاً». كان سيمبا مويني قد فقد شيئاً من مهابته منذ أن رحل الرجال، فوجد صعوبة أحياناً في التعامل مع أسلوب خليل. «يتججّج بالكلام ليس إلّا. اعتاد التباهي أمام الحمّالين الجهلة وأولئك الهمج، ولذلك يعتقد أنه يستطيع خداعنا. أوتظنّ أنّ السيّد يأتّمه على شيء ذي قيمة؟»

فقال سيمبا مويني بابتسامة، متجاهلاً ما قاله خليل: «أعتقد أنّك تعرف المكان يا يوسف. هل تعرف البضائع القيّمة التي يملكها في دكان حامد؟ إن كنت لا تعرف، فالأفضل ألاّ تسأل».

قال يوسف وقد قطب جبينه بتعبير جهلٍ حائر لحثّ سيمبا مويني على الكلام: «أيّ بضائع؟ لا يوجد هناك سوى أكياس من الذرة المحقّفة».

فقال خليل: «ربّما يوجد قبو سرّي يخزّن فيه الجنّ ذهباً ومجوهرات للسيّد. والآن هذا المتججّج سيمبا مويني سيذهب ليجلب الكنز وينقذ تجارة السيّد. فهو وحده الذي يملك الخاتم السحري، وهو وحده الذي يعرف كلمة السر التي ستفتح الأبواب النحاسيّة السميكة». فضحك سيمبا مويني. «هل تذكر القصّة التي رواها لنا نيوندو في

الرحلة؟ عن الجنّي الذي سرق أميرة شابة من منزلها في ليلة خطبتها... هل تذكرها؟ ثم اختطفها وخبأها في قبو في الغابة ملاء بالذهب والمجوهرات وكلّ ما لذّ وطاب من الطعام والمطايب. كان الجنّي يزورها كلّ عشرة أيّام ويقضي الليلة معها، ثمّ يمضي إلى شؤونه. وعاشت الأميرة هناك سنوات. وذات يوم اصطدمت قدم حطّاب بمقبض الباب السحري الذي يفضي إلى القبو. فتح الباب، ونزل السلم إلى القبو، فوجد الأميرة. أحبّها على الفور، وهي كذلك أحبّته وأخبرته بقصّة سجنها طوال تلك السنوات. ورأى الحطّاب ما تعيش فيه من ترف، وأرثه المزهريّة الجميلة التي كانت تفركها كي يحضر الجنّي على وجه السرعة. وبعد أن قضى الحطّاب مع الأميرة أربعة أيّام وأربع ليال حاول إقناعها بالذهاب معه، لكنّها ضحكت وأخبرته بأنّه لا مهرب من الجنّي الذي سرقها من منزلها وهي في العاشرة من عمرها، وسوف يعرف كيف يجدها أينما ذهبت. طغت على الحطّاب مشاعر الحبّ والحسد، وفي فورة غضبه التقط المزهريّة وضرب بها عرض الحائط.

«وما هي إلّا لحظة حتّى حضر الجنّي بينهما بسيفه العاري. ارتبك الحطّاب وصعد السلم، لكنّه نسي نعليه وفأسه. أدرك الجنّي أنّ أميرته كانت تقضي وقتها مع رجل آخر، فقطع رأسها بضربة واحدة».

فسأله خليل بحماس: «والحطّاب؟ ماذا حدث للحطّاب؟ أكمل».

فقال سيمبا مويني باستمتاع: «وجدّه الجنّي بسهولة بسبب نعليه وفأسه. أراها للناس في بلدة مجاورة وقال إنّه يبحث عن صديقه، فقادوه إلى منزل الحطّاب. هل تعرف ما حلّ به؟ أخذه إلى قمّة جبل

قاحل ضخّم ومسّخه قردًا. ألم يكن باستطاعته أن يزور الأميرة في الأيام التسعة التي يغيب فيها الجنّي؟ أخبراني».

فقال خليل دون تردّد: «لأنّ هذا مصيره».

فقال يوسف وهو يرغب في إعادة الحديث إلى البضائع: «للعَمّ عزيز قبو سرّي في دكان حامد». ورأى نظرة دهشة على وجه خليل. أوّلاً إنّه ليس عمك. فكّر في إجبار نفسه على قول السيّد، لكنّه لم يستطع. «على أيّ حال، ما البضائع القيّمة في دكان حامد؟»

همس سيمبا مويني: «فيوسا. قرون الكركدن. لا تقل شيئاً لأيّ أحد، وإلاّ وقعنا في ورطة. لقد حظرت حكومة مداتشي تجارة الفيوسا كي تستأثر بالأرباح وحدها. ولهذا السبب سعره باهظ، وبوانا ينتظر على مهل كي يبيع هذه البضاعة إلى الهندي. لن نُحضر الـ فيوسا معنا. وهذه مهمّتي، أن أنقلها فوق الجبال إلى الحدود، جو كوا جو، وأسلمها لشخص هندي قرب ممباسا. لدى بوانا أعمال أخرى يدبّرها، ولذلك سيترك هذا الأمر لي».

قال سيمبا مويني عبارته الأخيرة بنبرة أهميّة، بوصفه خازن الأسرار. ثمّ نظر إلى كلّ منهما واحداً بعد الآخر ليرى تأثير كلامه، ورأى يوسف نظرة ارتياح على وجه خليل، فأدرك أنّه يهزأ بسيمبا مويني.

قال خليل: «لا شكّ في أنّ السيّد اختار رجلاً شجاعاً لهذه المهمّة، أسدًا حقيقيّاً».

فقال سيمبا مويني مبتسمًا، متغاضيًا عن سخريّة خليل: «إنّه طريق خطر. لا سيّما على الحدود. وهو أخطر الآن مع الحديث الذي يدور حول نشوب حرب بين الإنجليز والألمان».

سأله يوسف: «لماذا الفئوسا ثمينة جدًا. لأيّ غرض تُستخدم؟»

فكر سيمبا مويني لحظةً، ثم تخلّى عن إمكانية أن يخلق إجابة. قال: «لا أعرف. في الطبّ ربّما. ومن يدري بما يحدث في العالم؟ كلّ ما أعرفه هو أنّ الهنديّ يشتريها، ولا يهتمّني أين يضعها بعد ذلك. لا يمكن أن يأكلها. لذلك أعتقد أنّه لا بدّ من أن يكون دواء».

فلما تركهما سيمبا مويني للعودة إلى المخزن الذي سكن فيه منذ رحيل محمد عبد الله، قال خليل: «سوف يستدعي السيّد من يدين له، لتجميع الديون. دائماً ما يكون لديه شيء ما. هذه طريقته. حتّى حين يبدو أنّ أموره قد ساءت، يسافر هنا ويسافر هناك، وما تلبث الأوضاع أن تعود كما كانت. وربّما يستدعي أباك أيضاً. سيسويان ما بينهما ولن تبقى رهاني لديه. سيدفع أبوك دينه ويدفع السيّد ديونه، ثمّ تستردّ حرّيتك. فماذا ستفعل بعد ذلك؟ تعود إلى العيش في الجبال مثل ذلك الناسك الزنجباري؟ لكنّي لا أظنّ أنّ شيئاً من هذا سيحدث. الأرجح أن يكون أبوك فقيراً تماماً، مثلما كان أبي مراهيمو، فلم يستطع أن يسدّد دينه لا في الدنيا ولا الآخرة. لن تعود إلى الجبال... لكنّي لا أظنّ أنّ السيّد سيطلب منه شيئاً. إنّه يحبّك. انظر إلى ذلك المزعج سيمبا مويني وتصنّعه! يرسله السيّد في مهمّة خطيرة لأنّه لا يهتمّ إن وقع له شيء... وإلاّ لكان أرسلك أنت».

فقال يوسف بدافع الصداقة والولاء: «أو أنت».

ابتسم خليل، وهزّ رأسه. كانت لفظة محزنة، تندب على جهل يوسف. قال: «السيدة. كيف ستحدّث معها وأنت لا تعرف العربية؟ وإن كنت تعتقد أنّي سأترك لك دكاني كي تفسده... إنّ لم يكن بمقدور

السيد أن يسدّد ديونه كلّها، فقد يكون هذا الدكان مصدر رزقه الوحيد. سيجد لك مهمّة أخرى. إنه يحبّك».

ارتعد يوسف. فقال خليل وهو يهّم بضرب يوسف على قفاه: «لكنّه ليس عمّك»، غير أنّ يوسف استطاع تفادي الضربة بسهولة.

دعاهما العمّ عزيز لتناول الطعام معه عشية عودته إلى الداخل. وفي الساعة المحدّدة، بعد صلاة المغرب، قاد خليل سيمبا مويني ويوسف إلى داخل الحديقة. ثمّة كآبة وصمت ساكنان، مع لمسة خفيفة من خريز. عطر يملأ الهواء، وموسيقى تنهب الحواس. في الطرف البعيد من الحديقة ثمّة أضواء معلّقة على أعمدة، تضيء الشرفة وتنحت إيواناً ذهبياً من تلك الظلمة العميقة. انعكاس الضوء يحوّل مجاري الماء إلى مسارات من المعدن. نُشرت سجاجيد على الشرفة، تنبعث منها أدخنة الصندل والعنبر.

وما إن جلسوا هناك حتّى أقبل التاجر من الفناء، يرتدي قطناً ربيعاً، ينساب ويتموّج وهو يسير نحوهم. كان يرتدي قبعة مطرّزة بالحرير الذهبي. نهض الجميع لتحيتته، ولوّح لهم مبتسماً، ثمّ جلس بينهم. ولاحظ يوسف أنّ هذا هو السيد الذي يعرفه، ذاك الذي أخذه بطريقة عادية جدّاً من والدَيْه وبيته، والذي يجول في الأراضي الصعبة إلى البحيرات برباطة جأش وابتسامة. حتّى في أسوأ أوقاتهم في بلدة تشاتو، أوحى التاجر بطمأنينة لا تُقهر، طوّقتهم جميعاً. وفي رحلة العودة، ومنذ وصولهم كان القلق قد بدّد هذه الهالة وجعله مكشوفاً أمام مطالب الرجال ومشاحنتهم. لكنّه عاد إلى سابق عهده، رزيناً مطمئناً، بابتسامة سمحة تحوم حوله.

بدأ يستعيد ذكريات الرحلة، على نحو هادئ يوحي بأنه لم يكن موجوداً فيها، وكأنه يستذكر رواية شخص آخر. كان يدعو سيمبا مويني بإيماءاته ونظراته لتأكيد ما يقوله، ثمّ يومئ في رضا. خمن يوسف أنّ سيمبا مويني فهم ما كان يحدث، لكنّه أدرك من ضحكته ومن الطريقة التي يرتفع بها صوته ويحتدّ أنّه كان يتملّق التاجر. بعد برهة لم يكن سيمبا مويني في حاجة إلّا إلى تشجيع بسيط للانتقال من قصّة إلى أخرى، وكأنّهم عادوا مرّة أخرى يجلسون حول النار في الريف.

فُتح باب الفناء شيئاً يسيراً، فنهض خليل بسلاسة وكأنّه كان رهن الإشارة. اختفى في الداخل لحظة، ثم جاء بطبق أرز. ذهب وعاد عدّة مرّات، فأحضر أطباقاً من السمك واللحم والخضروات والخبز، وسلّة فاكهة كبيرة. توقّفوا عن الحديث مع أوّل صحن، وانتظروا في صمت بينما كان خليل يأتي بالصحون الأخرى. حاول يوسف ألا ينظر إلى الطعام، لكنّه لم يستطع أن يحوّل عينيه عن الأرز الذي يلتصق بالسمن وتنتشر فيه المكسّرات والزبيب. وفي ذلك الصمت سمع يوسف الصوت الذي كان ينهره ليبعد عن الحديقة، فلمّا عرف الصوت شعر بدفء الذاكرة. وأخيراً جاء خليل بدورق نحاسي وطاسة، ومنشفة علّقها على ذراعه. صبّ الماء لهم واحداً بعد الآخر كي يغسلوا أياديهم. وغسل سيمبا مويني فمه أيضاً، ثمّ بصق الماء في الحديقة. قال العمّ عزيز وهو يدعوهم للأكل: بسم الله.

تحرّر سيمبا مويني أكثر في حديثه أثناء الأكل، وصار يخاطب التاجر بحرّية. كان يميل إلى إلقاء اللوم في فشل الرحلة على المنيا بارا. وقال بصوت يزداد حدّة: «لو لم يضرب ذلك الرجل في الغابة، لما انقلب علينا تشاتو على ذلك النحو. كان يعامل الجميع وكأنّهم خدم

وعبيد. ربّما كانت هذه الطريقة مفيدة في السابق، أمّا الآن فلا يتقبّلها أحد. فما الذي دار في بال تشاتو؟ بالتأكيد ظنّ أننا خاطفون وتجار بشر. ما كان ينبغي لك أن تمنحه حريّة كبيرة يا بوانا. كان رجلاً صلباً، لا يعرف ذرّة من رحمة. لكنّي أعتقد أنّ تشاتو كان أصلب منه».

أوما العمّ عزيز بهدوء ولم يعترض. فتابع سيمبا مويني حديثه، وصوته المرتفع يطغى على حفيف الأشجار الهادئ، ويملاً الحديقة بالصخب. تساءل يوسف ما إذا كان لا يستطيع أن يسمع نفسه وهو يتحدث، لكنّه ظلّ يتكلّم كرجل مخمور. استقرّت عينا التاجر عليه، فأدرك يوسف أنه كان يقيّم سيمبا مويني في موضوع الفَيوسا المخبوء في مخزن حامد. وفي النهاية تحدّث العمّ عزيز إلى خليل بالعربيّة، وبدأ في إعادة الأطباق المنكوبة إلى المنزل، وهو يعرض كلّ صحن على ضيوفه قبل أن يحمله.

همس خليل لاحقاً وهو يضحك في سرور: «هل رأيت نظرة السيّد حين بصق ذلك المتبجّع في الحديقة؟ أو حين تحدّث عن سبب فشل الرحلة؟». كانا مستلقّين على حصيرتيهما في الشرفة أمام الدكان، رأساً إلى رأس. «يعلم جيّداً أنّه لا يستطيع الوثوق به، لكنّه لا يملك خياراً آخر. يعاني عمّك من مشكلات كثيرة! وذلك السيمبا مويني يعوي بعيداً مثل ضبع أعمى».

قال يوسف: «إنّه ليس أحقّ. في بعض الأحيان في الرحلة كان هو الوحيد على أهبة اليقظة والاستعداد».

فضحك خليل: «أهبة اليقظة والاستعداد. ما هذا الكلام؟ من أين تعلّمت الحديث هكذا؟ من مرافقة كبار القوم في رحلاتك بالتأكيد.

من الممكن أن تصبح حكيمًا في شيخوختك. تقول إنه ليس أحق. فلماذا إذن يتصرّف بحماقة؟ إلا إذا كان يدبر أمرًا. إلا إن كان يتعمّد أن يُفسد، ويريد السيّد أن يعرف ذلك. لو كان السيّد ومحمد عبد الله على أيامهما للقا سيمبا مويني بالسبانخ وأكلاه على الغداء. لكنّ محمد عبد الله انتهى، وأنت عند السيّد الآن، وأنت تُشعره بأنه يسيء التصرف. أعتقد أنك تُشعره بشعور مختلف أيضًا. تنظرُ إليه طوال الوقت». ثمّ قال مسرورًا بخلاصته: «على أيّ حال، لن ينام عمّك هانثا بضع ليالٍ إلى أن يتأكّد من سلامة قرون الكركدن التتنة».

قطب يوسف جبينه في غضب وقال: «ماذا تعني... أنظر إليه؟ ولم لا ينبغي لي أن أنظر إليه؟ أنا أنظر إليك أيضًا».

فقال خليل دون أيّ تحدّ في صوته: «أنت تنظر إلى الجميع، إلى كلّ شيء. الكلّ يعرف ذلك. وأيّ شخص يلاحظ أنّ عينيك البائستين مفتوحتان وأنت لا تريد أن يفلت شيء منهما. إنّ كنتُ أنا أستطيع رؤية ذلك، فما بالك بشخص ذكيّ مثل السيّد؟ يا أخي، السيّد يشعر بأنّ عينيك تخترقانه. أولا ترى ذلك؟ ماذا تعني أنظر إليه! لا تنس أنّي رأيتك تتبرّز على نفسك خشية الكلاب التي تخاف الذباب، وأنت رأيت شيئًا فيها. لعلّك رأيت مستذئبين. ولكن هل سمعت ما قاله ذلك الحيوان عن الشيطان محمد عبد الله؟ لقد ولّت أيام الشرّ تلك! يا له من متبجّح! وهل رأيت مقدار الأكل الذي أكله؟»

في الصباح قبل خليل يد العمّ عزيز باحترام وهو يودّعه، ثم وقف إلى جانبه يومئ بسرعة وهو يستمع إلى تعليمات التاجر الأخيرة. أشار العمّ عزيز إلى يوسف وطلب منه أن يرافقه قليلًا في مشواره إلى المحطة. ثمّ أشار إلى سيمبا مويني بالانطلاق، وسار خلفه ببضع خطوات.

قال العمّ عزيز ليوسف: «ستحدّث حين أعود. لقد كبرت، وعلينا الآن أن نجد لك عملاً ذا قيمة. لديك بيت هنا، وأظنّك تعرف ذلك. اعتبره بيتك، وسوف نتحدّث حين أعود».

قال يوسف وهو يجاهد كي يكبت الرعدة التي أحسّ بها تتضخّم في جسده: «شكراً».

ثمّ قال العمّ عزيز بابتسامة عريضة وعينين تفتّشان في وجه يوسف: «أظنّ أنّ حامداً كان على حقّ. ربّما حان الوقت للعثور على زوجة لك». ثمّ تحوّلت ابتسامته إلى ضحكة قصيرة. «سأتذكّر ذلك في رحلاتي، وأعود بقصص عن أيّ جميلة أسمع عنها. لا تبدّ مرتعباً هكذا».

ثمّ أعطى يده ليوسف كي يقبلها.

4

ذهبا إلى البلدة في أوّل فرصة سانحة. كان خليل يريد الذهاب إلى جميع الأماكن التي زارها من قبل، وقال إنّّه لم يذهب إلى البلدة طوال السنوات التي غاب فيها يوسف، رغم أنّه كان في كلّ جمعة يفكر في تلك الرحلات التي جمعتهما. قال: «وأين أذهب بمفردي؟ ومن أعرف؟». وفي المسجد، لم يستطع يوسف أن يقاوم التباهي بحفظه للقرآن، فروى لخليل لاحقاً كيف اكتشف أمره وكيف شعر بالخزي. قال خليل: «حفظ القرآن سيعينك دائماً، حتّى إن تُهت في أعرق كهف أو أحلك غابة، حتّى إن لم تكن تفهم معناه». ثمّ حدّثه

يوسف عن كالاسنغا ونيته في ترجمة القرآن، حتى يعرف السواحليون الإله القاسي الذي يعبدونه. فتساءل خليل في غضب، كيف يمكن ليوسف أن يجلس ويسمع هذا التجديف من كافر. فقال يوسف: «وما عساي أفعل؟ أرحمه حتى الموت؟». ذهب إلى الشارع الذي رأيا فيه الزفاف الهندي واستمعا إلى الرجل الذي يغني أمام الضيوف. وفي بعض الأوقات لعبا في الشوارع مثل طفلين، يتراشقان بالثمار المتعفنة ويركضان عبر حشود من الغرباء. فلما وصلا إلى الشاطئ حلّ الظلام، لكنّ البحر كان مضيئاً بلمعان فضي، يعلو في زبدٍ وهو يتسابق إلى أقدامهما. وفي طريق العودة توقفا عند مقهى، وطلبا لحم ضأن وفاصوليا وأرغفة كثيرة، مع إبريق شاي محلى. وقال كلّ منهما للآخر إنه لم يذق في حياته فاصوليا تضاهي لذة الطبق الذي أكلاه في ذلك المقهى.

قضى يوسف وقته مع مزي حمداني. لم يكن البستاني الشيخ يبدو أكبر سناً مما كان، لكنّ يوسف لاحظ أنّه يتأنّى أكثر في مشيته ويفضّل الوحدة أكثر من ذي قبل. وذات يوم شديد الحرارة انتظر يوسف إلى أن رآه يجاهد لرفع دلاء الماء، فتقدّم لمساعدته. لم يعترض مزي حمداني لفرض دهشته، وربما لتعبه بعد كلّ الدلاء التي أحضرها من صنبور الماء إلى الحديقة في ذلك اليوم الحار. بل إنه كان مسروراً بتلك الراحة. لم يبدُ عليه أنّه أدرك ما حدث، حتى حين ابتسم له يوسف ابتسامة انتصار خجول، لنجاح خدعته. كان يملأ دلوَي البستاني بالماء في كلّ صباح ويضعهما له عند الجدار. وأدرك يوسف كيف نمت الحديقة حين رآها في ضوء النهار. كانت أشجار البرتقال الصغيرة الممتدة على طول الجدار قد كبرت وقويت، فيما بدت أشجار الرمان والنخيل قوية

ممتلئة وكأنّها ستبقى إلى الأبد. ثمّة أزهار بيض تغطّي شجرة الكرز الحامض، والتي كبرت إلى شكل مدور معتدل. لكنّه رأى بين البرسيم والحشائش قرّاصاً طويلاً وكتلاً من السبانخ البرّي، فيما كانت أزهار الخزامى تجاهد كي تظهر بين الزنابق وأزهار السوسن. أمّا أطراف البركة التي كانت قنوات الماء تصبّ فيها فقد امتلأت بالطحالب، بل إنّ القنوات نفسها زاد فيها الطمي فأصبحت بطيئة. وأمّا المرايا التي كانت فوق الأشجار فقد أزيلت.

كان يذهب إلى الحديقة في الصباح الباكر، وفي كثير من الأحيان يصل قبل مزي حمداني نفسه. يجرّ الحشيش ويخفّف الزنابق، ثمّ يبدأ في تنظيف القنوات. أمّا البستاني فكان يرحّب بوجوده في صمت، ولا يقترب منه (ساخطاً) إلّا حين يرتكب خطأ. ولاحظ يوسف أنّ مزي حمداني كان يقضي وقتاً أطول في صلواته. أمّا أناشيده فقد أصبحت حزينة كثية، في نغمات متألّمة طويلة، بدلاً من النغمات التي ترتفع وتهبط في نشوة مع قصائده القديمة.

كان خليل يستدعيه حين يحتاج إلى مساعدته، أو حين تأتي ما عجوزة إلى الدكان، لكنّه كان يتسامح مع رغبته في العمل في الحديقة. لا يثبّطه عن ذلك إلّا حين يلقي بالدعابات عنه لزبائن الدكان. غير أنّه كان يتملّل حين يتأخّر يوسف في الحديقة إلى وقت متأخر من العصر، فيذهب لاستدعائه. «أنا أعرق لكي أطعمك، أيّها السواحلي الجاهل، وأنت تريد أن تلعب في الحديقة طوال اليوم. تعال وامسح الفناء وساعدني في حمل الأكياس. كلّ من يزورنا يسأل عنك. الشيوخ يريدون أن يسمّعوا كلّ شيء عن الرحلة. والزبائن يريدون أن يسلموا عليك. يقولون: أين أخوك الصغير؟ أخي الصغير! أقول لهم إنّ هذا

الأحمق الكبير يلعب في الحديقة. يظن أنه ابن أخ تاجر ثري، ويحب أن يستلقي تحت أشجار البرتقال، ويحلم بالفردوس». لكن يوسف خمن أن السيّدة هي التي لا تريد أن يكون في الحديقة مع اقتراب المساء. لعلّها تحبّ الذهاب إلى الحديقة في ذلك الوقت، ووجوده يحول دون ذلك.

وفي وقت متأخر من عصر أحد الأيام، حين توقّف يوسف عن توسيع قناة من القنوات الأربع، رأى حجرًا صغيرًا داكنًا يبرز من الضفّة الضحلة التي قطعها. انحنى كي يلتقطه، لكنّه لم يكن حجرًا بل كيسًا جلدّيًا صغيرًا. كان مهترئًا خشنًا من أثر التربة، وقد اسودّ جلده من الماء، لكنّه كان سليمًا بما يكفي لمعرفة أنّه هرزي، حرز يُلفّ على الذراع، ومن المؤكّد أنّه يحتوي على أدعية تحفظ حاملها. الخياطة مهترئة في أحد الأطراف، ورأى يوسف من خلال الشقّ علبة معدنية صغيرة داخل الكيس. هزّ الحرز فسمع جلجلة، فأدرك أنّ ما في الداخل ما يزال سليمًا لم يتآكل. استخدم غصينًا وأخذ يفرك التراب من على الشقّ، ثمّ رأى بقايا تصميم على العلبة المعدنية. تذكر ما سمعه من قصص عن القوى السحرية للتمائم، وكيف يمكن استدعاء الجن من مخابثهم في الهواء بحكّ التميمة. حاول إدخال طرف سمين من خنصره في الشقّ، ليعرف ما إذا كان بالإمكان أن يصل إلى المعدن. وتناهى إليه صوت مرتفع فنظر إلى الأعلى، ورأى أنّ باب الفناء كان مفتوحًا، وهو الباب الذي دخل منه خليل وخرج ليلة العشاء. حتّى في ذلك الضوء الشحيح رأى طبقًا واقفًا هناك. ارتفع الصوت مرّة أخرى، فعرف أنّه صوت السيّدة. وظهر شقّ من الضوء في المدخل حين ابتعد الطيف وأغلق الباب.

في ذلك المساء حين كان خليل يدخل لإحضار الطعام، كان يتأخر في الخروج. فتخيل يوسف أن السيدة كانت تشتكيه بغضب، بسبب مكوثه في الحديقة. إن لم تكن تريده في وقت معين في الحديقة، فكل ما عليها هو أن تقول ذلك. لا أريده في الحديقة في الساعة الفلانية. لا شيء أكثر من ذلك، وسوف يحرص على ألا يكون في الحديقة في ذلك الوقت. أما هذا الهمس والتخفي فكان يُشعره بأنه طفل. كان يزعجه أن تظن بأنه يستحق قلة الاحترام لأنه لو شرفها بتحديقته الآثمة. تساءل في نفسه عن المحظورات الغاضبة التي سيأتي بها خليل من الداخل. هل سيُطرد من الحديقة؟ وماذا غير ذلك يمكن أن تأمر به عليه؟ ظل إصبعه يعالج الشق في الحرز، فظهر جزء أكبر من العلبة الفضية. أحسّ بملمسه البارد وتساءل ما إذا كان بإمكانه أن يستدعي الجن الآن لينقذه، أو يمنع عنه كارثة جديدة في انتظاره. ولسبب ما تخيل أن يكون تشاتو هو الجنّي الهادر، وابتهج بهذا الخاطر. عادت إلى ذهنه ذكرى الفناء الذي قضى فيه أيام أسرهِ، وتذكر مرة أخرى الإحساس بأنفاس الفتاة على رقبتهِ.

بدا خليل غاضبًا حين عاد. وضع أمامهما أطباق الأرز البارد والسبانخ، وراح يأكل دون أن يتحدث. أكلا على أضواء الدكان الذي كان ما يزال مفتوحًا. وبعد ذلك غسل خليل صحنه، ودخل إلى الدكان ليحسب مدخول اليوم ويبدأ في تعبئة الرفوف بالبضائع. فلما انتهى يوسف من طعامه، غسل صحنه ودخل الدكان ليساعد خليل. كان خليل ينتظره، لأنه أخذ الصحن وعاد إلى المنزل. بدا مهمومًا تائهاً حتى أن يوسف لم ينطق بالكلمات الغاضبة التي كانت في طرف لسانه. ما الذي حدث هناك؟

كان مستلقياً على حصيره في الظلام حين عاد خليل إلى الشرفة واستلقى في مكانه المعتاد. وبعد صمت طويل قال في هدوء: «السيدة جُنّت».

سأله يوسف: «لأنني أطلتُ البقاء في الحديقة؟»، فكشف استنكاره عما يشعر به من انزعاج.

فضحك خليل: «الحديقة! لا تفكر في شيء سوى هذه الحديقة!» وقال وهو يضحك: «أنت مجنون أيضاً. عليك أن تجد شيئاً آخر تستهلك فيه طاقتك. لماذا لا تجري وراء النساء أو تصبح شيخاً تقيّاً؟ لماذا تريد أن تصبح مثل مزي حمداني؟ لم لا تجري وراء النساء؟ إنها هواية ممتعة. وبوسامتك هذه يمكنك أن تحصل على العالم كله. وإن فشلت، فهناك ما عجوزة تنتظرك في أي وقت...»

فقال يوسف بحدة: «لا تعد إلى هذا الموضوع. ما عجوزة امرأة عجوز تستحق مزيداً من الاحترام...»

قال خليل: «عجوز! من قال؟ لقد استعملتها وهي ليست عجوزاً. صدّقني، جرّبتها». وفي ذلك الصمت سمع يوسف خليلاً يتنفس بهدوء، ثم يشخر فجأة في احتقار. «الأمر مثير للاشمئزاز في رأيك، صحيح؟ لكنني لا أشعر بخجل أو اشمئزاز. ذهبتُ إليها لأن لي حاجات، واستخدمتُ جسدها مقابل المال. هي أيضاً لها حاجات. قد يكون الأمر قاسياً، ولكن لم يكن لأيّ منا خيار آخر. فما الذي تريد مني أن أفعله؟ أنتظر أميرة تعشقني حين تأتي إلى الدكان لشراء صابونة؟ أم أنتظر جنية جميلة تختطفني في ليلة خطبتي وتسجنني في قبو سرّي لأكون عبدها الذي تستخدمه للجنس؟»

لم يقل يوسف شيئاً، ثمّ تنهّد خليل بعد صمت قصير. «لا يهمّ. حافظ على عقّتك من أجل أميرتك. اسمع، السيّدة تريد رؤيتك».

فتنهّد يوسف في ضجر: «أوه، لا! الأمر تعدّى حدوده. لماذا؟ أخبرها أنّي لن أدخل الحديقة ما دامت لا تريدني هناك».

قال خليل في استياء: «عدتَ للحديقة مرّة أخرى!». وتثاءب مرّتين ثمّ أكمل: «لا علاقة للأمر بذلك. ليس كما تظنّ».

قال يوسف بعد لحظة: «لكنّي لن أفهمها».

ضحك خليل وقال: «لا، لن تفهمها. إنّها لا تريد الحديث معك. تريد أن تراك. قلتُ لك إنّها تنظر إليك في الحديقة. أخبرتك بذلك من قبل. لكنّها الآن تريد رؤيتك من قرب. تريدك أمامها. غداً».

«لماذا؟». هكذا سأله يوسف وقد أربكه كلام خليل وأسلوبه. ثمّة قلق وهزيمة في كلامه، واستسلام لتهديد ومصاعب لا مفرّ منها. صاح يوسف: أخبرني. ما الموضوع؟ لستُ طفلاً. ما الذي تدبرّانه لي؟

تثاءب خليل وجرّ نفسه وكأنّه يريد التحدّث بصوت خفيض إلى يوسف. ثمّ تثاءب مرّة أخرى، وأخرى، وبدأ يبتعد. «قصّة طويلة. فعلاً. وأنا متعب جدّاً. غداً. الجمعة. سأخبرك غداً حين نذهب إلى البلدة».

5

قال خليل: «اسمع». كانا قد ذهبا إلى صلاة الجمعة، وتجوّلا في السوق دون كلام، وجلسا عند السور البحري بالقرب من الميناء.

«صبرتَ كثيراً. لا أدري ما إذا كنت تعرف شيئاً عن الموضوع، وكم قيل لك أو كم فهمت، لذلك سأخبرك بالموضوع من البداية. لم تعد طفلاً، ولا ينبغي إخفاء هذه الأشياء عنك. هي مجرد طبيعة فينا، هذه الأسرار. منذ ما يقرب من اثني عشر عاماً تزوّج السيّد من السيّدة. كان تاجراً صغيراً يسافر بين هذه البلدة وزنجبار، يجلب القماش والأدوات والتبغ والأسماك، ويأخذ الماشية وجذوع الشجر. كانت السيّدة قد ترمّلت قبل وقت قريب وورثت مالا كثيراً. كان زوجها يملك الكثير من المراكب الشراعية التي تبخر على طول الساحل لشحن البضائع بشتى أنواعها. الحبوب والأرزّ من پمبا، والعبيد من الجنوب، والتوابل والسمسم من زنجبار. ورغم أنّها لم تعد شابة، إلّا أنّ ثروتها اجتذبت رجالاً من أصحاب الحسب والنسب والطموح. ظلّت ترفضهم عاماً كاملاً تقريباً، فبدأت الشائعات تنتشر عنها. كما تعرف، حين ترفض المرأة الزواج، فلا بدّ من أن يكون بها عيب. قال البعض إنّها مريضة، أو اختلّ عقلها بسبب وفاة زوجها. وقال آخرون إنّها عاقرة، وإنّها تفضّل النساء على الرجال. وقالت النسوة اللاتي خطبنها إنّها تحيط نفسها بهالة أكبر ممّا تستحقّه امرأة دميمة مثلها.

«ثمّ سمعتُ من كلام التجّار عن السيّد الذي كان يصغرها بعدّة سنوات. كان الجميع يثنون على السيّد في تلك الأيام، ولذلك اختارته وفضّلته على جميع الخاطبين النافذين. نُقل إليه كلام لتشجيعه، وتبادلا بعض الهدايا، ثمّ تزوّجا في غضون أسابيع قليلة. لا أعرف الاتفاق الذي جرى بينهما، لكنّ السيّد تولّى مسؤولية أعمالها وحقق نجاحاً كبيراً. تخلّى عن تجارة المراكب الشراعية، وباع المراكب كلّها. وبعد ذلك أصبح السيّد الذي نعرفه الآن، ذاك الذي يسافر إلى الداخل للتجارة.

«كان أبي يملك دكانًا صغيرًا في قرية على ساحل «مريما» جنوب «باغامويو». حدثتكَ عن هذا من قبل. وكان لي أمّ وشقيقان وشقيقة أكبر مني. كانت حياتنا فقيرة، وكان إخوتي يذهبون أحيانًا للعمل على القوارب. لا أذكر أنّ السيّد زارنا من قبل، ولكنّ ربّما كنت صغيرًا جدًا آنذاك. لكنّي أعرف أنّي رأيته ذات يوم. كان أبي يتحدّث إليه على نحو لم أره من أبي قطّ. لم يخبرني أحد بشيء، فقد كنت مجرد صبيّ صغير، لكنّي سمعتُ الطريقة التي تحدّثوا بها عن السيّد بعد رحيله. قالت مامه إنّ ابن شيطان، تسكنه ابنة إبليس، أو عفريت أو شيء أسوأ من ذلك. قالت إنّ كلب ابن كلب... وإنّه يتعامل بالسحر وأشياء أخرى. كلام مجنون من هذا القبيل. فلمّا جاء السيّد مرّة أخرى بعد أشهر، أمضى يومين معنا. أحضر لي هديّة، قُبعة من الدانتيل مطرّزة بشجيرات الياسمين وأهلة. ما أزال أحتفظ بها. لكنّي كنتُ قد أدركتُ ممّا سمعته من كلام أبوي أنّ أبي يدين للسيّد بمال اقترضه كي يشتري أخيه الأكبر حصّة من شركة صغيرة فشلت. كان أخي قد اشترى مع أصدقائه قارب صيد في «ميكوكوني»، وتكسّر القارب على الشعب المرجانيّة. على أيّ حال، لم يكن بإمكان والدي تسديد الدين من مدخول الدكان. بعد يومين غادر السيّد، ورأيت والدي يقبل يده عدّة مرات وهما يتوادعان، ثمّ جاء السيّد إليّ وناولني عملة معدنيّة. أفترض أنّ شعور أبي بالامتنان كان مردّه موافقة السيّد على منحه مزيدًا من الوقت للتسديد، لكنّي لا أظنّ أنّي أدركتُ ذلك حينها. لم يقل لي أحد شيئًا. وكان من المستحيل ألاّ ألاحظ ما آل إليه أبي من بؤس وسوء مزاج. كان يصرخ فينا جميعًا، ويقضي الساعات على سجّادة الصلاة. وذات مرّة ضرب أخي بقطعة خشب، ولم يستطع أحد أن يوقفه لأنّه

كان يصرخ ويبكي حين تقترب أمي أو أخي الأصغر منه. كان يضرب ابنه، وفي الوقت نفسه يبكي لفرط شعوره بالخزي.

«وذات يوم جاء الشيطان محمد عبد الله وأخذني أنا وأختي، وأحضرنا إلى هنا. كنّا رهاني إلى أن يسدّد أبي دينه. لكنّ أبي المسكين ما لبث أن فارق الحياة، وعادت ماه وشقيقاي إلى جزيرة العرب وتركونا هنا. ذهبوا هكذا وتركونا هنا».

جلس خليل ينظر في صمت إلى البحر، وأحسّ يوسف بالنسيم المالح يلسع عينيه. ثمّ أوما خليل عدّة مرّات وأكمل حديثه.

«قضيت مع السيّد تسع سنين. حين جئنا أوّل مرّة كان هناك شخص آخر في الدكان. كان في مثل سنّي الآن، وهو الذي علّمني. كان اسمه محمد. بعد أن يغلق الدكان في المساء، يدخّن بضعة رؤوس من الحشيش، ثمّ يذهب للبحث عن الجنس. أمّا أختي فكانت تخدم السيّد. كانت آنذاك في السابعة من عمرها، تخاف السيّد». ضحك خليل فجأة وهو يضرب فخذه. «ما شاء الله، كانت تبكي كثيراً، فيُضطّرون إلى استدعائي لتهدئتها. ولذلك كنت أنام في المنزل. في الفناء. وحين يسقط المطر، أنام في مخزن الطعام. فبعد أن نغلق الدكان ويمضي محمد إلى شؤونه القذرة، أعود إلى المنزل لأنام. كانت السيّد مجنونة، حتّى في تلك الأيام. لديها مرض، علامة كبيرة على وجهها، من خدّها الأيسر إلى رقبتها. كانت تغطّي وجهها بلفاف حين أقرب منها، لكنّها أخبرتني. أختي... قالت إنّ السيّد كانت كثيراً ما تنظر إلى نفسها في المرآة وتبكي. وحين كنت أستلقي في الفناء تأتي وتراقبني، فأتظاهر بالنوم. تسير حولي تتمتم بأدعية، وتسال الله أن يشفيها من آلامها. حين يكون السيّد في المنزل تهدأ، وتوجّه بؤسها

عليّ أنا وأميّة. تلقى علينا باللوم في كلّ شيء، وتشتّمنا بألفاظ قذرة. وحين يسافر السيّد، تعود إلى جنونها وتجوّالها في الظلام».

أمسك خليل بذقن يوسف وأدار وجهه من جانب إلى الآخر وهو يبتسم، وقال: «ثمّ جئت أنت».

سأله يوسف: «وماذا حلّ بمحمد؟»

«رحل ذات يوم حين رفع السيّد يده ليضربه، لوجود أخطاء في الحسابات. نهض من مكانه، وغادر. لا أعرف ما إذا كان من أقرباء السيّد... لم يكن يتحدّث إليّ عن شيء سوى أعمال الدكّان. غاب السيّد بضعة أيّام، ثمّ عاد بك. صبيّ سواحليّ فقير من الأحراش، له أبٌ أحرق مثل أبي. اعتقد أنّه أراد أن يتعلّم شخص أعمال الدكّان تحسّباً لليوم الذي أقرّر فيه أنّي لا أريد الاستمرار في هذا العمل. وهكذا جئت أنت وأصبحت أخي الصغير»، ثمّ مدّ يده يمسك بذقن يوسف مرّة أخرى، لكنّ يوسف أبعد يده بضربة.

ثمّ قال يوسف: «أكمل».

«تختبئ السيّدة عن الناس. لا تخرج أبداً. والنسوة القلائل اللاتي يزرنها قريبات لها أو من الناس الذين لا تستطيع أن تعتذر عن لقائهن. هي التي أمرتني بوضع المرايا على الأشجار كي تنظر إلى الحديقة دون أن تخرج. وهكذا رأتك. في كلّ يوم تذهب فيه إلى الحديقة تراقبك بالمرايا. لقد زدتها جنوناً على جنونها. قالت إنّ الله أرسلك إليها. لعلاجها».

فكرّ يوسف برهة في كلامه، وهو ممزّق بين الدهشة والضحكة. ثمّ قال: «كيف؟»

«في أول الأمر قالت إنك إذا رقيتها بالدعاء فسوف تبرأ. ثم قالت لا بدّ من أن تبصق عليها. قالت إن لبصقة أولياء الله كرامات. ذات يوم رأتك تحمل وردة في راحتك، فاقتنعت بأن لمستك ستشفيها. قالت إنك إذا أمسكت بوجهها مثلما تمسك الوردة فسوف يزول مرضها. حاولت أن أمنعك من الذهاب إلى هناك، لكنك مهووس بالحديقة. فلما عاد السيّد لم تستطع أن تكتم جنونها، وأخبرته. لمسة واحدة من ذلك الغلام الوسيم وسوف يشفى الجرح في قلبي. عندها أخذك السيّد معه وتركك في الجبال. ألم يساورك الشك؟ أخبرني أمينة أن السيّدة كانت تقف تحت السور حين تكون أنت في الحديقة، وتناديك كي تحنّ عليها. ألم تسمعها تقول شيئاً؟»

أوماً يوسف. «كنتُ أسمع صوتاً. ظننتُها تشتكي مني وتطلب مني أن أغادر. في بعض الأحيان كانت تغني».

قال خليل: «لا تغني أبداً»، وقطب جبينه. ثم أضاف: «لا أظنّ أنني سمعتها تغني قطّ».

«لعلّي تخيلت ذلك. في أوقات من الليل يُخيّل إليّ أنني أسمع موسيقى قادمة من الحديقة، وهذا مُحال. أحد المسافرين الذين زاروا حامداً روى حكاية عن حديقة في هرات كانت آية في الجمال، حتّى أنّ من يزورها يسمع موسيقى تسلب العقل. هكذا وصفها الشاعر. وربما من هنا جاءتني الفكرة».

فقال خليل ساخطاً: «لا بدّ من أنّ هواء الجبل قد ذهب بعقلك أنت أيضاً. وكأنّ أحلامك المزعجة ليست كافية. أصبحتَ تسمع الموسيقى أيضاً. محظوظ أنا؛ عندي مجنونان. كان السيّد قلقاً من تركك هنا

معها، لكنّه لم يكن يريدك أن تذهب في الرحلة. لعلّه سيزور أباك ولم يرد أن يتسبّب في أي لغط وخرج. أو لعلّه لم يرد لك أن ترى شراسته. ليس بعد على أيّ حال. والآن السيّد تريدك، أيّها الشيطان المحظوظ. لم تكن تستطيع رؤيتك لأنّ السيّد أمر بإنزال المرايا بعد ذهابك، لكنّها ما تزال تسمعك».

فقال يوسف: «كانت تراقب من الباب بالأمس».

قطب خليل جبينه وقال: «لا أظنّ ذلك. لم تقل. لكنّها رأتك ليلة الوليمة. ولديها الآن هوس جديد، خطر جدّا. خطر عليك. اسمعني، تقول إنك أصبحت رجلاً، وإنّ علاج جرحها يكون بأن تمسك بقلبها بين يديك. هل فهمت؟ لا أستطيع أن أنطق بما يدور في رأسها، ولكن أرجو أن تفهم مغزاها الذي تقصد إليه. هل فهمت؟ أم إنك ما زلت صغيراً بريء التفكير؟»

أوما يوسف برأسه، ولم يكن خليل راضياً تماماً بهذا الردّ، لكنّه أوما برأسه أيضاً بعد لحظة. «لقد طلبت أن تراك. أمرت وتوسّلت وصرخت طالبة إحضارك إليها. قالت إنني إن لم آخذك إليها فسوف تخرج وتأتي بك بنفسها. علينا أن نفعل ما في وسعنا لتهدئتها إلى أن يعود السيّد. هو يعرف كيف يتصرّف معها. وعدتها بأن آخذك لزيارتها اليوم. ابق على مسافة منها قدر الإمكان، ولا تلمسها مهما قالت أو فعلت. ابق قريباً منّي، فإن اقتربت منك دعني بينكما. لا أعرف ما سيفعله السيّد حين يعود، لكنني أعرف أنّ حياتك ستكون صعبة إذا ما علم أنّك لمست السيّد أو لوّثت شرفها. لن يكون لديه خيار».

فهمّ يوسف يسأله: «ولمَ لا أرفض رؤيتها...؟»

قال خليل بصوت مرتفع مع نبرة من توسّل: «لأنّي لا أعرف ما يمكن أن تفعله بعد ذلك. قد تفعل شيئاً أسوأ. أختي معها هناك. وسأكون معك طوال الوقت».

«لماذا لم تخبرني بهذا كلّ من قبل؟»

فقال خليل: «كان الأفضل لك ألاّ تعرف. ثمّ إنّ كان من الواضح أنّك لم تقترف أي خطأ».

بعد لحظة قال يوسف: «أختك هي التي كانت تراقب عند الباب بالأمس. رأيتُ شيئاً غريباً. لا بدّ من أن يكون الصوت القادم من مكان مختلف. حين أخبرتني عن أختك خطرت لي فتاة صغيرة، لكنّي أدرك الآن أنّها هي التي رأيتها بالتأكيد...».

فقال خليل بإيجاز: «إنّها امرأة متزوّجة».

فأحسّ يوسف بقلبه يقفز غير مصدّق. «العمّ عزيز؟».

ضحك خليل وقال: «ألن تكفّ عن مسألة العمّ هذه؟ نعم، عمّك عزيز تزوّجها العام الماضي. لذلك فهو الآن أخي وعمّك، ونحن أسرة واحدة سعيدة في الفردوس. إنّها سداد الدين الذي كان على أبي. فحين تزوّجها أسقط الدين».

قال يوسف: «إذن فأنت حرّ تستطيع الرحيل».

فقال خليل بهدوء: «أرحل إلى أين؟ ليس لي مكان أذهب إليه. وأختي ما تزال هنا».

كان يتوقع أن يرى امرأة شعثناء تصيح فيه وتطلب أشياء غير مفهومة. استقبلتهما السيّدة في غرفة كبيرة تطلّ نوافذها على باحة مغلقة داخل المنزل. كانت الأرضيّة مفروشة بسجّاد سميك مزخرف، ووسائد مطرزة كبيرة مرتّبة على طول الجدران. ثمة لوحات معلقة مُبروزة من آيات قرآنية وصورة للكعبة. جلست مستقيمة، من خلفها الجدار الأطول، في مواجهة الباب. وإلى جانبها صينيّة مطليّة عليها مبخرة ومرشّة ماء ورد. الهواء مضمّخ بلبان عطري. حيّاها خليل وجلس على مقربة منها، وجلس يوسف إلى جانبه.

لفاع أسود يغطّي جزءاً من وجهها، لكنّ يوسف لاحظ أنّ بشرتها تميل إلى اللون النحاسيّ الباهت، وعينيّها تلتمعان في ثبات. تحدّث خليل أولاً، وبعد لحظة ردّت. كان صوتها أكمل الآن في الغرفة، مع تعديل بسيط منحه سُلطة وطمأنينة. وفيما هي تتحدّث عدّلت لفاعها قليلاً، فرأى يوسف تجاعيد وجهها محفورة بدقّة، ما أضفى عليها مظهرًا من اليقظة والإصرار لم يكن يتوقعه. فلمّا همّ خليل بالكلام مرّة أخرى، قاطعته بلطف ونظرت إلى يوسف، الذي أشاح ببصره قبل أن تلتقي أعينهما.

فقال خليل وهو يميل إلى يوسف: «تسألُك عن حالك، وترحب بعودتك إلى البيت».

وتحدّثت السيّدة مرّة أخرى، فقال خليل: «ترجو أن يكون والداك بخير، وأن يحفظهما الله، وأن تبلغ سلامها حين تراهما. وأن يوفق الله مساعيك ويحقّق أمانيك، وكلام مثل هذا. تقول عسى الله أن يرزقك أطفالاً كثيرين».

أوما يوسف، لكنّه هذه المرّة لم يكن سريعاً بما يكفي للتهرب من نظرتها. كانت عيناها يقطّعتين حادثّتين، تتفحصانه جيّداً، ورأهما تبرقان قليلاً حين همّت بالكلام مرّة أخرى. أخفض يوسف عينيه فور أن تحدّثت، وظلّت تتحدّث برهة، بصوت يعلو وينخفض في محاولة منها للفت الانتباه.

فقال خليل وهو يستعدّ بتهنيدة خفيفة: «دخلنا في الموضوع يا أخي الصغير. تقول إنّها رأتك تعمل في الحديقة، ولاحظت أنّ لديك... كرامة، هبة من الله. فكلّ ما تلمسه يداك يورق ويزهر. تقول إنّ الله حباك بنظرة ملاك، وأرسلك إلى هذا المكان لفعل الخير. تقول إنّ هذا ليس كفراً. وسيكون الأمر أسوأ إنّ فشلت في تأدية ما أرسلك الله لفعله هنا. وتظلّ تزيد في هذا الكلام، رغم أنّها لا تقول شيئاً أكثر ممّا أخبرتك به».

لم يرفع يوسف عينيه، وسمع السيّدة تهمّ بالكلام من جديد. وبدأت تتّضح نبرة توسّل في صوتها، وسمعتها تذكر اسم الله عدّة مرّات، ثمّ عاد إليها شيئاً فشيئاً ذلك الهدوء الذي بدأت به حديثها.

«تقول لك إنّها ابتليت بمرض عضال. تقول هذا عدّة مرّات، لكنّها تقول إنّها لا تريد أن تشتكي. وتقول هذا عدّة مرّات أيضاً. ابتليت بمرض، ولا تريد أن تشتكي، وما إلى ذلك. لم ينفعها دعاء أو دواء، لأنّ الله لم يبارك من حاولوا علاجها. وتسألُك الآن ما إذا كنت ستعالجها. وسوف تكافئك في هذه الدنيا وتدعو لك بالثواب الأعظم في الآخرة. لا تتفوّه بحرف واحد!».

وفجأة أزالَت السيّدة لفاعها، فانسدل شعرها، حادّ التقاطيع، جميلاً. ثمة بقعة أرجوانية على الجانب الأيسر من وجهها، ما يجعله

يبدو غاضبًا غير متزن. نظرت في هدوء إلى يوسف، في انتظار أن ترى الرعب في عينيه. لكنّه لم يرتعب، بل غشاه الحزن لأنّ السيّدة تتوقّع منه الكثير. وبعد لحظة غطّت وجهها، وقالت بضغ كلمات.

«تقول إنّ هذا هو...» وتوقّف خليل قليلاً ليفكّر في الكلمة المناسبة، فأصدر صوتًا يوحي بنفاد صبره وتوتره.

فقال صوت من خلفهما: «بلاؤها». رأى يوسف من طرف عينه طيفًا خلفه في الغرفة. كان قد أحسّ بوجوده، لكنّه لم ينظر. فلمّا التفت رأى شابة ترتدي فستانًا طويلًا بني اللون مطرّزًا بخيط فضي. كانت هي الأخرى تضع لفاعًا، لكنّها أعادته إلى الورا فكشف عن وجهها وجزء من شعرها. قال في نفسه: أمينة، ولم يملك إلّا أن يتسم. وقبل أن يشيح ببصره عنها اندهش من أنّها لا تشبه خليلًا على الإطلاق، فملامحها أكثر استدارة ودُكنة. بدت بشرتها تحت ضوء المصابيح مضيئة. ظلّت ابتسامته على وجهه حين التفت إلى السيّدة، لكنّه لم يدرك ذلك. وأعادت السيّدة لفاعها، فلم يظهر منها إلّا شكل وجهها وعيناها اليقظتان. تحدّث خليل معها ثمّ ترجم ليوسف. «قلتُ لها إنّك سمعتَ كلامها، ورأيت ما تريدك أن تراه. وإنّك تشعر بالأسف لهذا الألم الذي تعانيه. وإنّك لا تعرف شيئًا عن الأمراض، ولا يوجد أيّ احتمال في أن تستطيع فعل شيء يساعدها. هل تريد أن تضيف شيئًا؟ اختر كلامًا قاسيًا».

فهزّ يوسف رأسه.

فلمّا توقّف خليل تحدّث السيّدة بانفعال، وتبادلا عبارات غاضبة لم يكلف خليل نفسه عناء ترجمتها. «تقول إنّك ستشفيتها بكرامتك، لا بعلمك. وتقول إنّها تريد منك أن ترقّيها بدعاء و...و... تلمسها. لا

تفعل! مهما قالت لا تفعل! اتلُ دعاء إن كنت تعرف ولكن لا تقترب. تقول إنها تريدك أن تلمس قلبها وتشفي جرحه. اتلُ دعاء، وبعد ذلك سندهب. تظاهر بذلك إن لم تكن تعرف».

أسقط يوسف رأسه لحظة، ثم بدأ يتمتم بما يذكره من الأدعية التي علّمه إياها إمام المسجد. شعر بأنه أحمق. فلما قال آمين، ردّدها خليل بصوت عال، وكذلك فعلت السيّدة وأميّة. وهنا نهض خليل وسحب يوسف معه، لكنّ السيّدة طلبت من أميّة أن ترشّ أياديهم بماء الورد، وتبخّرهم. نسي يوسف أن يغض بصره حين اقتربت منه أميّة، فرأى الفضول الذي يتربّص بعينيها.

7

حدّره خليل قائلاً: «لا تخبر أحداً». وفي اليوم التالي استدعتهما السيّدة مرّة أخرى، لكنّ خليلاً ذهب وحده. قال: لا، لا تفعل ذلك. استمرّ الجدل بينهما فترة، ساعة على الأقلّ، ثم خرج مهزوماً، متجهماً. «وعدتُها أن تذهب وتقرأ عليها دعاء غداً. سيقتلني السيّد».

فقال يوسف: «لا بأس. سأتلو دعاء قصيراً ونذهب. لا يجوز أن تترك امرأة مريضة مسكينة والعلاج عندك. سأبذل جهداً أكبر في دعاء الغد. على أيّ حال، كان هذا واحداً من أقوى أدعية الإمام...»

فقال خليل بغضب: «لا تتخابث. الأمر لا يحتمل المزاح. إن لم تأخذ حذرك فقد تضحك من مؤخّرتك قريباً».

قال يوسف في سعادة: «ما بالك؟ ما دامت تريد دعاء، فسوف ندعو لها. هل تحرمها من النعمة التي أرسلها الله إليها؟»

فقال خليل: «لا تروقني هذه الطريقة التي تتحامق بها. إنّه أمر خطير، أو قد يصبح خطيراً. لا سيّما بالنسبة إليك. يخيفني ما يدور في رأسها».

سأله يوسف بابتسامة، رغم أنّ شيئاً من قلق خليل انتقل إليه: «وما هو؟»

«ومن يدري ما يدور في عقلها المجنون، لكنني أفترض شيئاً سيّئاً. الطريقة التي تتصرّف بها لا توحى باهتمام أو خوف ممّا تفعله. وهذا المديح الهائل... ملاك الله. هذا أكبر من مجرد كلام مجانيين. أنت لست ملاكاً. وليست لديك كرامة. ويجدر بك أن تخاف ممّا يحدث».

فلمّا ذهباً إليها في اليوم التالي ابتسمت. كان ذلك في وقت العصر، والباحة الداخلية تنضح بحرارة لطيفة. كانت أشعة الشمس تتخلّل عبر ستائر رقيقة إلى داخل الغرفة، فيما تنبعث من المبخرة أدخنة العودي. قلّ توتر السيّدة عمّا كانت عليه في الزيارة الأولى، إذ تكئّ قليلاً على الوسائد، لكنّ عينيها ما تزالان متوهّجتين في تيقظ. جلست أمينة في مكانها نفسه، وابتسمت حين نظر يوسف إليها. وأخفض يوسف عينيّه إلى راحتيه المفتوحتين كي يبدأ بالدعاء، فشعر بصمت عميق يحلّ على الغرفة. سمع تغريداً مكتوماً، وخريراً خافتاً. أطلال يوسف الصمت قدر الإمكان وهو يكبت ابتسامته، ثمّ بدأ يتمتم وكأنّه يوشك على الانتهاء. ردّد الآخرون آمينه بصوت عال، فلمّا نظر إلى السيّدة التي بدأت تتحدّث رأى تألّق عينيها في سرور.

قال خليل عابساً: «تقول إنّها أحسّت بنتيجة نافعة بعد دعائك الأوّل». كانت قد تحدّثت فترة أطول من ذلك، فنظرت السيّدة إلى

أمانة تستفسر عن ترجمة خليل المقتضبة. وأكمل خليل على مضض: «تريدك أن تأتي مرة أخرى وترقيها. وأن تناول الطعام في البيت... نحن الاثنين. تقول إننا نأكل في الخارج كالكلاب أو المشردين. تريدك أن تأكل هنا كل يوم. أعتقد أنّ هذه ورطة. عليك أن تقول لها إنّ هذا مستحيل... وإلا... ذهبت كرامتك».

فقال يوسف: «أخبرها أنت».

«قلتُ لها، لكنها تريد أن تسمعها منك، ثم أترجم أنا. قل أي شيء، ولكن هز رأسك عدّة مرّات وكأنك ترفض. هزة أو هزتان تكفيان».

قال يوسف: «من فضلك أخبرها أنّي أشعر بالحماسة من هذا الحوار المستحيل حول تناول الطعام في منزلها»، وشعر بأنّ أمانة تبتسم خلفه. أو هكذا كان يبدو. رمقه خليل بغضب.

عادة في اليوم التالي، واليوم الذي يليه. لم يكونا يتحدّثان عن السيّد أثناء العمل في الدكان، ولكنّ ما إن انتهى من الدعاء لها حتّى لا يكفّ خليل عن الكلام عنها. كان يوسف يغيظه، ويحاول أن يهدئ من قلقه، لكنّ خليل لم يستطع الكفّ عن قلقه وثرثرته. واتّهم يوسف بأنّه يستطيب إطراء المرأة المجنونة ولا يدرك الخطر الذي يحيق به. قال: سيّتهمني السيّد بأنّي فعلت شرّاً. سيلومني. ألا تفهم ما قد يفعله السيّد؟

استغرق الأمر بضعة أيّام كي يعود يوسف إلى العمل في الحديقة مرة أخرى. طلب منه خليل ألا يعود إلى هناك، لكنّ يوسف تجاهله بعد أيّام وذهب، فخلف عبوساً عميقاً في وجه خليل. سأله: لماذا تعود إلى هناك؟ ألا يمكنك أن تزرع حديقة لك هنا؟ في بادئ الأمر

شعر يوسف بالحرّج، بعد أن عرف الأسرار وموقعه منها. فقد ساورته الوسوس من فكرة أنّ السيّدة تحدّق فيه وتسرح في خيالها بينما هو يعمل. لم يتفطن مزي حمداني إلى غيابه، أو لم يُبدِ أنّه لاحظ ذلك، غير أنّ أناشيد الوجد التي كان يغنيها ارتفعت أكثر من مكانه تحت ظلّ النخيل. وذات عصر، لم يكن هناك عمل كثير في الدكان، وتوترّ خليل لأنّ يوسف هزّ كتفيه وذهب إلى الحديقة. رحّب به مزي حمداني في صمت، وبقي فترة أطول من المعتاد. نظّف يوسف البركة وأزال الحشائش، وهو يدندن بأغنية تعلّمها في الرحلة. حاول أن يقاوم النظر إلى باب الفناء كي يعرف ما إذا كان هنالك أحد يراقبه، لكنّه لم يستطع، وظلّ ينتظر الزيارة التالية إلى داخل البيت بشيء من الترقّب.

قال خليل: «تقول إنّها سمعتك تعمل اليوم في الحديقة. ينبغي لك أن تعمل هناك أكثر. تقول اذهب متى شئت».

وتحدّث السيّدة مطوّلاً. «لديك كرامة، تقول هذا مراراً وتكراراً. هذا ما تقوله طوال الوقت. لديك كرامة، لديك كرامة». تردّد خليل قليلاً وكأنّه يبحث عن الكلمات المناسبة، ثمّ قال: «إنّ كانت الحديقة تسرك، فهذا... أه... هذا...»

قالت أمينة: «يسرّها». ورغم أنّها لم تكن تتحدّث إلّا قليلاً، حين تخون خليل الكلمات، إلّا أنّ يوسف شعر بها دائماً على كتفه الأيمن.

قال خليل وهو يهزّ رأسه غير مصدّق: «تقول إنّها تريدك أن تغني. لا أصدّق أنّي أجلس هنا وأفعل ما أفعله. لا تبتسم. هل تظنّ الأمر مزحة؟ تقول إنّ صوتك يريح قلبها جدّاً، وإنّ الله بالتأكيد هو الذي علّمك الغناء، وأرسلك ملاكاً مداوياً».

تبسم يوسف حين رأى انزعاج خليل. وحين ألقى نظرة إلى السيّدة وجدها تبسم أيضًا، وقد غمرت المتعة وجهها. وفجأة أشارت إليه، بدقّة وبساطة لم يتمكّن معهما يوسف من الرفض. نهض، واقترب منها. فلمّا اقترب، أنزلت لفاعها إلى مرفقيها، فلاحظ أنها ترتدي قميصًا أزرق لامعًا ذا ياقة مربّعة، وكانت أطرافه مطرزة بقبّعات فضية صغيرة. لمست العلامة على خدّها ثم أشارت إليها، داعية يوسف أن يضع يده عليها. كانت ابتسامتها العريضة تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى ابتسامة ألطف، فشعر يوسف باندفاع متهور يطغى عليه. كان يعلم أنّ يده ثقيلة. تحدّث خليل بهدوء، قال لا، لا. لكن السيّدة غطّت وجهها بلفاعها وتمتّت: الحمد لله. تراجع يوسف عنها، وسمع خليل ينتهد من خلفه.

قال له خليل لاحقًا: «لا تقترب منها مرّة أخرى. ألا تخاف؟ ألا تفهم ما يمكن أن يحدث؟ ابتعد عن تلك الحديقة. وإياك أن تغني».

لكنّه لم يبتعد. كان خليل يراقبه في شكّ متزايد، ويتجادل معه بشراسة كي يبتعد. غير أنّ يوسف كان يقضي في الحديقة وقتًا أكثر من السابق، يفتح عينيه ويصيح سمعه لأيّ صوت أو حركة من داخل المنزل. وبدأ مزي حمداني يترك له أعمالًا يقوم بها، فيقضي مزيدًا من الوقت في الظلّ ينشد قصائد الحبّ الإلهي. وفي بعض الأحيان كان يوسف يسمع أمينة تغني، فيتحرّك جسده في شغف لا يطلبه، ولا يقاومه. وفي أحيان أخرى يسقط ظلّ من الباب الموارب، فخطر له أنّه استوعب الآن فرحة الحبّ المستور. وحين يأتي المساء يتحرّق إلى استدعائه إلى الداخل، رغم تردّد خليل وانزعاجه. وذات يوم بلغ الغضب بخليل مبلغًا جعله يرفض الذهاب حين استدعي.

صاح في يوسف: «فلتذهب هي إلى الجحيم. لن ندخل. يكفي ما حدث. لو أنّ أحدًا علم بما يجري هناك لأصبحنا أضحوكة، أو أسوأ من ذلك. سيظنوننا مخبولين، مثل المعتوهة التي هناك. فكّر بالخزي الذي سيلحق بالسيد!».

قال يوسف: «سأذهب وحدي إذن».

فسأله خليل بصوت تحوّل إلى صيحة متألمة وهو ينهض على قدميه: «ولماذا؟ ألا تفهم ما يجري؟». بدا مستعدًّا لضرب يوسف كي يعيده إلى رشده. «ستفعل أشياء خسيسة ثمّ تلقى باللوم عليك. لا تعجبني طريقتك في النظر إلى هذا الأمر وكأنّه مزحة. لقد نجوت من المستذئبين ومن عالم الأحرّاش. فلماذا تريد أن تلحق بنفسك عارًا أبدياً؟»

«لا يوجد أيّ عار. فلا يمكنها أن تؤذيني».

دفن خليل رأسه في راحة يده اليسرى، وجلسا في صمت عدّة دقائق. ثمّ رفع خليل وجهه ونظر إلى يوسف في استغراب، وقد اكتسى وجهه ذعرًا وهو يدرك شيئًا على حين فجأة. كانت عيناه تحترقان بغضب وألم، فيما ترتجف أطراف فمه. جلس مرّة أخرى على الحصيرة دون أن يقول شيئًا، يحدّق أمامه في صمت. فلمّا نهض يوسف مغادرًا، التفت إليه.

قال بلطف، في اللحظة التي نزل فيها يوسف من الشرفة نحو الحديقة: «اجلس يا أخي الصغير. لا تذهب. اجلس هنا ودعنا نتحدّث في هذا الأمر. لا تجلب العار لنفسك. لا أعرف ما يدور في ذهنك، لكنّ نهايته ستكون مصيبة. هذه ليست حكاية من الحكايات. ما تزال هناك أشياء كثيرة هنا لا تفهمها».

فقال يوسف بهدوء، لكنّه ظلّ في مكانه: «أخبرني إذن».

هزّ خليل رأسه حانقًا. «ثمة أشياء لا يمكنك البوح بها هكذا. اجلس وسوف نبدأ بالحديث عنها. إنّ ذهبت ستجلب العار لنفسك، ولنا جميعًا».

فاستدار يوسف نحو الحديقة دون أن يقول شيئًا، متجاهلاً صيحة خليل المسعورة أمرًا إيّاه بالعودة.

8

قالت أمينة: «اسمها زليخة. وقد حرصتُ على أن تعرف اسمها». جلستُ أمينة إلى يمينه، أمامه ولكن بعيدًا عن السيّدة. تأمل يوسف وجهها متستركًا بحجّة الاستماع. كان وجهها أكثر استدارة ممّا ظنّ سابقًا، ورأى في عينيها أنسًا لا مباليًا، أقرب إلى البهجة. أو ما ورأى ابتسامتها، لكنّه أحسّ بعيني السيّدة تنظران إليه في إصرار، فمنع نفسه من ردّ ابتسامتها.

وتابعت أمينة: «لم يكن خليل يخبرك بكلّ ما تقوله. وهي تعرف ذلك. كان يقول ما يريد قوله. وربما في بعض الأحيان كانت تخونه الألفاظ... حين تستخدمُ لغة صعبة».

قال يوسف: «تحدّثين أفضل منه. سأخبره بذلك. ولكن كيف؟ ما الذي لم يخبرني به؟»

تجاهلت أمينة أسئلته، والتفتت إلى السيّدة، في انتظار حديثها. فتحدّثت هذه قليلًا، بنبرة ناعمة كاللمسة، ثم أشاحت ببصرها عن

أُمينة لتتظر إليه. «خليل لم يقل لك إنّ قلبها مجروح بالعار، لا بالألم وحده. تقول إنّ الألم يسعدها حتّى حين يلوي أعصابها. وقد أفادت من أدعيتك، كما أظنّ. تقول إنّها نفعتها».

أراد يوسف أن يعترض. لا تلقى بالألّهذه الأمور. نظر إلى السيّدة، فرأى عينيّها تتلألأ بالدمع. انحنى بسرعة كي يتلو الأدعية، وقد استوثق فجأة من أنّه وطأ أرضاً ليس أهلاً لها.

قالت أُمينة وهي تبتسم الآن دون أن تخفي ذلك: «تريدك أن تأتي في المساء وتأكّل طعامك هنا. أو حتّى تنام في الفناء إن أردت. لن يسمح لك خليل بالنوم داخل المنزل. سيثير ضجّة ويمنع ذلك. لكنّها تريدك أن تأتي وقتما تشاء، دون أن تنتظر دعوة منها».

فقال يوسف: «أبلغها شكري من فضلك».

قالت أُمينة في هدوء نيابة عن السيّدة: «لا حاجة إلى الشكر. وجودك يسعدها، ولذلك فهي التي ينبغي أن تشعر بالامتنان. تريدك أن تتحدّث، وتخبرها أكثر عن المكان الذي جئت منه، وأين كنت، كي تعرفك. وفي المقابل، أخبرها إن كان هناك شيء تستطيع فعله لك لكي تصبح حياتك مريحة أكثر هنا».

سألها يوسف: «وهل قالت كلّ ذلك بتلك الكلمات القليلة؟»

فقالت أُمينة: «قالت ذلك وأكثر، لكنّ خليلاً لم يخبرك. لقد أخافه كلامها».

«أولا يخيفك؟»

فابتسمت أُمينة، دون ردّ. وسألت السيّدة عن شيء، فالتفتت إليها أُمينة وابتسامتها ما تزال على وجهها. وما قالتها جعل السيّدة تبتسم

أيضاً، فارتعد يوسف دون إرادة منه وشعر بالضعف. نهض على قدميه، مستعداً للانصراف. فأشارت إليه السيّدة مثل المرّة الماضية، وأنزلت لفاعها فكشفت عن وجهها. مدّ يده ولمس العلامة المزرقّة، ساخنة تحت راحة يده. كان قد أدرك أنّه سيفعل ذلك إنّ هي طلبتُ منه مرّة أخرى. تأوّهتُ في لطف، وحمدتُ الله. سمع يوسف أمانة تتنهّد وتنهض. رافقته إلى الباب المفضي إلى الحديقة، ولأنّها لم تغلق الباب حين خرج، التفتُ ليتحدّث إليها. لم يكن يستطيع رؤية وجهها، لكنّ ضوء القمر كان يلقي بظلاله على قوامها بوضوح.

قال: «تبدوان مختلفين تماماً أنت وخلييل، وأنتما شقيقان». لم يكن منزعجاً من اختلافهما، لكنّه كان يريد أن يستبقّيها أطول وقت ممكن.

لم تردّ، ولم يعتقد أنّها ستردّ لأنّها ظلّت في مكانها لا تحرك ساكناً. بعد لحظة، استدار وهمّ في المضيّ عبر الحديقة المظلمة، ليرى ما إذا كانت ستحاول أن تستبقّيه أيضاً.

قالت: «أحياناً أشاهدك من هنا».

توقّف واستدار، ثمّ بدأ يتحرّك نحوها ببطء.

قالت عَرَضاً وهي تتعمّد ألاّ تُبدي أيّ حدّة أو تشديد في كلامها: «طريقتك في العمل تجعله يبدو ممتعاً. أحسّدتُ وأنا أشاهدك. حين رأيتك تحفر قنوات الماء خطر لي أنّ الأمر جذاب جداً. أحياناً أمشي في الحديقة ليلاً، حين لا يكون هنا. وذات مرّة وجدتُ حرزاً...»

فقال وهو يلمس الحرز من وراء قميصه حيث علّقه حول رقبته بخيط: «نعم. واكتشفتُ أنّي أستطيع استدعاء جنّي طيّب حين أحكّ الحرز، ينقذ لي ما أشاء».

فضحكت ضحكة خفيفة، وأخفضت صوتها، ثم تنهدت مرة أخرى. «وما الذي أعطاك إياه جنّيك الطيّب هذا؟»

قال: «لم أطلب منه شيئاً بعد. ما زلتُ أخطّط. فلا فائدة من استدعاء جنّي مشغول كي أطلب منه حلية مثلاً. وإن طلبتُ شيئاً سخيّاً قد يشعر بالإهانة ولا يأتي مرة أخرى».

قالت: «حين جئتُ إلى هنا كان عندي حرز، لكنني ألقيتُ به ذات يوم خلف الجدار».

«لعله هذا إذن».

مكتبة

t.me/soramnqraa

«ذاك الحرز ليس فيه جنّي طيّب».

«ولماذا ألقيتُ به؟»

«قيل لي إنه سيحميني من الشرّ، ولم يحمني. أرجو أن يكون حرزك أفضل من ذاك الذي ألقيتُ به، وأن يحميك أفضل ممّا حماني».

فقال وهو يهّم بالسير نحو طيفها في الباب: «لا شيء يحمينا من الشرّ». تراجعتُ أمينة وأغلقت الباب قبل أن يقترب أكثر.

حين عاد يوسف وجد الدكان مغلقاً، ولا أثر لخليل في أيّ مكان. كانت حصيرتاها مفروشتين استعداداً للنوم، وتمدّد يوسف على حصيرته، يفكر في الأسئلة التي جهّزها لخليل حين يعود. انتظره بصبر، وقد أسعده أنّ يكون له مزيد من الوقت يجلس فيه وحيداً. لكنّه بدأ يقلق حين طال انتظاره. ترى أين ذهب؟ كان ربيع القمر قد ارتفع في السماء، يبدو قريباً جداً حتّى أنّه لم يطق النظر إليه. تسارعت سحب ذات حواف داكنة بالقرب من هالة القمر، فتحوّلت إلى أكوام

وأشكال معذّبة. هكذا ملأت الغيوم الداكنة السماء من خلفه، وبدّدت النجوم.

استيقظ فجأة، تسوطه اندفاعات العاصفة. كانت الأمطار الغزيرة تتدفّق حوله، ترتفع إلى الشرفة من أثر الرياح المتصاعدة. اختفى القمر، لكنّ الأمطار أضفت وهجاً رمادياً أضاء الأجسام والأشجار، وكأنّها صخور ضخمة في قاع البحر.

الْعَلَق

قال خليل حين سأله يوسف عن أمينة: «فلتجيبك بنفسها». كان قد عاد عند الفجر في ليلة العاصفة، وبدا متعباً أشعث، تشتبك في شعره شظايا أغصان وعشب جاف. فتح الدكان بعناية، تجنباً لأيّ فواجع، لكنّه لم يقدّم أيّ تفسير لغيابه. نأى بنفسه عن يوسف، دون أن يبدي عداً واضحاً، وصدّ كلّ محاولة لإعادة الصفو بينهما طوال اليوم، فانسحب إلى شكل صامت من الودّ المصحوب بالمزاح الذي غلب على أيامهما الأولى. فلما سأله يوسف كيف لم يبتل أثناء العاصفة، لم يُبدِ علامة على أنّه سمعه. حاول يوسف استرضاءه مرّة بعد مرّة، لكنّه في نهاية المطاف تركه لجراحه.

في المساء أحضر خليل أطباق الطعام، بابتسامة مزمومة لم تنجح في إخفاء بؤسه وغضبه. سأله يوسف: لمَ لا تتكلّم؟، لكنّ خليلاً أشار إلى أطباق الطعام وراح يأكل. تناولا طعامهما في صمت، ثمّ نهض يوسف كي يعيد الأطباق ويزور السيّدة وأمينة. خطر له أنّ خليلاً قال شيئاً حين دخل إلى البيت، وهذد وأنذر. ظنّ أنّ خليلاً سوف يحاول أن يمنعه، ربّما بالعنف، لكنّه حتّى لم ينظر إليه حين نهض متوجّهاً إلى الداخل.

تهلّل وجه السيّدة بالترحيب والبسمات، وصوتها الحادّ يعلو ويهبط في أنغام حادّة تملأ الغرفة. كانت تتوق إلى الكلام، وحدثتهما عن مجيئها لتسكن مع زوجها الأوّل، عليه رحمة الله. كان زوجها رجلاً ناضجاً في العمر، في الخمسينيّات تقريباً، وكانت هي تقترب من الخامسة عشرة. تُوفيت زوجته وابنه الرضيع قبل أشهر بسبب

الأمراض، وحسد الناس، وكان هذا الرضيع هو الوحيد من بين أطفاله الذي عاش أكثر من بضعة أسابيع. أما الآخرون فقد عاشوا بما يكفي لتسميتهم، وكان الزوج يتذكّر كلّ واحد منهم. ظلّ إلى آخر أيّامه لا يتحدث عن زوجته وأطفاله إلّا ويبكي، عليهم جميعاً رحمة الله. كانت السيّدّة قد نشأت في هذه البلدة، وتعرف الفاجعة التي ألمّت به، ما أكسبه احتراماً وتقديراً بين الناس. ورغم هذا الحمل الذي كان يثقل كاهله، إلّا أنّه كان لطيفاً معها، إلى السنة أو السنتين الأخيرتين من حياته على أيّ حال، فقد أصبح سريع الغضب صعب المراس من جرّاء المرض. وهكذا جاءت لتعيش في هذا المنزل، وأحضرت معها مزي حمداني الذي لم يكن كبير السنّ آنذاك.

مزي حمداني هو الذي بنى الحديقة. لم بينها من الصفر طبعاً. كانت هناك بعض الأشجار القديمة، لكنّه نظّف الأرض وبنى البرك، وظلّ يلعب في الحديقة طوال النهار كطفل صغير. وكان غناؤه يغضب زوجها، فاضطّرت إلى منعه من الغناء. والدّها هو الذي أهداها إيّاه بمناسبة زواجها. كانت تعرفه منذ طفولتها، هو وعبد آخر أكبر منه يُدعى شيبّي، تُوفّي قبل سنوات، يرحمه الله. فلمّا تزوّجت من السيّد، قبل أكثر من عشر سنوات، عرضت على مزي حمداني أن تمنحه حرّيته هديّة له. فرغم أنّ القانون في ذلك الوقت كان يحظر بيع الناس وشراءهم، إلّا أنّه لم يُوجب عتق العبيد. غير أنّ مزي حمداني رفض، وما يزال الشيخ المسكين في الحديقة يغني أناشيده.

قالت أمينة بنظرة باهتة إلى البعيد: «تقول هل تعرف سبب تسميته حمداني؟ لأنّ أمّه، التي كانت عبدة، ولدته في وقت متأخّر من حياتها. سمّته حمداني حمداً لله. فلمّا تُوفّيَت أمّه اشترى والدّها حمداني من الأسرة التي كانت تملكه. كانت أسرة فقيرة، غارقة في الديون».

في ذلك الصمت حدّثت السيّدة في يوسف طويلاً، وهي تبتسم في سعادة. ظلّت ابتسامتها على وجهها وهي تكمل حديثها، لكنّها هذه المرة لم تتحدّث كثيراً.

قالت أمينة: «تطلب منك أن تجلس قريباً منها». حاول أن ينظر في عينيّ أمينة، يستنجد بها، لكنّها تجنّبت النظر إليه. ربّت السيّدة على السجّادة التي تبعد عنها قدماً أو نحو ذلك، تبتسم له وكأنّه طفل خجول. وبعد أن جلس، أخذت يده ووضعتها على جرحها، واستبقّت يدها على يده. أغمضت عينيّها، ونذت عنها هسهسة طويلة، ما بين الراحة والمتعة. هناك بالقرب منها لاحظ يوسف أنّ جلد وجهها ورقبتها صلب، ورطب. وما هي إلّا لحظة حتى أفلتت يده، فنهض بسرعة وتراجع.

قالت أمينة بصوت ضعيف بعيد: «تقول إنّك لم تتل دعاء». فتمتم متظاهراً بالدعاء كالمعتاد، وانصرف مسرعاً، ويده ما تزال دافئة من وجه السيّدة.

كان بعد هذه الحادثة أن سأل خليلاً عن أمينة. فنظر إليه خليل بمقت، وقد التوى وجهه الرفيع بازدياد حتّى ظنّ يوسف أنّه سيصق عليه. قال: «فلتجبك بنفسها»، وعاد إلى عبوات السكر التي كان يرتبها على المنضدة. صمّت قاس يحلّ عليهما طوال المساء. لم يحرص يوسف على تبديد ذلك الصمت، رغم أنّه خيّل إليه في بعض الأحيان أنّ خليلاً سيتحدّث، للتنفيس عن غضبه وقلقه. كان يوسف يشعر بعناد هادئ فيما يفعله، رغم شعوره بالقلق والحيرة من المدى الذي سيسمح للأمور بأن تأخذه إليه. سيعرف على الأقلّ عن الأسرار والمؤامرات قدر استطاعته، كما أنّه وجد متعة لا تقاوم في رؤية أمينة والاستماع

إليها. لم يكن يعرف من أين أتى بتلك القوة للتصرف على ذلك النحو. فرغم ما قاله خليل، ورغم ما كان يعرفه هو ويقول له لنفسه، إلا أنه لم يرفض الذهاب أبدًا حين يُستدعى.

في اليوم التالي ذهب يبحث عن مزي حمداني، فوجده جالسًا تحت ظل نخلة يقرأ في ديوان الشعر. انزعج الشيخ ونظر حوله، وكأنه يختار شجرة أخرى ينتقل إليها حتى يجلس في سلام.

فقال يوسف: «من فضلك لا تبتعد». ثمّة شيء حميم في صوته دفع الشيخ إلى التردد. انتظر مزي حمداني لحظةً، ثم ترك عضلات وجهه المشدودة ترتخي. أوماً بصبر نافذ، كعادته حين يُضطر إلى سماع الآخرين على مضض. هيّا قل ما لديك.

سأله يوسف وهو يقطب جبينه منزعجًا: «لماذا رفضت حرّيتك حين عرضتها عليك؟ السيّد أقصد».

صمت الشيخ طويلاً، ينظر إلى الأرض. ثم ابتسم، فكشف عن بضع أسنان طويلة اصفرّت مع الزمن. قال: «هكذا وجدّني الحياة».

لكنّ يوسف لم يقبل بهذا الجواب الذي اعتبره تهرّبًا، فهزّ رأسه بسرعة أمام البستاني الهرم. «لكنّك كنتَ عبدًا لها... وما زلتَ عبدًا لها. هل هذا ما تريده؟ لماذا لم تقبل حرّيتك حين عرضتها عليك؟»

تنهّد مزي حمداني وسأله بحدّة: «أولا تعرف شيئًا في هذه الدنيا؟». ثمّ سكت قليلًا وكأنه لن يضيف شيئًا. وبعد برهة تابع يقول: «إنّما عرضوا عليّ أن يهدوني حرّيتي. هي التي عرضت ذلك. من قال لها إنّ حرّيتي في يدها؟ أعرف الحرّية التي تقصدها؛ تلك التي تحصّلتُ عليها لحظةً ولادتي. وحين يقول لك هؤلاء الناس: أنت مُلكي، وأنا

أملكك، فالأمر أشبه بانقضاء المطر، أو غروب الشمس في آخر النهار. ستشرق الشمس في اليوم التالي، شاءوا أم أبوا. والحرية هكذا أيضًا. بمقدورهم أن يحبسوك، ويقيّدوك بالأغلال، ويمتهنوا أبسط رغباتك، أما الحرية فليست شيئًا يمكن أن يسلبوه. بعيدة هي عن أياديهم حتى حين يقضون وطهرهم منك، بعدها عنهم في يوم ميلادك. هل فهمتني؟ وأنا إنما خلقت لهذا العمل، فما الذي تستطيع تلك السيّدة أن تمنحني إياه أكثر من هذه الحرية؟»

خطر ليوسف أن هذا حديث رجل هرم. لا شك في أنه كلام حكيم، لكنّها حكمة التحمّل والعجز. لعلّها حكمة تثير الإعجاب، ولكن ليس عندما يجلس المتممّرون على وجهك ويطلقون ريحًا فاسدة. صمت يوسف، لكنّه أدرك أنّه أحزن الشيخ الذي لم يتحدّث إليه كثيرًا من قبل، ولعله تمنّى الآن لو أنّه لم يتحدّث.

سأله يوسف كي يسترضيه، ولأنّه أراد أن يسأله عن والدته: «من أين أنت؟». كان يريد أن يخبر مزي حمداني بما حدث له، وكيف فقد والدته أيضًا. فالتقط مزي حمداني ديوانه دون أن يردّ، وبعد لحظة هشّ يوسف كي يبتعد.

مكتبة

t.me/soramnqraa

2

ظلّ ثلاثة أيّام يدخل إلى البيت كلّ مساء، في تحدّ لاحتقار خليل الصامت. كانت كلّ محاولاته لحثّ خليل على الكلام قد فشلت، وحتى الزبائن كانوا يسألون عنه باهتمام. وفي الليلة الثالثة، بينما كان يوسف يقترب من الظلام المفضي إلى الحديقة، ناداه خليل. توقّف

يوسف لحظة، ثم تجاهله وسار في الطريق الخفيّ إلى باب الفناء الذي كان مواربًا. أجاب عن الأسئلة التي طرحتها عليه السيّدة، عن والدته، وعن الرحلة التي سافر فيها إلى الداخل، والفترة التي قضاه في البلدة الجبلية. كانت تستند إلى الحائط، تبتسم وهي تنصت إليه. وظلّت عيناها مستقرّتين عليه، حتّى حين تترجم أمانة. بين الفينة والأخرى يسقط لفاعها على كتفها، فيكشف رقبتها المكدومة وصدرها، فلا تلقى بالآ لإعادته إلى مكانه. أمّا يوسف فقد شعر بقُرصٍ صلب بارد من الوحدة في داخله. هو أيضًا طرح أسئلة، يقصد توجيهها لأمانة، فكانت تحوّلها إلى ردود طويلة تفصّل كلام السيّدة. كان راضيًا بالاستماع. قالت أمانة: «أصيّبت بالجرح وهي صغيرة، بُعيد زواجها الأوّل. كان في البدء مجرد علامة، لكنّه تعمّق بمرور الوقت إلى أن وصل إلى قلبها. وقد ازداد الألم حتّى لم تعد تحتمل الناس، إذ كانوا يسخرون من تشوّهها ويضحكون من صيحات آلامها. لكنك الآن تشفيها بأدعيتك ولمستك، فصار بمقدورها أن تشعر بالراحة».

وسأل يوسف أمانة: «حدّثيني عن مجيئك إلى هنا أوّل مرة. كيف كان انطباعك... عمّا جئت من أجله؟»

فقالت بهدوء: «كنت صغيرة جدًّا على التفكير في شيء. وبما أنّي كنت بين أناس متحضّرين، فلم يكن لديّ شيء أخافه. كانت عمّتي زليخة معروفة بطبيعتها وخشيتها من الله، والبيت والحديقة مثل الفردوس، لا سيّما لصبيّة ريفيّة فقيرة مثلي. حين كان الناس يزوروننا، كانوا يتقطّعون لفرط الحسد من جمال الحديقة. واسأل أيّ شخص في البلدة إن كنت لا تصدّقني. وفي كلّ عام في موسم الصدقات، كانت عمّتي زليخة تتصدّق للفقراء أكثر فأكثر. لا يرجع أحد من هذا

المنزل خالي الوفاض. وكانت أعمال السيّد في نعمة، فيما تعاني السيّدة من هذا المرض الغريب. هذا قدر الله، وليس لنا أن نعترض على حكمته».

لم يملك يوسف إلّا أن يبتسم. «لماذا تتحدّثين بهذه الطريقة الغريبة حين أسألك سؤالاً بسيطاً كهذا؟»

تحدّثت السيّدة فجأة، وقد شاب صوتها شيء من تحفّظ. لكنّه ترقّق بعد لحظة، ولاحظ يوسف أنّ أمانة سكّنت في حيرة قبل أن تبدأ الترجمة. «تقول إنّها لا تريد أن تسمعي أتحدّث كثيراً، بل تريد أن تسمعي. تقول إنّ لكلامك حلاوة، رغم أنّها لا تفهم ألفاظك. حتّى حين تكون جالساً ساكناً، يتوهّج الضوء في عينيّك ومن جسدك. وما أجمل شعرك».

فنظر يوسف إلى السيّدة في دهشة، ورأى عينيّها تدمعان، ووجهها مشرق في جراءة. فلمّا نظر إلى أمانة وجدها قد طأطأت. قالت: «تطلب منك أن تقرب أنفاسك من وجهها، كي تداويها».

فقال يوسف بعد صمت طويل مخيف: «لعلّ من الأفضل أن أنصرف الآن».

قالت أمانة وهي ما تزال مطأطئة، لكنّ صوتها يحمل ضحكة واضحة: «تقول إنّ مرآك يمتعها كثيراً حدّ الألم».

فتحدّثت السيّدة في غضب، ورغم أنّ يوسف لم يفهم كلامها، إلّا أنّه أدرك أنّها طلبت من أمانة أن تنصرف. هو أيضاً نهض بعد لحظة من انصراف أمانة، لا يدري كيف يخرج من الغرفة. وكانت السيّدة منتصبّة في جلستها، غاضبة، ووجهها محتقن بالبؤس. هدأ غضبها

شيئًا فشيئًا، ثمّ أشارت إليه أن يقترب. وقبل أن يغادر الغرفة لمس جرحها الأرجواني المتوهّج، ف شعر به ينبض تحت راحته.

كانت أمينة في انتظاره تحت الظلال عند باب الفناء. توقّف أمامها، يريد أن يمدّ يده نحوها، لكنّه خاف أن تقاطعه إن فعل ذلك. قالت هامسة: «يجب أن أعود إلى الداخل. انتظرنِي في الحديقة. انتظر».

وانتظر يوسف في الحديقة، تتسابق الأفكار في رأسه. هبّ نسيم خفيف عبر الأشجار والأجمات، فيما امتلأ الهواء المعطر بنبض الحشرات الليلية. لا بدّ من أنّها ستوبّخه، وتكرّر ما قاله خليل من نذير ووعيد. أو ربّما تقول له إنّها تعرف أنّه كان يأتي إلى المنزل كلّ مساء كي يراها هي (أي أمينة)، يجري وراء أحلام ساذجة. فلمّا مرّ الوقت وبدا أن الانتظار لا ينتهي، بدأت مخاوفه. سيراه أحد رابضًا في الحديقة في جوف الليل، يدبّر سرقة مخزية. وندّ صوت خفيّ ظلّه خليلاً جاء للبحث عنه، وسيرغي ويزبد بالتأكيد. منع نفسه من الذهاب عدّة مرات، وحين سمع ضجيجًا عند الباب سارع نحوه في ارتياح.

أشارت له أمينة بالصمت وهو يقترب. همست له: «لا أستطيع البقاء هنا طويلاً. هل أدركتَ ما تحاول السيّدَة أن تفعله؟ ما كان ينبغي لي أن أخبرك بما قالته، لكنك على الأقل تُدرك مقصدها. إنّها مهووسة بهذا الأمر... احذر... وابتعد عنها».

فقال: «إن ابتعدتُ عنها لن أراك». ثمّ استأنف بعد صمت طويل: «وأنا أريد أن أراك باستمرار، رغم أنّك لا تجيبين عن أسئلتي».

سألته، وخيّل إليه أنّه رأى ابتسامتها في الظلام: «أيّ أسئلة. لا وقت للأسئلة. سوف تسمعنا».

فقال وقد انتشى جسده كله: «لاحقًا. بعد أن تنام. يمكنك أن تمشي في الحديقة».

«إنها غاضبة. ننام في غرفة واحدة. سوف تسمع...»
«سأنتظرك هنا».

فقالت أمينة وهي تبتعد وتغلق باب الفناء: «لا، لا أدري». ثم عادت بعد بضع دقائق. «إنها نائمة. أو تتظاهر بذلك. أي أسئلة؟»

لا تهمة الأسئلة، لكنه خاف إن هو مدّ يده ليلمسها فلن تسمح له بالاقتراب منها مرةً أخرى. «لماذا لا تتشابهان أبدًا أنت و خليل؟ وكلاكما مختلف تمامًا... رغم أنكما شقيقان. وكأنكما تتكلمان لغتين مختلفتين».

«لسنا شقيقين. أولم يخبرك؟ لماذا لم يخبرك؟ رأى والده رجالاً يجاهدون لتحميل صبيّتين في قارب، وكانوا يخوضون في مياه ضحلة، فيما الصبيّتان تبكيان. فصاح والده وركض في الماء. تخلّى الخاطفون عن إحدى الصبيّتين، لكنهم تمكنوا من الهرب بالأخرى. هكذا أخذني إلى منزله وتبناني، ونشأنا أنا و خليل معًا، ولكن لا قرابة بيننا».

فقال يوسف في هدوء: «لا، لم يخبرني. والأخرى؟ الصبيّة الأخرى؟»

«أختي؟ لا أعرف ما حلّ بها. أو بأمي. لا أتذكر شيئًا عن والدي أيضًا. لا شيء. أذكر أننا حُمِلنا ونحن نائمتان وسرنا بضعة أيام». ثم سألت بسخرية مريّة جفل منها: «هل لديك أيّ أسئلة أخرى؟»
«تذكرين بلدتك... أقصد أين تقع».

«أعتقد أنني أتذكر اسمها... فومبا أو فومبا، وأظنها قريبة من البحر. كنت في الثالثة أو الرابعة لا أكثر. ولا أعتقد أنني أتذكر حتى شكل والدتي. اسمع، عليّ الذهاب الآن». قال: «مهلاً»، ومدّ يده ليستبقيها. أمسك بها من ذراعها، فلم تبذل أيّ جهد لتخليص ذراعها. «هل أنتِ متزوجة منه؟ هل هو زوجك؟»

قالت بهدوء: «نعم».

فقال بصوت ملؤه الألم: «لا».

قالت: «نعم. ولكن أولم تكن تعرف هذا أيضًا؟ كان هذا مفهومًا منذ البداية... لقد شرحتُ لي هذا الأمر حين جاؤوا بي إلى هنا. هي! وذلك الحرز الذي وجدته، أعطوني إيّاه حين تبتّاني والد خليل. أحضروا رجلًا ليكتب أوراق التبتّي، وهو الذي صنع لي ذلك الحرز. قال إنّه سيعمّيني دائمًا، لكنّه لم يحمّني. لديّ حياتي على الأقلّ. ولكنّي لا أعرف أنني أملكها إلّا لأنّها خاوية، بسبب ما حرّمت منه. يطيب للسيد أن يقول إنّ معظم أهل الجنّة من الفقراء، ومعظم أهل النار من النساء. لكن كانت هناك جحيم على الأرض، فهي هنا».

لم يجد ما يقوله، وبعد لحظة أفلت ذراعها، مغلوبًا بذاك الهدوء الشديد الذي تحدّث به عن مرارتها وانكسارها. لم يكن ليخمن أبدًا من ابتساماتها الهادئة وصمتها المطمئنّ أنّها تحاول السيطرة على كلّ ذلك البؤس.

قالت: «كنتُ أشاهدك وأنت تعمل في الحديقة. أخبرني خليل عنك وكيف جيء بك إلى هنا. كنتُ أتخيّل أنّ الظلّ والماء والأرض قد ساعدت في تخفيف آلامك ممّا سُرّق منك. كنتُ أحسدك، وأقول

في نفسي قد تلمحني ذات يوم عند الباب وتجبرني على الخروج أيضًا. تخيلتك تقول: اخرجي، والعبي. ولكن بعد ذلك أبعدوك عن هنا لأنها بدأت تُجنّ بك. على أيّ حال، يكفي كلامًا عن هذا... هل لديك أسئلة أخرى؟ إذن سأذهب».

فقال: «نعم. هل تتركينه؟»

ضحكت بهدوء ولمست خدّه. ثم قالت: «كنتُ أعرف أنّك حالم. حين رأيتك في الحديقة تخيلتك حالمًا. من الأفضل لي أن أعود قبل أن تصحو مرةً أخرى. ابتعد عنها، تسمعني؟»

«مهلاً. كيف أراكِ إذن؟ إلّا إن أتيتُ؟»

«لا. وماذا تريد أن ترى؟ لا أدري».

فلمّا ذهبت أحسّ بلمسة يدها كعلامة على خدّه، فلمسها كي يشعر بتوهّجها.

3

قال يوسف وهو جالس إلى جانب خليل الممدّد على حصيرته: «لماذا كلّ تلك الأسرار والتجهّم المريع؟ كان بإمكانك أن تخبرني بكلّ شيء».

فقال خليل على مضض: «كان بإمكانني».

«وما الذي منعك؟»

استقام خليل في جلسته، وسحب اللحاف فوق كتفيه كي يحمي نفسه من البعوض الذي كان يطنّ حولهما. «لأنّ الأمر ليس بسيطًا. لا

شيء بسيط، ولم يكن هذا شيئاً يمكنني أن أقوله لك هكذا: لحظة، ما رأيك في هذا؟ أما التجهّم المريع الذي تحدّث عنه، فلائك تشعرني بالخزي».

«حسنٌ، أنا آسف، كنتَ تشعر بالخزي ولست متجهّماً، ولكنّ لعلّك تستطيع الآن أن تخبرني شيئاً من تلك الأشياء غير البسيطة».

قال خليل: «هل أخبرتك بشيء؟ عن نفسها؟»

«قالت إنّ والدك أنقذها من الخاطفين، ثمّ تبّناها».

فقال خليل وقد أسقط كتفيه في تجهّم: «فقط؟ حسنٌ، هذا ليس كثيراً. لا أعرف من أين جاء صاحب الدكان الهزيل بتلك الشجاعة. كان أولئك الخاطفون يحملون بنادق... ربّما. جرى في الماء يصيح فيهم كي يتركوا الطفلتين. لم يكن يُحسن السباحة حتّى».

«كنّا نعيش في بلدة صغيرة جنوب هذه المنطقة، بلدة فقيرة. أخبرتك عنها. وكان دكاننا يتعامل مع الصيّادين وصغار المزارعين الذين يأتون لبيع الخضروات والبيض مقابل حفنة مسامير أو قطعة قماش أو رطل سكر. وما أسعدنا إن حظينا بأي بضاعة مهربة! هكذا كانت، ماغندو تُباع في مكان ما، مثلما بيعت أختها. أذكر يوم جاء بها، باكية متّسخة... مرتعبة. عرف أهل البلدة كلّهم بأمرها، ولكنّ لا أحد أتى يطلبها، فعاشت معنا». ثمّ قال خليل مبتسماً: «سمّاها أبي كيفاً أوروغو. وفي الصباح ناداها أبي حين جلس كي يأكل الخبز، فأحضرت له وجلست معه وهو يُطعمها لقيمات، كأنّها فرخ صغير. هكذا كانت تأكل خبز الدخن مع السمن المذاب كلّ صباح، تجلس على مقربة تتجاذب أطراف الحديث معه وتفتح فمها على وسعه لتلك

اللقيمات التي كان يقطعها لها. كانت تتبع أمي وهي تنجز أعمالها، أو ترافقني حين أخرج. وذات يوم قال أبي إننا سنسميها، كي تصبح واحدة منا. كان يقول إنّ الله خلقنا كلنا من علق. كانت تتحدّث مع الناس هناك أفضل منا. فهي سواحليّة، مثلك، رغم أنّ لهجتها كانت مختلفة بعض الشيء.

«ثمّ جاء السيّد. وهذا الجزء من الحكاية بسيط جدّاً. حين بلغت السابعة من عمرها، عرضها أبي الأحمق المسكين على السيّد بوصفها جزءاً من دينه. وكان ينبغي أن أكون رهاني له إلى أن تبلغ أمينة سنّ الزواج، إلّا إذا استطاع أبي أن يخلّصني قبل ذلك. لكنّه مات، وعادت أمي وشقيقاي إلى جزيرة العرب وتركوني هنا مع هذا العار. وحين جاء ذلك الشيطان محمد عبد الله ليأخذنا، طلب منها أن تخلع ملابسها وأخذ يتلمّسها بيديه القدرتين».

بدأ خليل يبكي، يسحّ الدموع على وجنتيه.

ثم أكمل: «وبعد الزواج قال لي السيّد إنني حرٌّ إن أردت الذهاب. فبقيت هنا كي أعين تلك الفتاة المسكينة التي باعها أبي عبدة، يرحمه الله».

صاح يوسف: «ولكن لم تعد هناك حاجة لكما بالبقاء. يمكنها أن تغادر إن أرادت. من يملك أن يمنعها؟»

فقال خليل ضاحكاً وسط بكائه: «ما أشجعك يا أخي. يمكننا جميعاً أن نهرب ونعيش في الجبال. الأمر بيدها إن أرادت. فإن رحلت دون موافقة السيّد، سيتعيّن عليّ أنا أن أعود رهاني كما كنت، أو أدفع الدين. هذا هو الاتفاق، وهذا ما ينصّ عليه الشرف. لذلك، لن ترحل، وسأبقى أنا هنا ما دامت باقية».

«وكيف تتحدّث عن الشرف...؟»

فسأله خليل: «وبرأيك ما الذي ينبغي أن أتحدّث عنه غير ذلك؟ لقد سلّبتني أبي المسكين، يرحمه الله، والسيد كلّ شيء آخر. من غيرهما جعل منّي رعيديًا عديم الفائدة هكذا؟ ربّما في طبيعتي شيء من ذلك، أو ربّما هي الطريقة التي نعيش بها... عاداتنا. أمّا هي، فقد كسروا قلبها. فما الذي بقي لتمسّك به غير ذلك؟ إن كنت لا تريدني أن أسمّيه شرفًا، فسّمّه ما شئت».

قال يوسف بغضب: «أنا لا يهمني هذا الشرف الذي تتحدّث عنه. هي مجرد كلمة نبيلة نختبئ وراءها. سوف آخذها ونرحل عن هذا المكان».

استلقى خليل على حصيرته وتمدّد. قال: «كنت سعيدًا ليلة تزوّجها، رغم أنّها لم تكن تشبه حفل الزفاف الهندي الذي شاهدناه قبل سنوات. لم يكن هناك غناء أو جواهر... ولا حتّى ضيوف. قلتُ في نفسي لن تكون الآن فرحًا صغيرًا في قفص، تغني أغانيها الحزينة. هل تسمعها تغني في الليل أحيانًا؟ قلتُ في نفسي سوف يمسح الزواج عارها. يمكنها أن ترحل إن شاءت! فمن الذي منعك من الرحيل طوال هذه السنوات؟ وأين تذهب معها؟ لن يحتاج السيد حتّى لأن يرفع يده عليك. ستكون مذبذبًا في أعين الجميع، ولهم الحقّ. مجرمًا. لن تحظى حتّى بسلامتك إن بقيت في هذه البلدة. هل قالت لك شيئًا؟ أقصد هل وعدتك بشيء؟»

لم يجبه، لكنّه شعر بسخطه ينحسر، كما شعر ببداية ارتياح بعد أن وجد صديقًا لقراره المتهوّر. ربّما لم يكن في مقدوره شيء يفعل.

ورغم أن ذكرى أمينة وهي واقفة في الظلام عند باب الفناء ما تزال حاضرة، دافئة بين يديه، إلا أنه كان يشعر أنها تبرد شيئاً فشيئاً إلى شيء أهدأ، مثل كنز مستور سوف يُستخرج في وقته. كيف يمكنه أن يحدثها بالهروب معه؟ سوف تضحك في وجهه وتستنجد بشخص ما. لكنه سمع المرارة في صوتها وهي تتحدث عن العمّ عزيز وحياتها التي وصفتها بالجحيم. أحسن بيدها على خده، يدها على خده. وضحكتها حين سألها إن كانت ستترك العمّ عزيز...

قال يوسف بعد صمت طويل: «لا، لم تقل شيئاً. تراني شخصاً حالماً». ظن أن خليلاً سيطرح أسئلة أكثر، لكنه سمعه بعد لحظة يتنهد ويهتئ نفسه للنوم.

استيقظ يوسف وهو يشعر بالتعب، والإثم. ظل طوال الليل يغفو ويصحو، يقلّب الأمر فيما إذا كان ينبغي له أن يتخلّى عن الفكرة أو يتحدث إلى أمينة. خطر له أنها لن تتولّى عنه في احتقار، فهي التي تحدثت بتلك الطريقة عن حياتها وحياته، وكيف كانت تراقبه وتربط حياتها بحياته. كان ثمة شيء من هذا القبيل في الرغبة التي يشعر بها تجاهها، ورغم أنه لا يعرف كل الكلمات التي يحتاج إليها ليحدثها عن رغبته، إلا أنه أدرك أنه لم يكن شيئاً بسيطاً نشأ بسببه وحده. لكن هذا كله كان مجرد تمتمة لطيفة، إن قورن بما سيأتي بعد ذلك إذا ما وافقت. ومع ذلك، فقد كان مصمماً على التحدث إليها. سيقول لها: إن كانت جحيماً، غادريها. واسمحي لي بالذهاب معك. لقد ربّونا على الطاعة والخجل، كي نكرمهم حتى وهم يسيئون إلينا. ارحلي واسمحي لي بالذهاب معك. كلانا تائه في العراء. فأين مكان سيكون أسوأ؟ أينما ذهبنا، لن نجد حديقة مسورة ذات أشجار سرو قوية وأجمات متململة،

وأشجار فاكهة وأزهار برّاقة. ولا رائحة العصارة المرّة في شجر البرتقال
نهاراً، ولا الحُضن العميق الذي يَلْفنا من عقب الياسمين ليلاً، ولا رائحة
الرّمّان أو الأعشاب الحلوة في الحدود. ولا موسيقى الماء في البركة
والقنوات. ولا تلك السعادة التي تضيفها أشجار النخيل في اشتداد
النهار. لن تكون هناك موسيقى تفتن الحواس. سيكون الأمر نفيّاً،
ولكن كيف له أن يكون أسوأ ممّا نحن فيه؟ وسوف تبتسم وتلمس
خدّه، فيتوهّج. ستقول له: أنت حالم، ثمّ تعدّه بأنّهما سيبنيان حديقة
أكمل من هذه.

قال لنفسه إنّّه لن يشعر بأيّ ندم حيال والدَيْه. لن يندم. لقد تخلّى
عنه منذ سنوات كي يحظيا بحريّتهما، وحنّ دوره الآن كي يتخلّى
عنهما. لئن كسبا أيّ راحة من عبوديّته، فسوف تنتهي الآن حين يذهب
ليعيش حياته. وحين يهيم حرّاً في السهول، قد يزورهما ويشكرهما
على الدروس الصعبة التي علّمها إيّاها كي يستعدّ لهذه الحياة.

4

كان الدكّان مزدحمًا في ذلك اليوم، فألقى خليل بنفسه في لجة
العمل في مرح واسترسال حتّى بعث البسمة في أشدّ الزبائن تعجّماً.
قالوا: ها قد استعاد معنوياته العالية، الحمد لله! وقد بلغ مزاحه مستوى
جديدًا من الجرأة، يقترب أحيانًا من السخرية، لكنّه كان يلقيه في جوّ
من الودّ لا يشعر معه أحد بالإهانة. كانوا يسألون: «ما الذي حلّ به؟»،
فيبتسم يوسف ويهزّ كتفيه، ثمّ يضع يده على جبينه. فسروا ما حدث
له عدّة تفسيرات. قالوا إنّّه حماس الشباب، قد يكون في غير موضعه

لكنّه مفيد وممتع. من الأفضل أن تضحك الآن قبل أن تشدّ الحياة خناقها عليك. وقال آخر إنّه دخنّ بضعة رؤوس من الحشيش. وبما أنّه غير معتاد عليه، فقد أصيب عقله بحمّى. وجاءت امرأة تشتري أوقيتين من زيت جوز الهند لشعرها، فروى لها خليل حكاية غزل رمزية عن محاسن التدليك، فتساءلت المرأة ما إذا كان شخص قد وضع الفلفل في قضيّبه. تابع الشيوخ ذلك المشهد من الشرفة وأخذوا يقهقهون. ورغم أنّ خليلًا كان يتجنّب يوسف، إلّا أنّ هذا رأى الحماس البهيج في نظراته، فابتعد عن طريقه.

وفي العصر، حين يقلّ زوّار الدكان، يضع خليل صندوقًا في طرف الدكان ويغفو فوقه. لا يذكر يوسف أنّه رآه يفعل ذلك من قبل، وعدّ هذا الكسل المفاجئ استمرارًا لحالة التجهّم والجنون. رأى مزي حمداني يجاهد لحمل الدلاء، فخمّن أنّه يريد تجديد البرك. كان الماء ينسكب من جوانب الدلاء قبل أن يكمل الشيخ خطوات قليلة إلى الحديقة، فيلّ قدميه ويحوّل الأرض من تحته إلى وحل. راقبه يوسف بحسد وسخط، ولم يكلف نفسه عناء الإسراع لمساعدته، لكنّ الشيخ كان مشغول البال كعادته، ولم يبدِ أيّ إشارة إلى أنّه لاحظ وجوده. ولاحقًا رآه يغادر دون أن ينظر خلفه، يمضي عبر الفسحة بوتيرة ثابتة وكأنّه أمّ أربع وأربعين تشقّ طريقها. كان صوته يرتفع بين الفينة والأخرى في أنشودة لا يمكن سماعها بوضوح، تبدو وكأنّها كلمات تُقال معكوسة.

وفي الوقت المعتاد مساءً، دخل يوسف إلى البيت. قال لنفسه إنّها ستكون المرة الأخيرة. سيتلو دعاء قصيرًا للسيدة ويرى أمينة، ثم... يطلب منها أن ترحل معه، إن تجرّأ على ذلك. كان باب الفناء مواربًا،

فدخل، ينادي بصوت خفيف، يستأذن للدخول. كانت الغرفة مضمخة بالبخور، والسيدة تجلس وحدها في انتظاره. توقّف لدى الباب، يخشى الدخول. ابتسمت وأشارت إليه. لاحظ أنها تأنقت في ملابسها، بفستان قشديّ اللون طويل يتلأأ بخيط كهربان. خلعت لفافها ومالت إلى الأمام، تلوّح له بالحاح أن يقترب. تقدّم يوسف خطوتين، قلبه يخفق، وهو يعرف أنّه ينبغي له أن ينصرف. بدأت تتحدّث بهدوء. كان صوتها غنيًا بالمشاعر، فيما تزداد ابتسامتها نعمة وهي تتحدّث. لم يدر يوسف ما تريد منه أن يفعل، لكنّه أدرك نظرة الوجد والشوق في عينيها. ضغطتْ براحتها على نهدّها، ثمّ نهضتْ. فلما وضعتْ يدها على كتفه، ارتعد. بدأ يتراجع، فتبعته. استدار كي يهرب، لكنّه تعلّقتْ بقميصه من الخلف، وشعرت به يتمزّق بين يديها. وبينما كان ينطلق خارجًا من الغرفة سمع صرخات التباها، لكنّه لم ينظر إلى الورا أو يتردّد.

صاح فيه خليل حين مرّ من جانبه راکضًا في الحديقة المظلمة: «ماذا فعلت؟». جلس يوسف على الشرفة، يشعر بخدر واشمئزاز، وقد اجتاحتّه حالة الرجس التي كان فيها. انتظر في الشرفة وقتًا بدا له ساعات، يتقلّب بين الخزي والغضب. قال لنفسه كان ينبغي أن يغادر فورًا، قبل أن يحدث ما حدث. لكنّه لم يفعل شيئًا يستدعي الخجل. بل الطريقة التي أجبروه على العيش بها، وأجبروهم جميعًا، هي التي تستدعي الخجل. مكائدهم وكراهيتهم واستحواذهم المدفوع برغبة الانتقام، كلّ ذلك جعل من أبسط الفضائل مائة للمقايسة. سيرحل، فلا شيء أبسط من ذلك. سيذهب إلى مكان يهرب فيه من تلك المطالبات القاسية التي تطوّقه من كلّ صوب. لكنّه كان يعرف أنّ كتلة

صلبة من الوحدة قد تشكّلت في قلبه المخلوع منذ فترة طويلة، وأنها ستراققه أينما ذهب، كي تفسد أي خطة يفكر فيها لتحقيق مكسب صغير. يمكنه الذهاب إلى البلدة الجبلية، فيعذّبه حامد بأسئلته التي يزكيّ بها نفسه، أو يحوّلته كالاسنغا عن طريقه بأوهامه وخيالاته. أو لعلّه يذهب إلى حسين في ملاذه الجبليّ. قد يجد شيئاً من الرضا هناك. أو يذهب إلى تشاتو، كي يصبح مهرّج البلاط في إقطاعيته المتداعية. أو يذهب إلى «ويتو» بحثاً عن والدته محمد صاحب الحشيش والأرض الجميلة التي خسرها بسبب انحرافاته. وأيّاً ما كان المكان الذي يذهب إليه فسوف يسألونه دائماً عن أبيه وأمه وأخته وأخيه، وماذا أحضر معه، وماذا يريد أن يأخذ. ولن تكون لديه إجابات، سوى المراوغة. يمكن للسيد أن يسافر إلى أعماق الأراضي الغربية، يعجّر وراءه سحابة عطره، ولا يحمل من سلاح سوى أكياس من الحليّ وثقته الأكيدة بتفوّقه. لم يكن الرجل الأبيض في الغابة يخشى شيئاً وهو جالس تحت علّمه، محاطاً بجنود مسلّحين. أمّا يوسف فلا علّم لديه ولا معرفة يدّعي بها شرفاً أكبر، وقد خيّل إليه أنّ العالم الصغير الذي يعرفه هو الوحيد المتاح أمامه.

جاءه خليل منطلقاً من وسط الظلام، رافعاً ذراعه وكأنّه سيضربه. قال بغضب: «قلتُ لك إنّنا لن نجني من ذلك غير المتاعب». أنهضه خليل على قدميه وأخذ يجرّه بعيداً. «لنخرج من هنا. لنذهب إلى البلدة. أنت أحمق، أحمق... أتريد أن تعرف ما قالته؟ تقول إنّك اعتديت عليها ومزّقت ملابسها كحيوان، بعد أن عاملتك بلطف بالغ. وتريدني أن أحضر أشخاصاً من البلدة كي يشهدوا على فعلتك. سوف يضربونك ويصقون عليك... ويعلم الله ماذا سيفعلون غير ذلك».

فقال يوسف: «لم ألمسها».

ترك خليل ذراعاه وراح يلكمه، هاجمًا عليه في غضب. «أعلم ذلك، أعلم ذلك! لماذا لم تسمع كلامي؟ لم ألمسها! قل هذا للجمع الذي ستحضره إلى هنا».

فسأله يوسف وهو يدفعه بغضب وينهض على قدميه: «ماذا سيحدث؟»

«يجب أن ترحل».

«أرحل كمجرم؟ وإلى أين أذهب؟ سأرحل حين أريد. وماذا سيحدث لي إن وجدوني؟»

قال خليل: «الكل سيصدّقها. قلتُ لها إنني سأحضر الناس الذين تريدهم من البلدة، وإلاّ لكانت صرخت طلبًا للنجدة. سيصدّقون ما تقوله. لعلّها تهدأ بحلول الصباح إن تجاهلناها، لكنّي لا أظنّ ذلك. ينبغي لك الرحيل. أولاً تعرف هؤلاء الناس؟ سيقتلونك».

فقال يوسف: «لقد مزّقت قميصي من الخلف، وهذا يثبت أنني كنت أهرب منها».

فصاح خليل، ضاحكًا مستغربًا: «كفى حماقة! ومن لديه الوقت ليسألك هذا السؤال؟ ومن يهتم؟ من الخلف؟». نظر إلى ظهر يوسف فلم يستطع إلاّ أن يتسم ابتسامة مجنونة. غرق في تفكيره لحظة، يحاول أن يتذكّر شيئًا.

أسرعا إلى الواجهة البحرية واختارا مكانًا مظلمًا جلسا فيه يتحدثان ساعات. رفض يوسف الرحيل في منتصف الليل وكأنّه مجرم فعلاً،

وأصرّ رغم إصرار خليل على أنّه سينتظر اتّهامها كي يدافع عن نفسه قبل الرحيل. فصاح فيه خليل: لا لا لا، بصوت يقطع الهسهسة التي يلقي بها البحر المضطرب على السور عند أقدامهما.

انتصف الليل تقريبًا حين شقّا طريقهما للعودة إلى الدكان. كانت البلدة صامتة متسمّرة، تدور فيها الكلاب الهزيلة التي كانت تجتاح أحلام يوسف. وما إن وصلا إلى الدكان حتّى أحسّ يوسف باضطراب في الأجواء، وكأنّ شيئًا قد حدث في غيابهما. بعد لحظة عرف دون أدنى شكّ ما حدث. العطرُ هو الذي أنبأ بوجود العمّ عزيز. نظر إلى خليل فلاحظ أنّه أدرك ذلك أيضًا. عاد الفرعون.

قال خليل في همس متوتر: «السيد. لا بدّ من أنه وصل في المساء. الآن لا أحد يمكن أن يعينك غير الله».

ورغم ذلك كلّه إلّا أنّ يوسف شعر برجفة ابتهاج من عودة العمّ عزيز. واستغرب أنّه لم يشعر بأيّ خوف من التاجر، لا شيء سوى الفضول لمعرفة كيف سيتحدّث معه عن تهمته. أترأه سيمسخه قردًا ويرسله إلى قمة جبل أجرد، كما فعل الجنّي بالحطّاب؟ وبينما كان خليل يتحدّث عن المصير المريع الذي ينتظره، فرش يوسف حصيرته واستلقى بهدوء شديد، لم يملك معه خليل إلّا الصمت.

5

خرج العمّ عزيز من بيته مع طلوع النهار. فلمّا اقترب ألقي خليل بنفسه على يد التاجر كعادته، وأخذ يقبلها وهو يسلم عليه. كان العمّ

عزيز يرتدي ثوبًا ونعلين، لكنّه حاسر الرأس، في لفّة تبسّط يبدو فيها مرتاحًا، لطيفًا. أمّا الوجه الذي قابل به يوسف فكان حازمًا، ولم يقدّم يده ليوسف كي يقبلها كالعادة.

قال وهو يشير ليوسف بالجلوس مرّة أخرى على الحصيرة: «ما هذا التصرف الغريب الذي سمعته؟ يبدو أنّك فقدت عقلك. ألدّيك ما تقوله لتفسّر ما حدث؟»

فقال يوسف بصوت يرتعش على نحو مزعج غير متوقّع: «لم أسئ لها في شيء. جلستُ معها لأنّها دعّنتني. وقميصي تقطّع من الخلف. هذا يثبت أنّي كنت أهرب».

تبسّم العمّ عزيز ثمّ تجهّم، عاجزًا عن السيطرة على نفسه. وقال ساخرًا: «أوه يا يوسف. أولم أقل لك إنّ طبيعتنا خسيّسة؟ فلماذا عدت إلى هذا؟ ومن كان ليظنّ بك هذا الظنّ؟ من الخلف؟ هذا يثبت الأمر إذن. لم تقصد شرًّا أو تُحدث أمرًا، ما دام قميصك قدّ من دُبر».

وانطلق خليل يشرح له بالعربيّة، فاستمع له العمّ عزيز بضع لحظات ثمّ أشار له بالسكوت. «فليدافع هو عن نفسه».

قال يوسف: «لم أفعل شيئًا».

فقال العمّ عزيز وقد تجهّم وجهه مرّة أخرى: «دخلت البيت مرّات كثيرة. من أين تعلّمت هذه الأخلاق؟ أترك بيتي أمانة عندك فتحوّله إلى مرتع للنميمة والعار».

«دخلت إلى البيت لأنّها أرادت منّي أن أرقّيها... بسبب جرحها».

نظر العمّ عزيز إليه في صمت، وكأنّه حائر فيما ينبغي أن يقوله أو

يفعله. كانت نظرة يعرفها يوسف من رحلتهم إلى الداخل. بعد هذا التفكير دائماً ما يقرّر التاجر أن يترك الأمور تسير في مجراها، دون تدخل منه. هي لحظة الصمت التي تسبق تركه الحبل على غاربهِ للدمار. قال أخيراً: «كان عليّ أن آخذك معي. كان عليّ أن أتوقّع... السيّدَة ليست على ما يرام. إن لم يحدث بينكما ما يشين، ينبغي أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ. لا سيّما وأنّ قميصك قدّ من دبر. لكنّ هذه المسألة لا ينبغي التحدّث عنها للغرباء. ومع ذلك فقد أخطأت حين أكثر الدخول إلى البيت».

تحدّث خليل مرّة أخرى بالعربيّة في سرعة، وأوما العمّ عزيز عدّة مرّات، وردّ بالعربيّة. وبعد برهة، أشار العمّ عزيز إلى الدكان بهزة من ذقنه.

وبعد أن ذهب خليل لفتح الدكان قال العمّ عزيز: «لماذا أكثر من دخول البيت؟»

نظر يوسف إلى التاجر دون أن يردّ. كان العمّ عزيز جالساً على الحصيرة التي يستلقي خليل عليها، يتوسّد إحدى ساقيه ويتكئ على ذراع ممدودة. لاحظ يوسف أنّ الابتسامة الهادئة كانت تتشكّل في وجه العمّ عزيز وهو ينتظر ردّه.

فقال يوسف: «كي أرى أمانة». استغرقت تلك الكلمات وقتاً طويلاً للخروج من لسانه، ورأى الابتسامة تتسع ثم تستقرّ على شفّتي العمّ عزيز. نظر التاجر إلى الدكان، ونظر يوسف إلى ما كان ينظر إليه. كان خليل عند المنضدة، يحدّق فيهما بنظرة من حقد، وغضب. ثمّ استدار وأكمل فتح الدكان.

قال العمّ عزيز وهو يعود بنظرته إلى يوسف: «هل من مزيد؟ أصبحت شجاعاً، أليس كذلك؟ كم تغيّرت في هذه الأسابيع القليلة الماضية!».

ولأنّ يوسف استغرق وقتاً طويلاً للتفكير في ردّه، حائراً في قدر ما ينبغي له أن يقوله، وتأثير كلامه، فقد بدأ التاجر يتحدث مرة أخرى. قال: «في رحلتي هذه عرّجت على بلدتك القديمة وزرت والدك. أردت أن أعقد اتفاقاً معه، بحيث تبقى هنا تعمل لي بأجر، في مقابل أن أسقط عنه كلّ ديونه لي. لكنّي عرفت أنّ والدك قد تُوفيّ، عليه رحمة الله. وأمّك لم تعد تعيش هناك، ولا أحد يعرف مكانها. لعلّها عادت إلى مسقط رأسها. أين؟»

فقال يوسف: «لا أعرف». لم يشعر بأيّ شعور من الفقد، بل بحزن مفاجئ لمعرفة أنّ والدته تُركت هي الأخرى في مكان ما. دمعت عيناه، ورأى العمّ عزيز يومئذٍ، في إقرار على هذا الحزن. وانتظر التاجر، كأنّما كان قانعاً بأن يترك ليوسف القرار في المدى الذي يريد أن يوصل الأمور إليه. في ذلك الصمت الطويل لم يستطع يوسف أن يجبر نفسه على قول الكلام الذي كان يحترق في داخله. أريد أن أهرب بها. كان ظمناً منك أن تتزوّجها. أن تستغلّها وكأنّها لا تملك شيئاً. أن تمتلك الناس، كما تمتلكنا. وفي النهاية نهض العمّ عزيز وقدم يده ليوسف كي يقبلها. وفيما انحنى يوسف إلى سحابة عطره، شعر بيد العمّ عزيز الأخرى على قفاه لحظة، ثمّ ربّت عليه بقوة.

قال العمّ عزيز في سعادة: «ستحدّث في الأمر لاحقاً، لنقرّر العمل المناسب الذي يمكنك أن تتولّاه عندي. لقد سئمت السفر. ويمكنك أن تتولّى ذلك نيابة عني. وقد تلتقي صديقك القديم تشاتو مرة أخرى.

بالمناسبة، انتبها لنفسيكما، أنتما الاثنان. خليل! أنت أيضًا. ثمة حديث يدور عن حرب بين الألمان والإنجليز، هناك على الحدود الشماليّة. سمعتُ هذا من تجّار البلدة حين وصلتُ عصر الأُمس. سيبدأ الألمان قريبًا في خطف الناس كي يجعلوهم حمّالين في جيشهم. افتحا أعينكما. إن رأيتماهم يقتربون أغلقا الدكان فورًا وابتعدا عن الأنظار. ألم تسمعا ما يفعله الألمان؟ حسنٌ، تابعا العمل».

6

قال خليل بسعادة: «إنّه يحبّك. كنتُ أقول لك ذلك طوال الوقت. السيّد بطل، لا شكّ في ذلك. عاد، ونظر نظرة إلى السيّدة وقال لنفسه: هذه المجنونة كانت تعذب غلامي الوسيم. النساء أسّ البلاء دائماً، وامراتي هذه قردة من طراز رفيع، عليها لعنة الله. لا يخفى على أحد جنونها، بصوتها المزعج وحكاية جرحها. وقميصك الممزق! يا لقميصك الممزق! يا لها من قصّة! لديك ملائكة يحرسونك. الآن سيجد لك السيّد زوجة، كي ينقذك من المتاعب. واحدة من تلك الصبيّات اللاتي يسكنّ في دكان في الريف. أظنّه اختار واحدة فعلاً قبل أن يسافر. لعلّه يشتري واحدة لي أيضًا ونقيم زفافًا مزدوجًا. وقد تكونان شقيقتين. ربّما من الأرخص شراء اثنتين معًا. ونصف الرسوم المدفوعة للقاضي الذي سيزوّجنا، وغسل واحد لما بعد ليلة الزفاف أيضًا. يمكننا استئجار واحد من تلك المنازل الواقعة على الجانب الآخر من الطريق ونسكن معًا. سيكون لزوجتيّنا توأمان وتساعد إحداهما الأخرى في أعمال المنزل، ويمكننا أن نجلس على حصيرة

في شرفة البيت وتحدث... عن أحوال العالم، ربّما. سيكون هذا موضوعًا جيّدًا. أو ربّما عن السعادة التي يعدّنا بها الله. وفي الصباح نعبّر الطريق لتتولّى أعمال السيّد. ما رأيك؟»

تحدّث خليل للزبائن عن زفافهما المزدوج قريبًا، ودعاهم إلى الوليمة التي وعدهما بها السيّد. قال: تعرفون السيّد، سيكون كلّ شيء نقيًا، حلالًا. وحدّثهم عن الراقصين، والمغنيين، والرجال الذين يرتدون سيقانًا طويلة، وموكب الفتیان والفتيات وهم يحملون المباخر، يحاذيهم رجال يرشّون ماء الورد، وكلّ شيء. ولائم بكلّ أصناف الطعام. وموسيقى صارخة طوال الليل. أمّا يوسف فكان يتسم مع الآخرين. من المستحيل ألاّ يتسم، فيما يخترع خليل خيالاته وينمّقها. وحين طلب الزبائن من يوسف أن يؤكّد كلامه، قال لهم إنّه أصيب بلوثة. «يهلوس من أثر الحمى. لا تبدي له شيئًا، وإلاّ زاد توتره وساءت حالته».

حين جاء مزي حمداني لإنجاز أعماله اليومية في الحديقة، ناداه خليل وقال: «أيها الولي، المبارك، ستتزوج، نحن الاثنين. ألسنت متفاجئًا؟ سوف يجهّزنا السيّد للحياة. ما رأيك أن تغني لنا إحدى قصائدك حين يسمح وقتك؟ من كان يتوقّع لنا هذا الحظّ؟ بالمناسبة، لن تجد هذا الشاب في الحديقة بعد الآن. ستكون له أرض أخرى يحرقها، وشجيرات يقلّمها».

في بادئ الأمر رأى يوسف فيما يفعله خليل تهريجًا سعيدًا لأنّ الأمور سارت على ما يرام. فقد انتهى موضوع السيّد في هدوء، ولم يجروّ يوسف على تنفيذ خطّته مع أمينة. وحين يكون جاهزًا لذلك، سيتعامل معه العمّ عزيز بالطريقة التي يراها. لكنّه أدرك أنّ خليلًا كان

يسخر منه. فبعد الكلام الشجاع المحموم الذي كان يقوله سابقاً، لم يستطع إلا أن يصمت صمتاً مهزوماً أمام دعوات التاجر. قال في نفسه لقد أصبحت متساويين الآن، فكلّ منهما يعمل حرّاً في خدمة التاجر. يقبلان الأيادي. كان خليل قد صاغ تفسيراً لهذا الذلّ الذي يعيش فيه، وهو أنّه يكفر عن الخطأ الذي ارتكبه والده في حقّ أمينة. أمّا يوسف فلم يكن لديه تفسير للبقاء في خدمة التاجر.

ضحك خليل وقال: «السيد. من الأفضل لك أن تتعلّم قولها الآن».

7

عرفوا عن الجنود أوّل مرة حين رأوا رجالاً يركضون أمام الدكان. كان ذلك في وقت متأخّر من العصر، حين يتجول الناس في الشوارع للاستمتاع بالجوّ والأحاديث، فيما يعود آخرون من البلدة إلى بيوتهم. فجأة بدأت مجاميع الناس تتفرّق، يخرجون عن الطريق أو يتجهون نحو الريف، ويصيحون بكلام عن العساكر. ركض خليل إلى البيت، محدّراً، فيما أغلق يوسف الدكان بأسرع ما يمكن. جلس الاثنان في ذلك الكهف المظلم، بقلب خافق وتكشيرة يلقيها الواحد منهما للآخر. في البدء خنقتهما روائح البضائع، ولكنّ ما إن اعتادا تلك الروائح حتّى عادت أنفاسهما. كان يمكنهما رؤية الفسحة والطريق من شقوق الألواح التي تغلق الدكان. لم يمض وقت طويل حتّى رأيا تلامّ من الجنود يسرون على مهل خلف ضابطهم الأوروبي، الذي كان يرتدي زياً أبيض. فلما اقترب الرتل، لاحظا أنّ الضابط شاب

نحيف طويل القامة، مبتسم. ابتسم كلّ منهما للآخر، وتراجع خليل عن الفتحة التي كان ينظر منها، وجلس في مكانه، يتنهد.

كان العساكر يسIRON حفاة، وفي ترتيب كامل. استدار الضابط نحو الفسحة، فاستدار الرجال بحدة معه. وما إن بلغوا الفسحة حتّى انفرط عقد الرتل. أخذوا يبحثون عن ظلال يتفوّونها، وألقوا بأكياسهم وأجسادهم على الأرض في تبسم وتنهيد. ظلّ الضابط واقفاً لحظات، يتأمل البيت والدكان المغلق. ثمّ بدأ يمشي نحوهما على مهل وهو ما يزال مبتسمًا. فلمّا ابتعد الضابط انطلق الرجال في الحديث والضحك، وصاح أحدهم بشتيمة.

لم يرفع يوسف عينه عن الفتحة، وراقب الألماني المبتسم بتكشيرة مرتعبة. توقّف الضابط عند الشرفة، ثمّ ابتعد عن أنظار يوسف. صاح في رجاله، فجلبوا له مقعدًا وطاولة مطوية إلى الشرفة. جلس هناك، ووجهه لا يبعد أكثر من سنتيمترات قليلة عن لوحات الدكان. عندها أدرك يوسف أنّ الضابط لم يكن صغير السنّ كما بدا لهما، وبشرته مشدودة ناعمة، وكأنّه يعاني حرًا أو مرضًا. أمّا ابتسامته فكانت تكشيرة ثابتة، من تشوّه. أسنانه مكشوفة، وكأنّ جلده المشدود قد بدأ يتعقّن ويسقط حول فمه. كان وجهه وجه جثة، فصدم يوسف من قبحه ونظرة القسوة فيه.

سرعان ما نهض العساكر بأمر من الرقيب الذي كان رجلاً قويّ المظهر، ذكرّ يوسف بسimba مويني، فوقفوا في مجموعات متبرّمة، ينتظرون. كانوا جميعًا ينظرون في اتجاه الضابط الألماني الذي كان يحدّق أمامه، ويرفع كأسًا إلى شفّتيه بين الفينة والأخرى. لم يكن يرتشف الشراب، بل يضع حافة الكأس على فمه المريض ويسكب. في النهاية نظر إلى الجنود ورآه يوسف يومئ لهم.

انطلق العساكر قبل أن يخرج الأمر من فم الرقيب. بسرعة خارقة ودقيقة وقفوا في انتباه، في طابور واحد، ثم تفرقوا إلى مجاميع من ثلاثة أشخاص، ينطلقون في اتجاهات مختلفة. وبقي ثلاثة منهم يحرسون قائدهم. وقف عسكري واحد على كل جانب من الدكان، فيما سار الثالث إلى الخلف وفتح باب الحديقة. رفع الضابط الكأس إلى شفّتيه، ثم قلبه كي يصبّ السائل في فمه المفتوح. ابتلع السائل في شراهة، واحمرّ وجهه. تقطّر شيء من السائل على ذقنه، فمسحه بظاهر يده.

عاد العسكري الذي ذهب إلى الحديقة وقدم تقريره للضابط. مرّت لحظة قبل أن يدرك يوسف أنّه كان يتحدث بالسواحلية، وقال إنّ لا يوجد في الحديقة سوى بعض الفاكهة، وإنّ باب البيت موصد. لم ينظر الضابط إلى الجنديّ، لكنّه بعد أن عاد إلى ظلّ الشجرة، استدار الضابط وحدّق في الدكان المغلق خلفه. بالنسبة إلى يوسف، كان الضابط ينظر في عينيه مباشرة.

بدا أنّ وقتًا طويلًا مضى قبل أن يعود العساكر، يغنون ويصرخون وهم يقودون أسراهم أمامهم. وامتلاّت الفسحة بالرجال. نهض الضابط الألماني على قدميه، وسار إلى حافة الشرفة، شابكًا يديه خلف ظهره. وهمس خليل في أذن يوسف: يأجوج ومأجوج. بدا الخوف واضحًا على معظم الرجال الذين كانوا يقادون إلى منتصف الفسحة، ينظرون في صمت حولهم وكأنّهم في مكان لا يعرفونه. وثمة آخرون بدوا سعداء، يتحدثون فيما بينهم ويصيحون بشتائم ودّية مع العساكر الذين لم يبدوا مستمتعين بذلك. انتظروا بضع دقائق، ثمّ ساروا بين أولئك المهرّجين فأسكتوهم بضربات قويّة ومسحوا البسمة من وجوههم.

فلما عاد جميع العساكر، وجُمع الأسرى كلهم في المتصف
دون أن ييتسم أحد منهم، سار الرقيب إلى الشرفة في انتظار أمر
الضابط الألماني. فأوماً هذا، وصاح الرقيب في ارتياح قبل عودته إلى
رجاله. وُضع الأسرى في طابورين صامتين، وسيقوا في الظلام نحو
البلدة. تقدّم الضابط الألماني ذلك الرتل المختلط، منتصب القامة،
بخطوات مدروسة لا تلفت الانتباه. وزيّه الأبيض يتوهّج تحت الضوء
الذهاب.

وقبل أن يختفي الرتل، انسلّ خليل من الدكان وجرى نحو الحديقة
ليتأكد من سلامة الجميع. كانت الحديقة ترقد في صمت رصين، ترتعش
موسيقاها الليلية على نحو غير محسوس في تلك العتمة. وذهب يوسف
يتفقد ما خلفه العساكر. اقترب في حرص، يتشمّم آثارهم وكأنه يتوقع أن
يتركوا أثراً لاذعاً لمروهم من هناك. تمخّضت الأرض تحت أقدامهم،
وظلّ شيء من اضطراب في الهواء. وخلف ظلّ الشجرة الصوفيّة، وجد
أكواماً من البراز تتقمّمه الكلاب في نهم. نظرت إليه الكلاب في ارتياب،
من أطراف أعينها. ثمّ التقت قليلاً، لحماية طعامها من نظرتها الطامعة.
نظر لحظة، مندهشاً، وقد فوجئ من قدرتهم على هذا التمييز القذر.
فالكلاب تعرف آكل الخراء حين تراه.

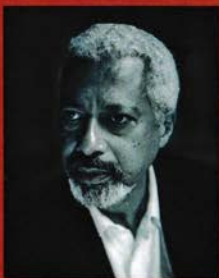
هكذا رأى مرة أخرى جُبنه يلتمع تحت ضوء القمر، وتذكّر أنّه قد
راه سابقاً يتنفّس. كانت تلك لزوجة الولادة، ولادة خوفه الأوّل حين
تخلّى أهله عنه. والآن، وهو ينظر إلى جوع الكلاب المنحط، خطر له
أنّه يعرف ما سوف يحدث لرعبه. كان الرتل ما يزال واضحاً في الأفق
حين سمع صوتاً يشبه درْبسة الأبواب خلفه في الحديقة. نظر بسرعة،
ثمّ جرى صوب الرتل بعينين ملتاعتين.

مكتبة

الفردوس

الصَّبِيِّ أَوَّلًا. كَانَ اسْمُهُ يُوسُفَ، وَقَدْ رَحَلَ عَنْ بَيْتِهِ عَلَى حِينِ فَجَاءَةٍ فِي عَامِهِ الثَّانِي عَشَرَ. يَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ مُوسِمَ جَفَافٍ، فَمَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ إِلَّا وَيُشَبِّهُ سَابِقَهُ. زَهْوَرٌ تَتَفَتَّحُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا، وَقَوَتْ. حَشَرَاتٌ غَرِيبَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ الصَّخُورِ، تَتَلَوَّى إِلَى فَنَائِهَا فِي الضَّوِّ الْحَارِقِ. أَشْجَارٌ بَعِيدَةٌ تَرْتَعَشُ فِي الْهَوَاءِ مِنْ أَثَرِ الشَّمْسِ، فِيمَا الْبُيُوتُ تَخْتَلِجُ لَاتِلِقَاطِ أَنْفَاسِهَا. سُحْبٌ مِنَ الْغُبَارِ تَهَبُّ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ، وَسُكُونٌ ثَقِيلٌ يَجُثُّ عَلَى سَاعَاتِ النَّهَارِ. مِثْلَ هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الدَّقِيقَةِ كَانَتْ تَأْتِي فِي أَوَاخِرِ الْمَوْسَمِ

عبد الرزاق قرنح، من مواليد زنجبار (1948). روائي وأكاديمي تَنزانيّ من أصول يمنية، يُقيم في المملكة المتحدة ويحمل الجنسية البريطانية. يعملُ قرنح أستاذًا ومديرًا للدراسات العليا في جامعة كنت في قسم اللغة الإنكليزية. في رصيده عشر روايات والعديد من القصص القصيرة والمقالات. ترشحت أعماله لعدة جوائز مثل، البوكر، الكومنولث للكتاب. وفي أكتوبر 2021 حازَ قرنح على جائزة نوبل في الأدب.



credit Mark Pringle